الفِكْرُ بين قضيَّة عقليَّة وأخرى

أ د. عقيل حسين عقيل

طرابلس ليبيا

2024م

جدول المحتويات

المقدِّمةُ 4

الفِكْرُ 6

الفكرةُ: 12

توليد الفكرة: 15

قضيّة التلازم الفِكَري: 27

قضيَّة الفكرة: 35

العقلُ يُجسّد الفكرة: 38

الفكرةُ حلًّا: 40

قضيَّةُ الفكرة تُضاد الفكرة: 41

الوعيُ فكرًا يُفطنُ الذَّاكرة: 57

محطات العقل الفكريَّة.............................65

الفكر تذكُّرًا:..................................65

الفكر تدبُّرا: 73

الفكر تفكُّرًا: 93

العقلُ فكرًا واستنارة:...........................123

العقل بين المتعرّف عليه والمجهول: 134

العقل يصنع المستقبل: 135

مِنَ العقلِ إلى الفِكْرِ: 143
الخوف يستنهض العقل فكرًا:............................ 159
العقل فكرًا لا للمظالم:........................... 176
استجلاء العقل فكرًا واستنارة: 180
العقل والفكر الأناني:............................. 224
المؤلِّفُ في سطورٍ 233
صدر للمؤلّف 235
المؤلَّفاتُ المنشورة 237

المقدِّمةُ

الفِكْرُ قضيَّة عقليَّة تمكِّن من الاستنباط والاستقراء، وتلفت إلى معطيات المشاهدة والملاحظة، وتستوقف العقل عند كلّ متغير من متغيراتها المستفزّة للمعرفة، وتمكّنه من كشف العلاقات بين المقدِّمات والنتائج.

ولذا فالفِكْر كونه مولود العقل لا يمكِّن من الإضافة العلميَّة والمعرفيَّة إلَّا بعد مزيد من المستفزّات الذهنيَّة، التي تلفت أهل العقول الفطنة إلى تلك العلل والأسباب والمسبّبات الممكّنة من استكشاف القوانين وصوغ النَّظريَّات المسيّرة للظّواهر الطّبيعيَّة والاجتماعيَّة.

ومن هنا فقد بيَّنا في هذا المؤلَّف الفرق بين الفِكْر كونه الصّوغ العام للمعرفة العلميَّة المصنَّفة، والفِكَر كونها (مجموع الفكرة)، أمَّا الأفكار فهي التي لم تصنّف بعد؛ لكونها ما زالت تحت الاختبار والمراقبة والملاحظة.

والفِكْر بين قضيَّة وأخرى هو الموضوع الجدلي الذي بالمجادلة في قضاياه يتمّ التبيّن بعد وعي واستقصاء؛ ولذلك فإنَّ القضايا الفكريَّة تتلازم في حلقات متداخلة تارة تتوافق في معطياتها وتارة تتضاد؛ ولهذا فإنَّ العلاقة بين العقل والفِكَر (مجموع الفكرة) هي علاقة ترابط وتداخل، والعلاقة بينهما عبر الزّمن لا تنقطع إلَّا في حالة واحدة أن يفقد العقل مدركاته الواعية.

ومن هنا نجد أفكار العقل المتبيّن منسجمة مع الزّمن وما يحتويه من تاريخ مضامينه وكأنَّها المنسوجة فيه نسجًا؛ ولذا لا يقطع الإنسان مسافات عبوره المعرفيَّة إلى الامام دون عودة إلى معرفة ما تحتويه سجلَّات التَّاريخ؛

وذلك بغاية استقراءه، وأخذ العبر منه؛ كونه المخزن العظيم للمعلومات الواسعة.

ولهذا فقد ميّزنا في مؤلَّفنا هذا الفرق بين:

. **التذكُّر**: الذي به نتمكّن من معرفة تاريخ تلك المعارف والعلوم والتجارب، ومدى استفادتنا منها في وقتنا الحاضر، ومعرفة ما يمدّنا بالثّقة الممكّنِة من النَّظر إلى الامام ونحن نتابع غاياتنا ومأمولاتنا المنتظرة.

. **التدبُّر**: الذي لا يكون إلَّا بالالتفات إلى حاضرنا دون أن نغفل عن أهميَّة قبولنا تحدّي الصِّعاب التي تحاول أن تتربص بنا الدّوائر، في الوقت الذي نحن واثقون بأنَّ الصّعاب لا تستطيع الصّمود امام المتحدين لها صبراً مع تحمّل ما يترتَّب على ذلك من مسئوليَّة.

. **التَّفكُّر**: هو الذي يولّد الجديد المفيد بعد أخذ عبر ومواعظ من تلك النجاحات وتلك الانتكاسات التي وقع فيها البعض كونهم لم يتطلّعوا إلى صناعة المستقبل غاية من بعد غاية ومأمول من بعد مأمول.

أ د. عقيل حسين عقيل

طرابلس ليبيا

2024م

الفِكْرُ

الفِكْر هو حيويَّة الدّراية والاستنارة العقليَّة الممكِّنة من الاستقراء والاستنباط والقراءة الموضوعيّة للمشهد في ذلك الماضي بغاية التعرّف على تلك التجارب التي صمدت أو انكسرت في اثناء المواجهة الصِّعاب بأنواعها؛ وذلك بغاية الاتعاظ وأخذ العبر، وكذلك قراءة المشهد الحاضر بغاية تدبُّره الممكِّن من النّهوض والرّفعة، ثمَّ قراءة معطيات المستقبل بغاية رسم الخطط والاستراتيجيَّات الممكّنة من بلوغه ونيل المأمولات والفوز بها.

ولذا فإنَّ الفِكْرُ انشغال ذهني بقضيَّة مِنَ القضايا، أو مجموعة منها؛ كونها المحدثة للتأزُّمات السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، أو الدِّينيَّة والنَّفسيَّة والثَّقافيَّة والذَّوقيَّة فتحفِّز العقل بحثًا وسعيًا عن إيجاد مخرجٍ ذا حلول ومعالجات تمكِّن من الخروج من تلك التَّأزُّمات واحدًاث التغيير؛ ولذا فالفِكْرُ هو: الصّوغ العام للأفكار والرّؤى وفقًا لما يستنتجه الصّائغ ويفسّره، قبل أن يقدّمه للآخرين؛ ليكون بين أيديهم نظريَّة متكاملة تفيد معالجة ما وقعت فيه المجتمعات من تأزُّمات. وقد يكون الأمر متعلّقا بشأنٍ علمي فتكون النَّظريَّة المتحصّلة خير ما يفسّر المشكل ويقدّم له حلًّا.

ولهذا عندما تكون الفِكَر (مجموع الفكرة) إنتاج العقل، يكون الفِكْر هو إعمال العقل وصوغه وتفسيره. والفِكْر هو نتاج تلاقح الأفكار وصوغها في بوتقة النَّظريَّات الاجتماعيَّة والإنسانيَّة والطَّبيعيَّة.

ومن ثمّ فالفِكْر هو عمل العقل في توظيف الفِكَر (مجموع الفكرة) بغاية تفسير الحقائق والنَّظريَّات سواء أكانت في مجال العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة أم إنَّها في مجال العوم الطَّبيعيَّة.

والفِكْر هو الصّوغ العام لما وصل إليه العقل البشري من نتائج وتجارب مع تطلّع ذهني لما يمكن أن يكون مأمولا للأفراد والجماعات والمجتمعات، وتصوّر عملي يظهر القابليَّة للتطبيق وفقًا للنتائج المراد تحقيقها. وهو التنظير المرسّخ لسابق أو المطوّر له، أو المتضادّ معه، أو المتجاوز لما سبق بحلولٍ جديدة ميسّرة، وهو أوسع من الفكرة، حتى وإن كانت الفكرة من ورائه مولود حيرة.

فالفِكَر تلد الحلول، والفِكْر يتلقّفها ويوظّفها ثمّ يظهرها في صوغٍ مفسّر للظَّواهر. والعلاقة واضحة بين الفِكَر (مجموع الفكرة) وبين الفِكْر الذي اتخذ صفته من الفكر ذاته؛ كونه لا يكون إلَّا منه، ولهذا كان التطابق بين الاسم مع الصِّفة؛ فالاسم فِكْر؛ كونه ذو ذاكرة وذهن وله ملكات التمييز والتفاعل التي بدونها لا تنتج الفكرة ولا تصاغ الأفكار، وكونه صفة؛ لأنَّ الأمر يتعلّق بما صاغه الفِكْر من أفكار ونظريَّات ومعارف تعكس واقع الفِكْر من حيث المقدرة على العمل المنتج، وهذا يدلُّ على العلاقة المباشر بتلك المحفظة (الذَّاكرة)، وبذلك الذّهن العقلي الذي لا تكون المعارف إلَّا به، وهنا تطابقت الصِّفة مع الموصوف (الفكْر الذي هو من الملكات العقليَّة مع الفكْر الذي هو ما يستخلصه العقل من حلول ومعالجات للمعضل البشري).

ولسائل أن يسأل:

لماذا سمي التفكير بهذا الاسم تفكيرا؟

لأنَّه من الفِكر الذي لو لم يكن وجودا ما كان للتفكير مكانة؛ فالذي تميّز به، به وُصف (مفكّر)، ولا إمكانيَّة لأن يكون مفكرًا لو لم تكن له ملكة التفكّر. فآدم لو لم يفكّر ما استغفر ربّه، أي لو لم يكن لآدم فكرًا ما فكّر، ولهذا الفكْر في أساس وجوده خَلقا (خُلق الإنسان عليه).

ومن هنا فالمفكّر هو الذي تلد الفكرة من ذهنه، ولأنَّ الفكرة مولود ذهني، إذن ألا يكون الذّهن هو مكان الملكة الفكريَّة؟

وعليه: فالفرق كبير بين ما نفكّر به، وبين ما نفكّر فيه، فالفِكْر كونه ملكة عقليَّة نفكّر به، والفِكر كونه منتوج معرفي نفكر فيه وهو لا يكون إلَّا بين سالبٍ وموجبٍ؛ ووفقًا للإرادة نقبل أو نرفض، ونصحّح أو نضيف.

والسُّؤال:

من الذي يفكِّر، هل الذي له عقل، أم الذي له فِكر؟

العقل خُلق مع كلّ مخلوق، ولكن بنسب غير متساوية، وإلَّا العداءات وما يصحبها من التحايلات والدّسائس التي تجري بين القطط والفئران، والثّعالب والدّجاج، والمفترِس والمفترَس ألا تكون هي نتاج عقل وإن كان العداء فطريًّا؟

كلّ هذه العداءات لا مصالحة من بعدها؛ وذلك لسبب واحد، ألا وهو غياب الفِكْر من عقول تلك المتربصات بعضها ببعض؛ ومن هنا تكون

الإجابة الذي يفكّر هو الذي له فِكْر من صُلب خَلقه، وهذا لا يتوافر إلَّا عند الإنسان الذي خَلقه الله في أحسن تقويم.

فالعقل لا شكّ أنَّه يمكّن من التمييز، ولكنَّه لا يمكّن من المراجعة حتى يتمّ التقييم والتقويم والتصحيح وتغيير الخطط ورسم خطط بديلة واستراتيجيَّات بعيدة المدى؛ فالعقل بلا فِكْر يقود إلى المغالبة، القوي يأكل الضَّعيف، أمَّا الفِكْر فهو الضّابط للسُّلوك والفعل والعمل: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[1]. ولهذا فالكائنات الأخرى لها عقول تمكّن من الأفعال السُّلوكيَّة، ولكنَّها لا تمكّن من التفكير ورسم الاستراتيجيَّات وهذه خاصّية الإنسان التي خُلق عليها.

ولأنَّ الفِكْر ملكة من ملكات العقل الواسعة؛ فالإنسان إذا ما سؤل عمّا يسأل عنه في الوقت الذي يكون في الإجابة شيءٍ محيّرٍ؛ فلا يجيب إلَّا بعد أن يعود إلى ملكة الفِكْر ليتدبّر أمر السُّؤال دون عفوية غير مسؤولة. ومن ثمّ لا يمكن أن تتمّ المراجعة ما لم يكن الفِكر يشغل الحيّز الكبير بين ملكات العقل الواسعة؛ ولهذا فالمفكّر بطبعه يتدبّر أموره فكرًا قبل أن يتخذ قراره؛ ذلك لأنَّ الفِكْر يمكّنه من المعرفة والتمييز والاختيار كما يمكّنه من اتخاذ قرار العفو والصَّفح والتصالح والتسامح. أمَّا غيره من الكائنات على الرُّغم من أنَّها تعقل، فإنَّها لا تصفح ولا تعفو ولا تسامح ولا تصلح.

والإنسان لو لم تكن له ملكة الفِكْر؛ فهل له أن يفكّر؟

---

[1] التين 4.

أقول: إنَّ العقل حتى وإن كان بغير فكر فهو يُمكِّن من التعرّف، كما يتعرّف الكلب على صاحبه، وكذلك يمكّن من (الوقوف على الأشياء) وكيفيَّة تجنّبها كما هو حال الكائنات عندما تتفادى السّقوط في بئر أو الوقوع في النَّار، ويمكّنها من التعاون كما حال النَّحل والنَّمل، ولكنَّه لا يمكّن من معرفة كيف خُلقت، ولا يُمكِّن من حُسن التصرّف، ولا يمكّن من رسم الخطط والاستراتيجيَّات؛ فالذي يمكّن من ذلك هو الفِكْر؛ ومن ثمّ فالذي له ملكة فكريَّة ليس له إلَّا أن يفكّر ويحسن تصرّفه؛ كي لا يصطبغ سلوكه وفعله وعمله بالحيوانيَّة؛ حيث العقل بلا فِكْر.

ومن هنا فالفرق كبير بين من يعقل ولا يفكّر، وبين من يعقل ويفكّر، فالذي يعقل ولا يفكّر يدرك ويسلك، ويتحسّس الأشياء وينشئ منها شيئًا كما هو حال النَّحل وبناءه من الطّين بيوتا، أمَّا الذي يعقل ويفكّر يدرك الأشياء حسّا ودلالة ومعنى، وهو كما يدرك المشاهد يدرك المجرّد، ويتطلّع لأحدَاث النُّقلة إلى ما هو أفضل وأجود، وله من الفِكْر ما يمكّنه من معرفة هيئة الشَّيء المراد صُنعه قبل أن يكون بين الأيدي شيئًا مشاهدا، كما أنَّ الفِكر يمكّن من التطلّع إلى معرفة الكيفيَّة التي خُلقت المخلوقات عليها، ولا يتوقّف حتى يتمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا ومعرفة المعجز معجزا: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[2].

[2] الغاشية 17 . 21.

إذن الفِكْر اسم متلازم مع الصِّفة الفكريَّة، فهو الفِكْر خَلقا، والفِكْر معرفة، والسُّؤال:

هل الإنسان الأوَّل اكتسب الفِكْر من بعد ما خُلق؟ أم إنَّه خُلق والفِكْر من خَلقه؟

أقول: خُلق آدم ولا فكر يسبقه، وهو لم يكن مفكّرٍ (منظّرٍ) ومع ذلك تعلّم والمدرسة لم تبنى، وهنا يُطرح السُّؤال: بما أنَّه لا تنظير (لا فِكْر) مسبق على خَلق آدم، إذن كيف كان آدم متلقِّيًا للنبأ العظيم لو لم يكن له عقل والفِكْر مركزه؟

نعم أنَّ آدم عليه السَّلام لم يؤسّس لفكرٍ، بل فِكْر آدم مكّنه من تلقي النَّبأ العظيم، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[3].

ولأنَّ لآدم فكْر فقد ارتكب الخطيئة، ولأنَّ لآدم فكْرٍ فقد استغفر ربَّه؛ فتاب الله عليه، ومع ذلك كان حكم الله نافذ، ففتقت السّماء الدُّنيا والأرض الدُّنيا وأهبط بهما ومِن كلِّ زوجين اثنين، ومن بعد ذلك أصبح فِكْر آدم الذي خُلق له خَلقا مشغولا بتلك الجنَّة التي بقيت في علوٍّ، وهو يأمل العودة إليها؛ ومن هنا نعرف أنَّ آدم كان على الفِكْر مفطورا، ومن ثمّ كان الفِكْر خاصّيَّة آدميَّة.

[3] البقرة 31 . 33.

ولأنّه خاصّيّة آدميّة؛ فلا بدّ للمفكّر أن يفكّر؛ ذلك لأنَّ التفكير من طبعه، ولهذا فالفِكْر يمكّن من الاستشعار والاستنباط والتدبُّر الذهني، وهذه لسيت بالمستشعرات الحسيّة الملموسة؛ ومن هنا يتميَّز العقل الإنساني بملكات تفوق تلك الملكات العقليَّة لبقيّة الكائنات التي لها من العقل ما لها، وعلى رأسها ذلك الغراب الذي أرشد الإنسان في اثناء الغفلة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}[4].

أمَّا الفكْر المكتسب؛ فهو لا يكون إلّا بأسباب التعلّم والمعرفة والتجربة والخبرة والدّراية، وهو الذي يجسّد صفة الفِكْر على الإنسان كونه المفكّر، وهنا قال أبو حامد الغزالي: "اعلم أنَّ الفكْر هُوَ إحضار معرفتين في القلب ليستخرج منهما معرفة ثالثة"[5] وقال جون ديوي: "إنَّ التفكير هو النّشاط العقلي الذي يرمي إلى حلّ مشكلة ما".

الفكرةُ:

الفِكرةُ هي نتاج التفاتة العقل إلى ذلك الشيء المحيّر وهو الملفت للتوقّف عنده، وصاحب الفكرةُ في بداية التمعُّن في المشاهد أو الملاحظ يكون أقرب إلى الانسحاب من المشهد؛ إلَّا أنَّ أصحاب العقول العلميَّة وأهل الدّراية سيظلون مع الحيرة حتى تجد لهم الحيرة العقليّة حلًّا؛ ولهذا

---

[4] المائدة 30، 31.

[5] المرصد الفكري، مفهوم الفكر، طه جابر العلواني، 3 يوليو، 2014م.

فالفكرةُ مكمن الحُجَّة والتصوّر العقلي وهي تمتدّ من الذّهن إلى ميادين العمل فَتُفعل، وهي في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع بين أبدًاع واستقراء وتطوّر، ويترتّب عليها تقبُّل أو رفض، وبها تتحسّن الأحوال أو تسوء (إصلاحًا أو إفسادًا). ولهذا يتطوّر فكر الإنسان بتوليد فكرة من فكرة، من المجرّد المدرك إلى الملاحظ المتهيئ إلى المشاهدة، أو من المشاهد إلى الملاحظ ثمَّ إلى المدرك، وهكذا تولَّد الفكرة من الملاحظ بما يجعلها في حالتي المشاهدة والتجرّد.

وفي الواقع إنَّ الأفكار كنشاطات ذهنيَّة يقوم بها الإنسان كونها خاضعة لإرادته إلى حدٍّ بعيدٍ؛ فهو في دائرة الممكن يُبدع الفكرة، بل يمكنه أيضًا أن يضع تصوُّرًا محدّدًا للصّورة التي ينبغي أن يكون عليها التنفيذ، وهو قبل كلّ هذا وذاك بإمكانه أن يختار من بين عدّة أفكار ما يريد، وأن يرفض ما لا يريد، وبهذا ترتبط الأفكار بالإرادة على الرُّغم من أنَّ وجود الإنسان المريد لم يكن بإرادة.

وعليه: هل نملك دائمًا أن تحتشد أذهاننا بشتّى أنواع الفكر؟ وهل نملك أبدًا حرّيَّة التنفيذ وحرّيَّة اتخاذ قرارات بشأنها؟ وهل نملك أن نقف بمسارات تفكيرنا عند حدٍّ معين إذا ما تبدت لنا أفكار متسلّطة تسيطر على الذّهن دون أن نستطيع محوها بإرادة؟

أقول:

إنَّ كلّ ذلك ممكن، ممّا يجعل الإنسان نفسه في حالة التخيير عندما تكون الإرادة في دائرة الممكن، ويجد نفسه في حالة التسيير عندما لا تكون

الإرادة والقدرة في دائرة الممكن؛ ولذا في هذا العصر تزداد السّرعة في توليد الفكرة، وأكثر سرعة تظهر في التطوّر والتنوّع المصاحب لها؛ فمن المعلومة تتولّد معلومات، ومن المهارة تتولّد مهارات، ومن الفكرة تتولّد أفكار، وهكذا من الخبرة تتولّد الخبرة، كما يتولّد الدّخل من الإنتاج في أسواق المنافسة الحرّة؛ فاليابان على سبيل المثال: لا تهتم كثيرًا بإنتاج الفكرة بقدر ما تهتم بتحسينها؛ وذلك لأنَّ مطالب السّوق كثيرة ومتنوِّعة، وإنتاج الفكرة يحتاج إلى زمن أطول، أمَّا تحسين الفكرة فزمنه أقصر إذا ما قورنا بزمن إنتاجها، وهكذا الحال في كوريا الجنوبيَّة التي تَعُدّ نفسها في حالة تنافس مع العقل الياباني في تحسين الفكرة.

وفي زمن ما قبل العولمة لا يُهتم كثيرًا بالعقول في المجتمعات والطَّبقات الفقيرة؛ وذلك للافتراض السَّائد بأنَّها عقول غير مبدعة، وغير قادرة على الإنتاج. أمَّا في هذا الزَّمن فالشّركات العابرة للحدود تخترق الكبير والصَّغير، والغني والفقير، وهي تبحث عن مكامن الأفكار التي يمكن أن تكون قادرة على نقل صاحب الفكرة من طبقة الفقر إلى طبقة الغنى، وهذا الأمر يترتّب عليه سقوط البعض من طبقات الأغنياء إلى طبقات الفقراء.

ولذلك فإنَّ الفكرة التي يُسوّقها القطيع الإلكتروني في عصر العولمة هي: لا داعي أن يتمسّك النَّشأ بثقافة الآباء والأجداد، بل عليه أن يلتفت إلى التعرّف على نفسه وما يستطيع أن يُقدّم للمستقبل؛ ومن يُكتشف في ذهنه فكرة أو حتى في قدمه إذا لم يكن من المتعلّمين كما هو حال اللعيب البرازيلي رونالدو الذي في زمنه كان التنافس عليه في السّوق العالمي بين الأندية وشركات الدّعاية، وهكذا غيره كثيرين ممّا ترتّب عليه خروجهم في

الحال من طبقة الفقراء إلى طبقة الأغنياء؛ ولذا في دائرة المتوقَّع وغير المتوقَّع أصبح من الممكن الانتقال المفاجئ صعودًا أو هبوطًا لكلّ من يقدر على المنافسة الحرّة بجهده أو فكرته أو ماله.

وعليه: كانت الفكرة السَّائدة بين التجّار الكبار والتجّار الصِّغار المنافسة الحرّة إلى أن تصبح التجارة في استطاعت كلّ واحدٍ من الجميع، أمَّا اليوم أصبح الشِّعار المنافسة الحرّة هي التي لا يستطيع عليها إلَّا الجميع؛ ولذلك بدأت اتجاهات الاندماج في السّوق بين أصحاب الشركات الكبرى، وهذا أدّى وسيؤدّي بدوره إلى سقوط الكثيرين غير القادرين على المنافسة الحرّة وعدم مزاولتهم التِّجارة كما كانوا يفعلون، وهكذا ستكون المنافسة في هذا العصر حتّى على مستوى الحصول على فرصة عمل؛ فإنْ لم يكن للفرد أكثر من مهنة أو أكثر من حرفة وأكثر من لغة فلن يستطيع دخول سوق المنافسة الحرّة ليتمكّن من الحصول على فرصة عمل.

توليد الفكرة:

تُنتَج الفكرة عقلًا ولا شيء غير العقل، ولكنَّها لا تنتج إلَّا باستفزازٍ ذهني يثيرها بمشاهدةٍ أو بحيرةٍ، ومن هنا هي من إعمال العقل الذي يستمدّ الشَّيء المجرّد من الشَّيء المشاهد أو الملاحظ، كما هو استمداد القوانين من المعطيات الكونيَّة والطَّبيعيَّة، ولأنَّها مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه، وُلدت منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النَّاس، وهي لا تكون كذلك إلَّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة

أثارت العقل انتباها لما يجب؛ فتدفعه حيويَّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين المحيّر والمأمول.

ومع أنَّ الفكرة تخلّص من الحيرة، فإنَّها لا تكون ارتقاء إلَّا من بعدها؛ فالحيرة بالنّسبة للفكرة تعدّ مخاض ولادة، وولادة الفكرة بدون حيرة تسبقها، هي ولادة قسريَّة؛ فلا يمكن أن يتطابق الزَّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريتها، فتلد مشوّهة، ومن ثمَّ ستكون الحلول أو المعالجات أو الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف للمأمول ارتقاء.

ومع أنَّ هذا الأمر يعدّ سالبًا بالنّسبة إلى الفكرة ارتقاء، فإنَّه الأمر المحيّر والمستفزّ لعقول الآخرين إيجابًا، ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة، تخرج من التأزّم.

ومع أنَّ زمن الحيرة الفكريَّة مُقلق لمن ألمت به وألمّ بها، فإنَّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنَّفس، وما يسرّ الغير ارتقاء؛ ولذلك فالبحوث العلميَّة ارتقاء تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الجديد المحفّز على حيرة جديدة من بعدها حيرات تُمكّن من إضافة ما هو أفيد وأنفع.

وعليه: فلا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يُقتنص له حلّا، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في الشَّيء استحالة أو إعجازا أو ممكنا حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة تلد له حلّا.

وهذا لا يعني أن تكون الحيرة غاية في ذاتها، بل الغاية من ورائها حلّا، ولكن هذا الأمر يتطلّب مقدرة على تحدِّي المقلق بما يُقلقه، حتى يصبح القلق بولادة الفكرة في خبر كان؛ فأهل العلم والبحث العلمي لا يمكن أن

يصلوا إلى غاية الارتقاء إلَّا بعد الحيرة، ومن لا يقبل الجلوس مع الحيرة تحدٍّ؛ فلا إمكانيَّة لأن يُكتب له التحدِّي في ميادين العلم والمعرفة المصنّفة.

ولسائل أن يسأل:

هل الفكرة والحيرة ولدتا مع مولد آدم، أم أنَّهما اللاحقتان عليه؟

بالنّسبة إلى آدم لم يكن مولودًا، بل مخلوقًا خَلقًا مباشرًا بلا أب ولا أم؛ ولهذا ما وجد عليه، فهو المخلوق معه خَلقًا، ولكن بنوه فكلّ شيء فيهم خُلق سلالة من نطفة؛ فآدم خُلق في أحسن تقويم، وهذا يدلّ على أنَّه معدّ للحياة لحظة خَلقه، أمَّا بنوه من بعده؛ فحالهم حال الولادة والنّمو والتعلّم والتعليم، أي: حلهم حال من لا يستطيع أن يفكّر لحظة الولادة، ولكن في دائرة الممكن يبلغ ذلك تعلّما وتعليما.

فآدم كانت علاقته بالخالق والمخلوقات من حوله علاقة فطرة مباشرة، ولكن المحيّر بالنّسبة إلى آدم هو حياته في كونين مختلفين على التّمام، كون الارتقاء (الجنَّة) وكون الدُّنيا (الأرض)، فهو بعد أن كسب الجولة خَلقا، خسرها خُلقا؛ وذلك بعد أن أهبط به بسبب المعصية التي ارتكبها، ومن هنا بدأ يفكّر كيف يمكنه الارتقاء ثانية من الحياة الدُّنيا إلى تلك الحياة العليا؟ في ذلك اليوم وُلدت الحيرة، أي وُلدت الحيرة إنذارا بولادة الفكرة؛ فكان الاستغفار والتَّوبة نتيجة الفكرة التي أخرجت آدم من حيرته إلى ما يُمكّنه من بلوغ الارتقاء إلى تلك الجنَّة التي أهبط منها. وهي الحيرة ذاتها التي ألمت بابنه في لحظة قتله أخاه، ولكنَّه وقف قاصرا عن المعرفة حيث لا فكرة

له عمَّا جرى بيديه؛ فبعث الله غرابا ليريه سُلوكا وعملًا يمكّنه من المعرفة بلا فكرة من عنده.

ولهذا فالفكرة ينتجها العقل، وتأخذها العقول، وتوظفها فيما يمكن أن يوظّف ويفيد.

وعليه:

لقد استلهم آدم الفكرة من أمورٍ:

الأمر الأوَّل، من طبيعة الفطرة: التي خُلق عليها واصطبغ بها وجوده في أحسن تقويم، ولكن لأنَّه خُلق على التسيير والتخيير؛ فكان للتسيير الطَّبيعة الخَلقيَّة، وكان للتخيير فسحة الإرادة التي مكّنت آدم من الأكل من تلك الشّجرة المنهي الأكل منها؛ فخالف أمر النّهي معصية؛ بأسباب قصور معرفته أمام كمال الخالق وإحاطته؛ ذلك لأنَّ آدم وبنيه لا يعلمون إلَّا ما يُعلّم، ومن هنا كان الإنباء لآدم مصدر المعرفة ومكمن الفكرة ارتقاء.

ومن هنا فالفطرة التي فُطرت المخلوقات عليها هي التي جعلت لكلّ زوجين خصوصيَّة، دفعتهما تجاه بعضهما بعضًا، وهي ذاتها التي حالت بينهما وبين الأزواج الأخرى إلَّا بما يفيد، فكانت حياة الفطرة ميسّرة لكلّ الأنواع تيسير جاذبيَّة نوعيّة، وغريزيَّة؛ ومع ذلك ظلّ الإنسان مهيّأ لما هو أعظم؛ فكان عقله مقلّدا لما يراه في دائرة الممكن تخييرا.

الأمر الثَّاني، التقليد: وهو الذي لا يكون إلَّا عن عقلّ، ولكن القصور على التقليد لا يمكّن من توليد الفكرة؛ ذلك لأنَّه لم يمرّ بزمن الحيرة الممكّن

من التعمّق في التفكير حتى كشف اللثام عن الحقيقة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فآدم تقليدا: قلّد إبليس؛ فأكل من المنهي عنه، وكذلك ابنه: قلّد الغراب؛ فعرف كيف يواري سوءة أخيه، وهكذا هي الحياة تطوّرًا من الخَلق إلى الفطرة، إلى التقليد، إلى توليد الفكرة، التي توليدها لا ينقطع فكرة من بعد فكرة. ولكن يظل التقليد قاصرا، والفكرة في حيّز العقل مهما عظمت؛ فهي لا تخرج عن دائرة الممكن؛ ولهذا بعث الله الأنبياء والرُّسُل بالنّبأ العظيم مبشّرين ومحرّضين ومنذرين وداعين للتفكير ارتقاء.

الأمر الثَّالث، النَّبأ العظيم: مع أنَّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه لم يُخلق على الكمال؛ ولهذا فتفكيره لا يمكن أن يخرج عن حيّز دائرة الممكن؛ فكان الإنباء بما يجب من الخالق إلى المخلوق يمكّن المخلوق من الوقوف على المعجِز، ومعرفة المستحيل مستحيلا؛ فأنزلت الأحكام المنظمّة للعلاقات بأسباب الاختلاف والخلاف الذي حدث على الأرض الدُّنيا، معصية واقتتالا، ليفتح آفاق التفكير فيما يجب أن يؤخذ، وما يجب أن يُجتنب، وما يجب أن يُنتهى عنه.

ومن ثمّ تعدّ الفكرة هي الأمر الرّابع الممكّن من المعرفة والبحث في دائرة الممكن، وهذا لا يعني أنَّ الإنسان قبل ذلك لا يمتلك الفكرة ، بل قبل ذلك كانت حياة الفطرة هي السَّائدة، ثمّ حياة التقليد، ثمّ من بعدها حياة الإنباء الذي جاء تنزيلا على الأنبياء والرُّسُل عليهم السَّلام، بهدف تقييم الأخطاء، وتقويم السّلوك والعمل، الذي ولّد الفكرة، وولّد منها أفكارا.

فالفكرة إنتاج العقل وإعماله، وهي بالنّسبة إلى مَن تولّدت في عقله مثل البذرة، أو النَّواة التي يراها المفكّر مخزّنة في محفظة ذاكرته وكأنَّها الشّجرة متكاملة، جذورا وجذعا وأغصانا وأوراقا وثمارا؛ فهو يراها على هيئة الصَّورة قبل أن تتجسّد في الشّكل والصَّورة؛ ومن هنا يكون مولود الفكرة هو الأبدًاع الذي يُسهم في إضافة الجديد النَّافع ارتقاء.

ولهذا فالفكرة في ذاتها مجرّدة؛ حيث لا هيئة لها إلَّا في ذهن المفكّر الذي نضجت في عقله مثلما تنضج النّواة من تربتها شجرة متكاملة؛ ولذا فالهيئة لا تكون إلَّا للصّورة التي في اساسها فكرة؛ ومن ثمّ فالفكرة ترتبط بالمشاهد والملاحظ مثلما ترتبط بالمجرّد، والفكرة متى ما تكون نتاج تذكّرٍ، يكون التفكّر هو المهئ لاصطيادها، أمَّا التدبُّر فلا يكون إلَّا نتاجها سُلوكا وعملًا.

والفكرة وإن كانت مجرّدة في الذّهن، فإنَّها على ارض الواقع تتجسّد في المشاهد والملاحظ، سواء أكانت معرفة قيم وفضائل ونظم وقوانين، أم إنَّها معرفة ملموسة مادِّيًّا؛ ومن هنا كانت هيئة الخلق سابقة على صورته مخلوقًا، وهيئة المصنوع سابقة على وجوده مصنوعًا.

ومن ثمّ فالفكرة متلازمة مع التكاثر تكاثرًا، فمع أنَّها لم تكن مخلوقة، فإنَّها تتخلّق في عقل الإنسان تدبُّرًا من بعده تدبّر، وإنتاجًا من بعده إنتاج؛ فهي القوَّة الموجدة لما لم يوجد من قَبل، وهي وإن لم تتطابق مع خلق الشَّيء من لا شيء، لكنَّها تتماثل معه من حيث إيجاد الشَّيء من الشَّيء نشوءا؛ فالإنسان الذي خُلق نشوءا زوجيّا، كان وجوده وفقًا لقانون الفطرة والتقليد،

ولكنّه من بعد ذلك إنباء استطاع أن يتبيّن مكامن الحقيقة، التي لفتته إلى نفسه ومَن حوله، فاستكشف علاقات قابلة لأن تتطوّر ارتقاء، فاستفزّت عقله يقظة زوّدته بالمعرفة الممكّنة من البناء والإعمار وتحدِّي الصّعاب التي تواجهه كلّ يوم.

وكما أنَّ الحيرة يقظة عقليَّة تستوجب مواجهة القلق بما يُقلقه؛ فكذلك الصّعب يعدّ معطية مثيرة للعقل ومستفّزة لملكاته، التي تتحفّز إلى المواجهة معه متى ما اعترض طريقها؛ ومن هنا بدأت مواجهة العقل للصّعب تحدٍّ من ورائه تحدٍّ، وفي المقابل الصّعب يقدِّم التنازل من بعد التنازل.

فالصّعب ليس بالمستحيلٍ ولا المعجز، حتى يستحال تحدِّيه، بل ميادين تحدِّي الصّعب فسيحة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، ولا خوف من مواجهة الصّعب، بل الخوف أنْ لا تحدث المواجهة معه؛ فالمواجهة العقليَّة معه كلّما حدثت عن تدبّر فكرة، أنتج العقل فكرة أكثر ارتقاء؛ ولذا ستظل الفكرة عقليَّة إلى حين استخراجها فيما يمكن أن يكون على الشّكل أو الصَّورة، أو المفهوم والدّلالة والمعنى، وهو الذي يتجسّد في العمل والسُّلوك.

ومع أنَّ العقل مكمن الفكرة، فإنَّه أيضًا منبع الأمل، ومع أنَّهما معا من إعمال العقل وفي محفظته، فإنَّ الأمل يتعلّق بالغايات الخارجيَّة، التي في دائرة الممكن لا تُبلغ إلَّا تخييرا وإرادة؛ فمن يمتلك الإرادة يستطيع الاختيار الممكّن من التدبُّر وحمْل المسئوليَّة، ومن لا يمتلكها، فإشارة قف لا تسمح له بالعبور إلى ضفاف الارتقاء.

ولهذا فالإنسان الأوَّل الذي خُلق على الزّوجيَّة، عاش حياة الفطرة جنَّة، إلى أن عصى ربَّه؛ فأهبط به والأرض أرضا؛ فظلَّ من بعد الهبوط على أمل العودة إلى تلك الجنَّة، وظلّ بنوه من بعده، يسعون ويعملون كلّ ما من شأنه أن يرتقي بهم إلى المأمول غاية؛ فتولّد التفكير في عقولهم، فكرة من بعدها فكرة؛ فأنتجوا الثّقافات، وبنوا الحضارات، ومع ذلك فهم يعلمون أنَّهم كلّما أنتجوا فكرة واجهتهم صعاب تستوجب المزيد من إنتاج الفكرة؛ ولذلك فهم قبلوا بالتحدِّي والصّعاب كلّ يوم تهزم صعوبة من بعد صعوبة.

ولذلك فمرحلة الفكرة جعلت الإنسان على المعرفة الممكّنة من كشف العلاقة بين الخَلق والنّشوء والإعجاز والارتقاء، وفتحت أمامه آفاق البحث العلمي الممكّن من صناعة المستقبل وتجاوزه ارتقاء.

ومع أنَّ الفكرة مولود العقل، فإنَّ مستفزّها خارجيَّة: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[6]؛ ولذلك فالفكرة لا تستمدّ من العالم الخارجي كما كان يراها أرسطو، بل العالم الخارجي هو مصدر استفزازها؛ فيخرجها من الكمون إلى حيّز الوجود وكأنَّها تُبعث من العدم.

فالفكرة في ذاتها هي مجرّدة، ولكن في مفهومها ومضمونها تحمل رسالةً، أو مشروعًا، أو رؤيةً، أو حلًّا يمكّن من فكّ التأزّمات، والإقدام على ما يمكّن من الارتقاء؛ فالفكرة لم تكن خاطرة عابرة تأتي هكذا وتذهب وكأنَّها

---

[6] الغاشية 17 . 21.

لم تأت، بل الفكرة كما تستمدّ من السّابق، فهي تضيف الجديد، ثمّ تفتح آفاق الارتقاء مع المستقبل.

ولهذا فالفكرة تمكّن من استخراج المجهول من المعلوم، أي تستكشف المعلوم وتخرج المجهول منه؛ فيصبح معلوما وليس مخلوقا؛ فالفكرة تستنبط وتستمدّ من المخلوق شيئًا، وفي المقابل تزداد المعارف أشياء مستكشفة.

والفكرة لم تلد في الخارج، بل الخارج يستفّز العقل ويُلفته إلى ما يُمكِن أن يُستكشف؛ فيبدأ العقل إعماله تجاه المستفزّ والحيرة تلازمه حتى يبلغه، وحينها لا تجد الحيرة مكانا لها عند المستكشف معرفة، أي لا يمكن أن تبقى الحيرة مع التجلّي المعرفي، بل هي تبقى مع بقاء اللبس والغموض، وفي المقابل تزول بزوالهما.

والفكرة تعدّ صوغًا عقليًّا لمولودٍ لم يولد بعد؛ وهو بعد الولادة لن يكون فكرة، بل شيئًا غيرها، ولكنَّه المؤسّس عليها؛ فلو لم تكن ما كان؛ ولهذا فالفكرة هي استنباط الشَّيء من الشَّيء، بعد تهيّئه على الشّكل أو الصَّورة أو الرّسالة والموضوع، ممّا يجعل المستنبط في صورة موضوع عام، حيث لا تفصيل؛ فالتفصيل لا يكون إلّا للموضوع الذي تمدّدت الفكرة فيه بداية ونهاية، والفكرة هي الفكرة، والموضوع ارتقاء لا يكون إلّا المفسّر للفكرة إيضًاحًا.

فبعد أن تطوَّر الإنسان من حياة الفطرة والتقليد إلى حياة الإنباء والفكرة، أصبح يُبدع استكشافا، وليس خَلقا؛ ذلك لأنَّ المخلوق لا يَخلق، ولكنّه في دائرة الممكن يكتشف المخلوقات، ثمّ يكتشف منها أسرارا كانت

مجهولة؛ فيكتشفها بحثًا، وتأملًا، واستنباطًا، واستقراءً، ثمّ يوظّفها بما يعود عليه بالمنفعة، وهكذا هي الحياة والإنسان فيها يتطوّر بالفكرة، ومع ذلك لم يكن التفكير كلّه مؤسَّسا على استنباط الفكرة ارتقاء، بل هناك من الفكرة ما يؤدّي إلى السفليَّة والانحدار.

ومع أنَّ الفكرة تلد في العقل البشري بداية بمستفزّات خارجيَّة، فإنَّها بعد أن تلد منه إنتاجا، تصبح وفقًا للقدرة قابلة للانتقال من عقلٍ إلى عقلٍ مع وافر التأثير، سواء أكان تأثيرا موجبا، أم سالبًا، وعندما تكون الفكرة بنائيَّة، تدفع المتلقِّين لها إلى الارتقاء، ولكن إن كانت هدّامة؛ فستدفع بمتلقيها إلى ارتكاب الأعمال الدُّونيّة؛ ومع ذلك فالعيب لا يلاحق الفكرة، بل العيب يلاحق من كان من ورائها (من أوجدها)؛ الذي فكّر فيما يضرّ في الوقت الذي ينبغي أن يفكّر فيه فيما يفيد وينفع، وهنا تكمن العلّة، أي تكمن العلّة في أصحاب الفكرة الهدَّامة سواء الذين أنتجوها، أم أولئك الذين سوّقوا لها ووظّفوها.

ومع أنَّ الفكرة في دائرة الممكن (بنائيَّة أو هدميَّة)، فإنَّها بين هذا وذاك يمكن أن تكون (إصلاحيّة)، وهذا يعني: أنَّ الفكرة البنّاءة تصحّح أخطاء الفكرة الهدَّامة متى ما كان الحوار والجدل بين النَّاس موضعيّا، ولا إمكانيَّة أن تكون الغلبة للفكرة الهدّامة كلّما ساد الحوار والجدل منطقا (حُجَّة بحُجَّة)؛ ولذلك فالمعلومة الصَّائبة تصحّح المعلومة الخاطئة كلّما طرأت؛ ذلك لأنَّ أثر الفكرة اليائسة يصحّح أو يعالج بالفكرة المملؤة أملًا؛ فالفكرة الأمل تحفّز على البقاء المرضي، وتدفع تجاه المستقبل الأكثر إرضاء.

والفكرة كونها مجرَّدة؛ فلا علاقة لها بالاقتناع من عدمه؛ فالاقتناع من عدمه مسئوليَّة من ينتج الفكرة، أو يتبنّاها، أو يأخذ بها من صاحبها أو متبنيها؛ فالعقل السّليم في معظم الأحيان يأخذ بأحسن الفكرة، والعقل العليل في معظم الأحيان يأخذ بأسوائها، ومع ذلك فللفكرة الحسنة مسوّقين، وللفكرة السّيئة مسوّقين، ومتى كان المسوّق على مقدرة إقناعيَّة راجت فكرته حتى وإن كانت هدميَّة، وإن لم يكن له مقدرة إقناعيَّة انكمشت فكرته وإن كانت بنائيَّة، وهذه العلاقة بالتّمام علاقة بين من يسعى إلى الارتقاءِ، ومن يسعى للدّونيَّة والسفليَّة، أي فمن أراد ارتقاء؛ فعليه أن يأخذ بفكرة الارتقاء نهضة وتقدّما، أمَّا من أراد سفليَّة؛ فأفكارها في الأسواق الهدَّامة كثيرة.

ولذلك تعدّ الفكرة ارتقاء مصدرا للرّؤية البنائيَّة، سواء أكانت رؤية فكريَّة (تتعلّق بالنّظم والقوانين ورسم السِّياسات، وما يؤدّي إلى الإصلاح وبلوغ الحلّ) أم إنَّها كانت عمليَّة، (تتعلّق بالاقتصاد والتجربة والبناء والإعمار)؛ فالفكرة سواء أكانت نظريَّة أم عمليَّة، تخلق جدلا بين منظِّر، ومسوّق، ومؤيّد، ومعارض، وتابعين مختلفين.

وعليه:

الفكرة حرّة لا تُسجن وإن سُجن أصحابها ومسوّقوها، إنَّها مولود العقل الذي فكّر في إيجاد كيفيَّة تسمح له بالتمدّد داخل حدوده أو خارجها على حساب الغير، ثمّ من بعدها فكّر في ما يخالفها غاية؛ فأوجد كيفيَّة تكبح السّلوك وتقيّده متى ما تمدّد على حساب الغير؛ ذلك لأنَّ الفكرة من

طبيعتها التمدّد بين العقول، كما تمدّدت ارتقاء من النّظر إلى مشاهدة الخَلق، إلى البحث عمّا يُمكّن من معرفة الكيفيَّة التي هو عليها؛ وذلك بغاية البحث ارتقاء عمّا يمكّن من معرفة المشاهد (هو كما هو)، ويمكّن من معرفة المعجز (آية بعد آية)، ثمّ يمكّن من بلوغ معرفة المستحيل مستحيلا، وهكذا هي الفكرة تتمدّد بين أيدينا ارتقاء.

فنحن بنو آدم عرفنا أنَّ الشَّيء في أساس خَلقه قد خُلق خلقًا، وعرفنا أنَّ بلوغ المستحيل مستحيل، وعرفنا نشوء الشَّيء من الشَّيء معجزة، وعرفنا أنَّنا نعرف ما عرفنا ارتقاء، ثمّ عرفنا أنَّنا في حاجة لمعرفة المزيد.

ومن ثمّ فالفكرة لا تخلق الشَّيء، ولكنّها تستكشفه، ولا علاقة لها بالخَلق؛ فالخَلق لم يكن من الفكرة، ولا من المفكّر. الخَلق من العلم، وبالأمر كن؛ ومن هنا فالخالق لا يفكّر، بل الخالق يعلم كلّ شيء؛ وفي المقابل الذي يفكّر هو الذي لا يعلم، ولهذا يفكّر ويبحث بغاية أن يعلم.

والفكرة كمفردة تتشعّب فكرًا، فتتمدّد في شؤون الموضوع الذي يحملها في ثناياه فروعا؛ فهي مثل النَّواة التي تغرس في التّربة والمناخ المناسبين لها؛ فتنمو شجرة ضاربة في الأرض وجذعها إلى السّماء فروع متفرّعة، أي: تتفرّع الفكرة الواحدة فِكَر متعدّدة التفاصيل حتى يكتمل الموضوع رسالة أو رؤية؛ بمعنى تتعدّد الفِكَر المتفرّعة من الفكرة بما يمكّن من استيعاب الموضوع فكرًا مفصّلة.

وتعدّ الفكرة قاعدة التنظير، فلسفة وسياسة واقتصاد واجتماع، أمَّا الدِّين فلا تنظير فيه؛ فهو لا يكون إلَّا من خَالق؛ ذلك لأنَّ الدِّين لم يبنى

على الفكرة، مع أنَّ الفِكَر الثّمينة لا تستمدّ إلَّا منه، أي كلّ شيء يؤسّس على الفِكَر لا يكون إلَّا من مفكّر، والدِّين ليس كذلك؛ ولهذا فلا فكر ديني كما يعتقد البعض، بل الدِّين لا يكون إلَّا علم من عليم؛ ولهذا فهو لا يستند على الفكرة، بل يستند على المعجزة، التي تتنزّل نباء ورسالة تنسب لخالقٍ، ولا تنسب لمفكّر.

قضيّة التلازم الفِكَري:

مع أنَّ للفِكَر سلسلة من القضايا المتداخلة فإنَّ لكل فكرة خصوصيَّة؛ ولهذا دائمًا الفكرة على علاقة تلازم بين طرفين: الإنسان والموضوع، وإلَّا هل يمكن أن يكون هناك موضوع بلا فكرة؟ أو أن يكون الموضوع بلا مُفكّر؟

إنَّها علاقة تلازم، فأين ما تكون الفكرة يكون الإنسان، وأين ما يوجد الموضوع توجد الفكرة، وبما أنَّ الأمر كذلك فإنَّ الأفكار ليست واحدة، بل إنَّها مرتبطة بالأفراد وبمستوى تفكيرهم وبالفروق الفرديَّة التي تميّزهم؛ فالأفراد يفكِّرون تقاربا وتباعدا، وقد يحدث التفاعل بين الفِكَر والمفكرين فيها، أو يحث الاختلاف؛ ولذا لا تفاعل إلَّا بعد لقاء، ولا لقاء إلَّا على موضوع، ولا تفهُّم إلَّا بالفكرة.

وإذا تساءل البعض:

هل التفاعل يتمُّ بين الأفراد أم بين الأفكار؟

أقول:

قد يلتقي الأفراد ولا يتمّ بينهم تفاعل ولا تفهّم، والسّبب هو اختلافهم على الموضوع والفكرة، والأفراد بدون موضوع لا خلاف بينهم، والجدل والحوار الفكري هما المحقّقان للتفاعل والتفهّم أو الاختلاف، فإذا حدث التفاعل بين الأفكار حدث التفاعل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات وتفهّم كلّ منهم الآخر، وإذا لم يتحقّق التفاعل بين الأفكار؛ فلا يمكن أن يتحقّق التفاعل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات[7]؛ فالإنسان وعيًا ودراية لا يجد نفسه إلّا في الفكرة التي تعبِّر عن ذاته، من خلال طموحاته وآماله وأحلامه، وهذا سببٌ آخر لتعدّد الأفكار وعدم توحيدها؛ فالفكرة التي يراها البعض معبِّرة عن ذاته قد لا تتماثل مع الفكرة التي يراها البعض الآخر هي خير معبِّرٍ عن ذاته، على الرُّغم من أنَّها قد تدخل في حيّز التشابه معها، والفكرة التي يراها البعض أنَّها تجسّد طموحاته في فترةٍ ما من فترات الحياة قد تُستبدل بأخرى في فتراتٍ لاحقة عندما تتغيّر هذه الطّموحات أو تتجدّد، وهكذا يكمن الإنسان في الفكرة التي تطوي به المسافات وتصله بالآخرين.

وعليه:

. لا أدري هل أنا الذي أنقل الفكرة من مكان وزمان إلى مكانٍ وزمانٍ آخر، أم أنَّ الفكرة هي التي تنقلني في كلّ حين وكلّ مكان؟

---

5 عقيل حسين عقيل، المفاهيم العلمية (دراسة في فلسفة التحليل). طرابلس: دار الروّاد، 2000، ص 41.

. لا أدري هل أنا الذي أتفاعل مع من تنقلني إليهم الفكرة، أم أن فكرتي هي المتفاعلة معهم؟

في كلّ الحالات أنا في الفكرة أكمن، مثلما تكمن الفكرة في مكمن أفكاري، وفي مثل هذه الحالة تكمن الفكرة في المدركات العقليَّة مثلما يكمن الزَّيت في حبة الزّيتون.

ومن هنا فاختلاف الأفكار لا يجرّدها من صفة التشابه؛ كونها متشابهة فيما بينها بما يفسح مجالا لاختلافها في آنٍ واحد، ففي الاختلاف تشابه وفي التشابه اختلاف. الطّرفان المتشابهان من زاوية يمكن أن يكونا مختلفين من زاويةٍ أخرى والعكس جائزٌ أيضًا؛ ولذلك فالاختلاف في الفكرة هو قرين التشابه، وحيثما وجدنا التشابه وجدنا معه الاختلاف، فقد تتشابه المجتمعات في الأفكار وتختلف في طرق وأساليب التعبير عنها، وقد تتشابه مضامين الأفكار وتختلف محتوياتها، والاختلاف على هذا النَّحو ليس عيبا؛ لأنَّه لو كان كذلك لخلقنا الله تعالى متطابقين في كلّ شيء يتعلّق بالفكرة؛ ولذا يجب أن يسود بين النَّاس احترام الرَّأي والرَّأي الآخر، ولا إكراه بين النَّاس؛ فلو كان للإكراه قيمة حميدة ما نهى الله تعالى عنه حتى في الدِّين؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّة وَاحِدَة وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[8]، وقال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي

[8] هود، 118.

الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[9]، وقال تعالى: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[10].

ولأنَّ القاعدة الأخلاقيَّة قيمًا وفضائلًا تتمركز على (لا إكراه)، إذن لابدّ أن يكون الاختلاف بين الذين يدركون الأمر (هو كما هو) والذين لا يدركونه بالصِّفات والحقائق ذاتها، ولا عيب في الاختلاف، بل العيب أن تُفرض وجهة النّظر الواحدة على الآخرين كرهًا.

ولأنَّ الفكرة تتمركز على (أنَّ لكلِّ مشكلة حلّ) إذن لماذا لا يتمّ الحوار والجدل بالتي هي أحسن؟ ليكون التفاهم بين النَّاس قيمة حميدة، ولتمتدّ الفكرة وتنتشر من عقل إلى عقلٍ آخر، وإذا انكمشت الفكرة ليس لها بدّا إلَّا أن تعود إلى الأصل، أي إلى العقل الذي كمنت فيه أوَّل مرّة، فالأفكار في أساسها منكمشة في العقول والصّدور، ثم تتمدّد من خلال الاتصال، وتختلف وتتشابه بالتفاعل، وتنتشر بالتبشير، والترشيد، والتحريض، والتنظير، وبالجدل تترسّخ، أو تُصحَّح، وإن خُضعت للشكّ تُصبح قابلة للإثبات أو النَّفي بعد معرفة واعية وتبيّن صادق.

ولذا تتمددّ الأفكار وتنتشر بقوّة حجّتها، ثمَّ تعود إلى الانكماش عندما تضعف أو تشيخ؛ وعندما تتمدّد الأفكار من عقول وصدور حامليها إلى عقول وصدور أخرى، فإنَّها تشغل حيِّزًا في محافظهم الذّهنيَّة نتيجة امتدادها إليهم وهي تنتشر بين النَّاس حسب قوَّة تأثيرها سلبًا أم إيجابًا. والأفكار

[9] البقرة 256.

[10] يونس 99.

الموجبة عندما تتمدّد خارج المجال أو البعد الذي يمكنها التأثير فيه، قد تحقّق نتائج سالبة وفقًا للموضوع الممتدّة منه والممتدّة إليه[11].

إنَّ تمدّد الفكرة من عقلٍ إلى عقلٍ، هو بمثابة التمهيد لتبنّيها، ومن ثمّ لتُجسّدَ في سلوكٍ، وهي لا تمتدّ هكذا جُزافًا، وإنّما بقوّة الحُجّة التي تمتلكها، والتي تكون وسيلة مهمّة لدعم هذا الامتداد؛ فقوّة الحُجّة المتضمِّنة في الفكرة وقوّة التأثير الذي تتمتّع به سواء اتّسم هذا التأثير بالسّلب أو الإيجاب هما دافعان للامتداد أو الانتشار؛ ذلك لأنَّ انتشار الفكرة من فرد إلى فرد، والخروج بها من حيّز العقل إلى حيّز السّلوك والفعل يدلُّ على أنّها تتمتّع بالتأثير الحيوي الدّافع وراء هذا الامتداد.

وتظل الفكرة متأرجحة بين الشّكّ واليقين إلى أن تثبت بمصادق فتتمدّد انتشارًا؛ ومن ثمّ يمكن أن تتجسّد في سلوك وفعل، أو أن تُنفى من قبِل الموجّهة إليهم؛ فتضعف وتنكمش إلى أن تعود إلى النّواة التي كانت تكمن فيها وهي العقل مكمن توليدها.

ولأنّها الفكرة الممتدّة من عقلٍ إلى عقلٍ فالتساؤلات تلاحقها من أجل المعرفة والتبيّن:

- من الذي أنتج الفكرة ؟
- ما علاقة الفكرة بالموضوع؟
- ما هو المستهدف منها؟

---

11 المرجع السابق، ص 122.

. ما هو الظَّاهر والكامن منها؟

- من هو المستهدف بها؟

ولذا فالفكرة لا ينبغي أن تواجه بالرَّفض أو القبول المسبق، بل ينبغي أن تكون بين الأطراف قابلة للتحليل والاستبصار والتبيّن، ثمَّ اتخاذ القرار المستقل من أجل قبولها أو رفضها أو تحسينها بموضوعيَّة. فقد تمتلك الفكرة المستحدثة القوَّة اللازمة لقبولها والاقتناع بها والعمل على نشرها، وقد تنسجم الفكرة المستحدثة التي يُراد لها الامتداد مع الأفكار السَّائدة من قَبل، وقد تتعارض معها فيصبح هناك نوع من العداء بين من يؤمن بالفكرة القديمة ومن يؤمن بالفكرة المستحدثة أو الحديثة؛ فبعض النَّاس يحاربون عادة كلّ ما من شأنه أن يصدم أفكارهم القديمة أو أن يحطّ من قدرها بإحلال بدائل حتى ولو كانت أفضل، وهم يتّسمون عادة في مثل هذه المواقف بعدم القدرة على اكتشاف المزايا الجديدة التي يمكن أن تحملها الأفكار المستحدثة؛ فنجدهم ينكرونها ويحاربونها بشدّة، وهكذا إلى أن يتمكّنوا من الإلمام بالفوائد العائدة منها، وعندئذٍ قد تنشط حركة امتداد الفكرة من جديد، وتحذف من ذاكرتهم تلك الأحكام المسبقة بلا موضوعيَّة.

وفي كلِّ الحالات، فإنَّ قبول الفكرة الجديدة أو المستحدثة يستلزم أن يعطي المتلقّي أو المتقبّل لهذه الفكرة مؤشّرات سريعة كاستجابة دالة على التقبُّل والاستيعاب والقدرة على التجاوب والتطوّر مع الفكرة الجديدة، ويكون السّلوك في هذه الحالة هو الاستجابة الدّالة على القبول والاقتناع سواءً اصطبغت هذه الاستجابة بصبغة فعليَّة أم قوليّه أم سلوكيَّة.

ولأجل التبيين قد يتساءل البعض:

هل تحدِّيد صدق الأفكار من كذبها هو أمر يتبع الفكرة في حدِّ ذاتها أم هو أمر متعلّق بالنّتائج التي يمكن أن تحقّقها؟

أقول:

إنَّ الخيار الأوَّل في اعتقادنا مسألة صعبة ومعقّدة لأنَّه مادامت الأفكار (مجرّد أفكار تسري في الذّهن)؛ فهي ما زالت قابعة في مكمنها؛ ومن ثمَّ لا يمكننا التحقّق منها في ذاتها والحكم عليها في دلالاتها، ولكن يمكن ذلك في ضوء مطابقتها للواقع، وفي ضوء الممكن المتوقَّع والممكن غير المتوقَّع.

فالفكرة التي استساغها الفرد وتبنَّاها في مرحلةٍ ما من مراحل حياته باعتبارها صادقة، قد لا تكون كذلك عنده في مرحلةٍ أخرى وبخاصّة إذا اكتشف الفرد مدى عدم جدوى هذه الفكرة، أو عدم انسجامها مع المتغيّرات التي يمرّ بها؛ فالذي يعطي مصادق للفكرة قبل التطبيق والعمل بها هو قوّة الحُجَّة وما تحمله من حلول للتأزُّمات ومدى ما تقدّمه من معالجات للآلام والأوجاع السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والنَّفسيَّة والثَّقافيَّة والذَّوقيَّة، وهكذا في كثير من الأحيان يتبنّى البعض فكرة أو جملة من الأفكار، ثمَّ يكتشف أخيرا عدم مصداقيتها، ولكن في حقيقة الأمر أنَّ الفكرة الصّادقة ستظلّ صادقة، والفكرة الكاذبة ستظلّ كاذبة؛ ومن ثمَّ فإنَّ كشف الزيف عنها أو إثباته فيها مسألة تحتاج إلى تثبُّت قبل إصدار الحكم، وهنا فالخطأ لا يعود إلى الفكرة، بل يعود إلى الآخذين بها، ممّا يجعل الإنسان

الموضوعي مضطر إلى التصحيح، ولهذا على الإنسان أنْ (يفكّر لكي يعرف كيف يفكر).

وعليه:

. فكّر فيما أنت تفكّر.

. فكّر وأنت تفكّر.

. تعرَّف قبل أن تُقرّر.

. تقدَّم بعد أن تعرف.

. اعترض أو أيّد بعد أن تستمع.

. نفّذ بعد أن تقرّر بوعي.

. قوِّم جهودك قبل أنْ يقومك الغير.

. حدّد أهدافك.

. ارسم خططك.

. توقّع ما سيتوقّع منك وفكّر بمتسع.

. توقّع ما لا يتوقّع منك وفكّر عن إرادة.

. حدّد ما تتوقّعه من الآخر.

. حدّد ما لا تتوقّعه من الآخر.

هذه المرتكزات القيميَّة إذا ما وضعت في الحُسبان، فانَّ الخطط والاستراتيجيَّات والبرامج تصاغ وتوضع في دائرة الممكن الذي لا يترتّب عليه المفاجئة والاستغراب.

قضيَّة الفكرة:

الفكرةُ النَّاضجة في حقيقة الأمر هي جهد عقلي متكامل؛ فعندما تدرك الأعمال تنجزها، وتجسّدها الشّعوب، إنَّها الصَّغيرة كفكرة تشغل حيّزًا بسيطًا من ذهن وعقل المفكّر المبدع، وهي الكبيرة كعمل يتطلّب تكاثف الجموع والجهود لأجل إنجازها وتحقيق الغايات العظيمة من ورائها.

فالفكرة الكامنة تتضمّن قانونًا متكاملًا يكشفها للظّهور، ليجعلها حقيقة ظاهرة مع أنَّها لدى البعض لم تكن في دائرة المتوقَّع؛ ومع أنَّ الفكرة في أساسها التجريد، إلَّا أنَّها بعد ظهورها تصبح تحت سيطرة المشاهد والملاحظ، وتخضع للتجريب الممكّن من كشفها دون ريب.

الفكرة تكمن في العقول؛ فهي بداية لا تظهر إلَّا لمنتجها الذي تولّدت في ذهنه، أمَّا بالنسبة إلى غيره فبما أنَّها لم تخرج من حيّزها الكامنة فيه؛ فلا تعدّ ظاهرة ما لم تصبح بين اليدين مشاهدة أو ملاحظة أو مقروءة.

إذن الفكرة بالنّسبة إلى صاحبها، هي كامنةٌ تارة في ذهنه من حيث أنَّه لم يتأتَ له التعبير عنها، وتارة أخرى واضحة متجلّية له؛ لأنَّها قد تكوّنت في ذهنه واكتملت فيه واكتسبت هيئة معيّنة واضحت ذات مسمّى محدّد، وهنا فهي كامنة بالنسبة إليه وظاهرة في آنٍ واحدٍ، أمَّا بالنّسبة إلى الآخرين

فهي الكامنة. ومع ذلك ليس كلّ كمون يتبعه ظهور، فقد تظل الفكرة حبيسة مكمنها سرّا دون أن يتمَّ التعبير عنها بأيَّة صورة مُمكنة.

أمَّا الظَّاهر فنحن نشبّهه بالصَّورة التي قد تُمثّل انعكاسا مباشرا لجوهره، ولهذا فالتفكير كونه المنتِج للفكرة لا يمكن أن ينضج ويفيد الآخرين إلَّا إذا أصبح ماثلا أمام ملاحظاتهم ومشاهداتهم ومدركاتهم بشكل شمولي وهكذا لا تستوي الأمور وأحوالها إلَّا إذا استوت حالة الأعمى والبصير؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ}[12]، فالمشاهدة يتمّ الاسترشاد بها حُجَّة ماثلة، غير أنَّ الفكرة الناتجة عن حاسّة البصر ليست دائمًا صادقة وحقيقيَّة؛ فالفكرة التي ارتسمت في أذهاننا نتيجة رؤيتنا للشيء قد تفتقد المصداقيَّة؛ ذلك لأنَّ ما تبدّى لنا عند المشاهدة هو الظَّاهر فقط، ولهذا فظاهر الشَّيء قد لا يعكس باطنه دائمًا، ولأجل الوصول إلى بناء أفكار صحيحة فإنَّه يتوجّب عدم الإغفال عن استخدام وسيلة الملاحظة تفاديًا للخطأ الذي يمكن أن يصدر عن استخدام وسيلة المشاهدة؛ فعن طريق الملاحظة يمكننا تفحُّص الأشياء والتنقُّل من ظاهرها إلى باطنها مباشرة؛ فالملاحظة تمتاز بعمقها وقدرتها على اختراق قلب الشَّيء الذي نفكّر فيه، فإذا كانت المشاهدة تقتصر على الصَّورة (الظَّاهر فقط)، فإنَّ الملاحظة تتعدّاه للتعرّف على الباطن الذي انضوى عليه الظَّاهر وتُمكِّن من معرفة علل وجوده؛ وهكذا فإنَّ الأفكار الصَّحيحة تُجسّد الملاحظة والمشاهدة معا في ميادين العمل والممارسة.

---

[12] الرعد، 16.

ومع أنَّ الفكرة في حدِّ ذاتها غير قابلة للمشاهدة كونها مجرّدة؛ إلَّا أنَّها تُولِد وتنمو في العقل، وتصبح قابلة للمشاهدة أو الملاحظة أو بهما معا عندما تُكشف قوانينها ويتمّ التعبير عنها أو التعبير بها، ولهذا ستظلّ مجرد فكرة تسري في الذّهن ولا يمكن التعرّف عليها من قِبل الغير أو إدراكها إلَّا إذا تمّ التعبير عنها لغةً أو رمزًا أو صورةً وشكلًا، وبعد أن يتمَّ التعبير عنها فإنَّها تخرج من حيِّز تقوقعها الذي تكمن فيه إلى الحيّز الواسع الذي يُمكّن من التعرّف عليها إدراكا تامًّا بوسائل محسوسة قابلة للمشاهدة والملاحظة الممكِّنة من حُسن التدبُّر.

فلو عبّر الإنسان عن فكرته بهيئة الصَّورة (المشاهدة) فإنَّنا نتمكّن من مشاهدة الصَّورة وهو الأكثر تيسير للمعرفة، وإن تمَّ التعبير عن الفكرة بفعلٍ؛ فإنَّنا نتمكّن من ملاحظة الفعل في الوقت الذي لا إمكانيَّة لمشاهدته؛ وذلك لانعدام الصَّورة، وهذا الأمر بطبيعة الحال لا يمنع من التفكير ثانية في هيئة الفكرة وعللها وأسباب وجودها، وهكذا يستمرّ التفكير ويتحدّى بشكل مزدوج مع الأفكار قديمها وحديثها إلى النِّهاية التي تستوجب التفكير فيها عندما نتذكّر ونفكّر.

ولأنَّ للتفكير بداية ونهاية؛ فكذلك للأفكار المتولِّدة عن هذا التفكير بداية ونهاية أيضًا، ولأنَّ قدراتنا العقليَّة متناهية؛ فهي تعجز بدورها عن عدِّ أو حصر وإحصاء أفكارنا.

ولأنَّ الأفكار لا حدود لها Unlimited؛ فلا ينبغي أن يوضع على التفكير الإنساني سقف ليحدّ منه، بل ينبغي أن يحفِّز على التفكير الحرّ؛

ليكون مبدعا ومنتجا، وهكذا فالأفكار وليدة التفكير، والتفكير وليد العقل، والعقل شأنه في ذلك شأن سائر الموجودات الأخرى المحدّدة بعمر زمني لابدّ أن تنتهي إليه، لكنّنا لا نعلم تحدِّيدا متى تكون النِّهاية أو كيف تكون.

العقلُ يُجسّد الفكرة:

تتجسّد الفكرة في الفعل أو الصَّورة أو الشَّكل أو الهيئة عندما تكون بنائيَّة؛ وذلك بعد أنْ تَمْثُل للمشاهدة والملاحظة وتُدرك؛ ولهذا فإنَّ الشَّيء لا يتجرّد إلَّا في الفكرة، وعندما يصبح شيئًا، يصبح على هيئة أو صورة وشكل، وحينها تنتهي الفكرة بالتجسّد؛ ليكون الفراغ من بعدها حيِّزا لتداعي أو توليد فكرة جديدة، وهكذا يستمرّ إنتاج الفكرة ويستمر التطوّر؛ ففكرة الدّولة أو بناء الدّولة تنتهي عندما تَحلّ الدّولة محلّها (محلّ الفكرة المجرّدة للدّولة)، بنظمها ودساتيرها وقوانينها ولوائحها وهيئاتها وبناء مؤسَّساتها.

فالإنسان الذي يُنتج الفكرة أو يبدعها في بعض الأحيان يجد نفسه من حيث الجهد أضعف قوَّة من قوَّة تأثيرها على أرض الواقع؛ ففكرة البارود والتفجير النّووي، وغزو الفضاء، مع أنَّها نتاج قوَّة عقل الإنسان إلَّا أنَّها كفيلة بالقضاء على من أبدعها وأنتجها عندما تنتهي قوَّة التحكّم والسّيطرة على مفاتيح استخداماتها. وهكذا بعض العباقرة والمبدعين قد فقدوا عقولهم وأذهانهم، وهم في مرحلة إنتاج الفكرة، ممّا يجعل الفكرة في زمن الفقدان قبل ظهورها، وهذا الأمر يدلّ على قوَّة الفكرة التي لم يطيقها عقل من فكّر فيها

وتبيّن هيئتها وقوّتها، وهناك من فارق عقله بعد أن شاهد أو لاحظ قوَّة أثرها، سواء في حالة البناء أو في حالة الهدم.

وعلى الرُّغم ممّا يتميّز به تفكير المبدع من سرعة في خلق عدد كبير من الأفكار إلَّا أنَّ الفكر المبدع لا يستمدّ مادّته من هذا الكم الهائل من الأفكار، بل يستمدّها من الكيف والنّوع الذي يميّز بين فكرة وأخرى؛ فالفكرة المبدعة هي التي تؤدِّي إلى التطوّر والتحسّن في الفعل والسُّلوك والانتاج، وهي التي تؤدِّي أيضًا إلى اختلاف المجتمعات عن بعضها البعض ليس بحجم الأفكار التي يمتلكونها، وإنَّما بأنواعها وخصائصها والنتائج التي يمكن أن تحقّقها. وحتى لا تكون أفكارنا طوباويَّة ينبغي أن تكون في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، وأن تكون منتجة للأثر الموجب، لكي تجد مجالا يسندها على أرض الواقع، إنَّها الفكرة الفاعلة والفكرة المفعولة.

ولهذا فالفكرة قد تكون في زمن الصّمت الواعي (التفكير في حالة الصّمت)، وقد تكون في زمن التحليل والبرهان، وقد تكون في زمن التفسير (اندماج زمن نهاية الفكرة مع زمن التطلّع للجديد واحدًاث النُّقلة).

وعليه: فإنَّ العقل المنتج للفكرة في حالة اتّصال ذهني، بين ما فكّر فيه، وما يجب أن يفكّر فيه، وكذلك بين حالة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، وهذا ما يجعله في الوقت الذي يُفسّر فيه، فيه يُفكّر.

ولأنَّ الأمر كذلك، إذن التفكير فيما يجب التفكير فيه واجب، ومن لم يفكّر فيما يُفكِّر فيه أكثر من مرّة، سيجد نفسه في مواجهة غير المتوقَّع؛ فتحدث له المفاجئة ويسيطر عليه الاستغراب ويحوطه النَّدم وقد يتعلّق

الخوف أو الجبن به، وقد يكون الزّمن لا يمكّن من تلافي الأمر؛ فينفرط العقد، وتتناثر حبّاته، ولا يوجد من حوله من يجمّع معه العقيق المتناثر هنا وهناك؛ فتشتدّ الأزمة.

الفكرةُ حلًّا:

الفكرة نُضج تدبّري تحمل في أحشائها حلًّا، في مقابل الخوف دائمًا يبحث عن حلٍّ؛ فالخوف يثير العقل تفكرًا وتذكُّرًا وتدبُّرا حتى يقتنص الفكرة التي فيها يكمن الحلّ؛ ولذا لن يكون الخوف آمنا إلَّا في الفكرة المقتنصة حلّا.

فالفكرة تحملها الكلمة بين مرسلٍ ومستقبلٍ، وهي في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع تحمل قضيَّة تقدِّم حلًّا يخرج من التأزُّمات أو يُدخل فيها؛ فكثير من الأسوياء والعلماء والمفكِّرين العظام يَجِدّون في إنتاج الفكرة التي تحمل حلّا يُخرج من التأزُّمات، والبعض الآخر يكيد أو يمكر أو يحسد ظلما؛ فيُسخِّرون فكرهم وما يمتلكون أحيانًا من أجل إشعال نار فتنة يعتبرونها حلّا. فما جرى في الصُّومال في تلك السِّنين العجاف من تدخّل أجنبي كان مؤسَّسا على فكرة تحمل حلّا لأزمة من وجهة نظر المتدخّلين الأجانب، ثمّ بعد أنْ لاقوا المقاومة الشَّديدة من أبناء الصّومال المتدافعين على قبول الموت في سبيل تحرير تراب وطنهم، جاءت فكرة الانسحاب ونُفِّذت كونها تَحِلّ حلّا مؤسَّسا على فكرةِ كلّما اشتدّت التأزُّمات فُرجت؛ فاشتدّت التأزُّمات ولكنَّها لم تُفرج بعد كما ينبغي بأسباب الفكرة المتجدِّدة التي ترى في اشتداد التأزُّمات حلّا.

وفي دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع الفكرة تتعرّض لمواجهة الفكرة، ممّا يجعل نيران الاقتتال والفتنة كلّما انطفأت اشتعلت من جديد وعلى وجه السّرعة؛ فالوطن عندما لا يكون الرَّأي فيه مؤسَّسا على فكرة حلّ التأزُّمات لا يمكن أن يأمن مواطنوه. وإن لم يشتدّ الخوف في نفوسهم على مستقبل أبنائهم ووطنهم وحرّيّتهم فلن يبلغوا حلّا يجمع شتات أبناء الأمَّة إرادة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسئوليَّات الوطنيَّة سياسة واقتصادا واجتماعا.

قضيَّةُ الفكرة تُضاد الفكرة:

الفكرة تضادّ وتحدّ تحملها الكلمة وبها تُدفع وهي تحمْل قضية تقدِّم حلّا يُخرج من التأزُّمات؛ فيسود الفرج الذي فيه تحلّ السّكينة والأمن محلّ ما يؤدّي إلى الخوف؛ فالفكرة مكمن الأسرار، والعقل يُرشِدُ إليها عن تدبّر، والفكرة يسترشد بها عن دراية ومعرفة، ومع ذلك الفكرة يمكن أن تباع وتشترى في أسواق المنافسة الحرّة، وقد تُسرق.

والفكرة إن تمّ الإلمام بها وبما ترمي إليه من مقاصد الأفكار والأسرار هي مكمن الأبداع، وأصحابها دائمًا يأملون من الآخرين التوقّف عندها حتى التبيّن، ومع أنَّ الفكرة مكمن الأسرار، إلَّا أنَّها من حيث معرفتها ووضوحها في ذهن صاحبها المتدبّر أمرها لم تكن كامنة، بل ظاهرة وضوحا ومعرفة، ولكنَّها كامنة عن الآخرين حتى تُنتج أبدًاعا مضافا لما سبق من إنتاج فكري.

فالفكرة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع قد يُعظّم أصحابها، وقد يُحقّرون؛ فهي قد تفتح أمامهم آفاق سوق العمل، فتُسهِم في حلّ التأزُّمات، وقد تضيِّق سوق العمل عندما تنتج ما يحلّ محلّ الإنسان دون أن تجد له بديل نافع؛ فتزداد البطالة وتتّسع دائرة الحاجة أمام ارتفاع كُلفة مشبعاتها وتزداد التأزُّمات تأزُّما.

الفكرة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع هي دائمًا ذات تأثير سالبٍ أو موجبٍ؛ فالذي يُنتجها فكرًا يعدّها إضافة موجبة، أمَّا مستغلّها إن وجد فيها ما يضرّ قد يتبناها ويحيلها صناعة لإنتاج المضرّ؛ وذلك مثال الذّرة، التي اكتشفت نفعا ولكنَّها وظّفت فيما يضرّ قنابل وصواريخ، ومن هنا أصبحت الفكرة تباع في الأسواق بفاعليَّة تضادّها سالب بسالب، وموجب في مواجهة سالبٍ، وسالبٍ في مواجهة موجبٍ.

إنَّها الفكرة المتضادة التي لا يمكن التخلّص منها إلَّا بالفكرة التي تنتج ما يفيد وينفع ويحقّق الطّمأنينة لمن افتقدها بمواجع وفواجع الفكرة المضرّة.

ولمتسائل أن يتساءل:

هل الفكرة هي علّة التضاد بين المسلمين وأهل الغرب؟

أقول:

نعم.

فتلك الفكرة التي أنتجت رؤية لاحتلال واستعمار الأوطان جعلت للعداء تاريخ يصعب محوه ما لم تسوّى القضايا المطالبة بالتعويض؛ فذلك

الاستعمار (نتاج الفكرة) الذي جاء غازيًا للدّول وبخاصّة التي لها معتقد ديني لا يسمح لها أن تركع ولا تسجد إلَّا لله تعالى، عليه أن يفكّر في تسوية موضوعيَّة مؤسّسة على التقدير والاعتبار، أمَّا الفكرة التي تؤدِّي إلى مزيد من التهديد والمواجهات لا تزيدهم إلَّا إصرارا على قبول التحدِّي مع مزيدٍ من الرّغبة في نسف جسور الخوف؛ ذلك لأنَّ معتقدهم جعلهم بين خيارين:

أ ـ النّصر.

ب ـ الاستشهاد.

وعليه فمن يقول (الله أكبر) من أعلى المآذن يعلن أنَّه قد نزع الخوف من نفسه بمخافته الله؛ ولهذا من يعتقد أنَّه قادرٌ على إخافته سيجده شجاعًا مستبسلًا؛ حيث لا مكان في نفسه لاستقرار الخوف، وإن حدثت المواجهة من أجل إحقاق الحقّ سيجد نفسه مُقدِما بالقوَّة وهو متأكد أنَّه قد ضمن النتيجة المرضية (نصرًا أم استشهادًا) أي بالنسبة إليه في الحالتين لا هزيمة.

وقد يتساءل البعض:

وما هي المبرّرات التي أقنعته بأنَّها لا هزيمة؟

أقول:

بدون شكّ المبررات هي؛ الخوف من الله تعالى.

وعليه أنَّ ما يجري في أوطان المسلمين هو مولود الفكرة (فرّق تسد)؛ فكانت الفُرقة بين المسلمين (إيرانيون وعرب) و(أفغان وباكستانيون وأتراك) و(مسلمون هنود ومسلمون باكستانيون) و(سنّة وشيعة) و(حماس وفتح)

و(إخوان وبعثيون وناصريون، وشيوعيون وحكومة وشعب....الخ) و(عرب وأمازيغ) و(طوارق وزنوج) إلى جانب (عرب مسلمين، وعرب مسيحيين، أكراد، وعرب دروز، وتركمانستان....الخ)، وفوق كلّ هذا فالمسلمون جميعهم وبخاصّة العرب منهم متّهمون بأفعال الإرهاب والتطرُّف؛ ولكي تكتمل الفكرة تأسّست دولة (إسرائيل) في فلسطين عن قصد لعلّتين رئيستين هما:

أ . كُره صاحب الفكرة للعرب، ليعاقبهم بمن يكره.

ب . كُره صاحب الفكرة لليهود، جَعله يقرّر عِقابهم مرَّتين:

الأولى: سلبهم حقّ المواطنة الذي أقرَّه لهم في أوروبا، وكذلك سلبهم دورهم التجاري فيها.

الثَّانية: لتنتقل الاضطرابات من أوروبا وتُدفع إلى خارجها، ويتمّ القضاء عليهم من قبل الذين عبر التَّاريخ لم يستسلموا لعدوٍ من أعدائهم، ولكن لن يُسمح لهم بالقضاء عليهم إلَّا بعد أن يؤدّوا رسالتهم تخريبا وفتنة وتفكيكًا للمكوّن الاجتماعي العربي كما سبق أنْ أدّوها في أوروبا وعوقبوا عليها تقتيلا وتحريقا وتهجيرا وتشريدا؛ قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}[13].

وعليه: فإنَّ كره صاحب الفكرة لكلٍّ من اليهود والعرب، هو الذي جعله يتّخذ قرار إقامة دولة إسرائيل في أرض العرب (فلسطين)، وللتَّاريخ

---

[13] الأعراف 167.

شواهد على كرهِهِ لبني إسرائيل؛ حيث جاءت الحركة الصّليبيَّة وما صاحبها من تطرُّف ديني وهوس لتصبَّ مزيدًا من السّخط على نيران الكراهيَّة ضدّ اليهود الذين اشتهروا بالتّجارة كما اشتهروا بالمراباة في استغلال الفقراء في أوروبا، ممّا جعل نيران غضب الفقراء في أوربا تشتعل ضدّ اليهود الذين يعتبرونهم المفسدين فيها.

ولما كان المرابون في أيِّ مجتمع محلّ كراهية النَّاس وحقدهم، فإنَّ الغطاء الدِّيني الذي وفّرته الحركة الصليبيَّة للغضب ضدّ اليهود يسّرَ لجموع الصّليبين الهائجة أن تنتقم لنفسها من المستغلّين؛ فكانت مذابح سنة 1096 ضدّ يهود شمال غرب أوروبا، وكانت كلّ حملة صليبيَّة تالية ترتكب مذابح مماثلة ضدّ اليهود؛ بحيث عاشت الجماعات اليهوديَّة بشكلٍ مستمرّ في ظل العزلة والخوف. ولقد امتدّت النزعة العدائيَّة لليهود باعتبارهم هم من أعداء المسيح والكنيسة؛ فكانت المذابح متوالية ومنها: مذابح اليهود في لندن ويورك في 1189- 1190 في بريطانيا. ومذابح ضدّ اليهود في إسبانيا ارتكبتها المسيحيَّة في قرطبة وغرناطة، وحتّى الأرثوذكس المسيحيين في أوروبا الشَّرقيَّة لم يتركوا فرصة للاعتداء على اليهود إلَّا واستغلّوها، ومنها مذبحة اليهود خلال انتفاضة الأكران الأرثوذكس في 1648-1654[14].

ومنذُ بدايات الاتصال والتدافع بين الأوروبيين واليهود والعداء مستمرّ بينهم، والقيود القانونيَّة تُسن ضدّ اليهود إلى سبتمبر عام 1791 حيث تمّ

[14] Posted by FILKKA ISRAEL at Wednesday, February 18, 2009

تحرير اليهود في فرنسا بإزالة أشكال التمييز العنصري القانوني ضدّ اليهود، ومنحهم حقوقًا متساوية مع غيرهم من مواطني البلد؛ ففي سبتمبر عام 1791، منح البرلمان الفرنسي اليهود حقوق المواطنة، ثمّ تمَّ تحرير اليهود بعد ذلك في اليونان عام 1830، وفي بريطانيا عام 1858، وفي إيطاليا عام 1870، وفي ألمانيا عام 1891. ورغم أنَّ المساواة المدنية التي مُنحت لليهود كانت قانونيَّة، إلَّا أنَّ يهود أوروبا ظلوا يلاقون مضايقات من خلال معاداة السَّاميَّة والتمييز الاجتماعي؛ فجاءت مذبحة 9 مارس عام 1936 ببولندا حيث اندلع عُنف قُتل فيه ثلاثة يهود وجُرح أكثر من ستّين آخرين في مدينة برزايتايك، وبعدها امتدّت نيران الكُره اشتعالا إلى المدن المجاورة، وقبل انتهاء المذبحة، قُتل ما يقارب من 80 يهوديا وجُرح أكثر من 200.

وفي التّاسع من نوفمبر 1938م بدأت السّلطات الألمانيَّة تقوم بهدم منازل اليهود وممتلكاتهم، وفي السّنة التّالية 1939م كان قد رُحِّل عدد كبير من اليهود إلى بولندة، واستقرّ أغلبيتهم في وارسو، وكان آنذاك عدد اليهود 400 ألف يهودي تقريبًا، لكن هتلر كان وراءهم بالمرصاد؛ فضيّق عليهم سُبل الحياة، وكانت فكرة هتلر لإبادة اليهود من العالم قد دخلت حيّز التنفيذ بالقوَّة العلنيّة منذ مجيئه إلى السُّلطة في سنة 1933م، وبدأ بمطاردتهم من كلِّ النّواحي، وحرمانهم من العمل، ومطالبتهم كذلك بدفع الضَّرائب، هذا الأمر في حقيقته لم يكن إلَّا بداية انتقام هتلر من اليهود، حيث كان يعيش في ذلك الوقت حوالي ثلثي يهود العالم في أوروبا، وعندما غزت الجيوش الألمانيَّة روسيا في يونيو 1941 أعدَّ هتلر خُطَّة قتل جماعي، لكلّ اليهود وجمع اليهود في معسكرات خاصَّة على أساس وجود مهمَّة عسكريَّة،

ثمّ أُصدرت الأوامر بأن يحفر كلّ واحد منهم قبره بيديه، ثمّ اصطفّ اليهود صفًّا واحدًا بجوار قبورهم وأطْلِقَ عليهم الرّصاص، ولم يكتف هتلر بهذه الطريقة في إبادة اليهود ومحو آثارهم من العالم، بل أعدَّ لهم طرقًا أخرى للموت؛ حيث أقام لهم الألمان أفرانًا خاصّة لحرقهم، واستمرت عمليَّة الإبادة إلى 1945م.

وإبادة هتلر لليهود كانت نتاج دوافع انتقاميَّة؛ فكان الانتقام شرسا بعلل ما سبّبه اليهود من تخريب للاقتصاد الألماني وما قاموا به من فتن لتفكيك وحدة الشّعب الألماني وإذلاله.

وهنا يذكِّرنا تاريخ 09 نوفمبر 1938 بتلك الفكرة، فكرة تقسيم فلسطين لدولتين (اليهود والفلسطينيون)؛ حيث كانت اللجنة الملكيَّة البريطانيَّة التي ترأسها (الايرل بيل) قد نشرت تقريرها في شهر تموز سنة 1937م واقترحت فيه حلّا لمعضلة فلسطين بواسطة مشروع للتقسيم، تنشأ بموجبه دولة عربيَّة مستقلة وأخرى يهوديَّة، ثمّ أعلنت عزمها على إسقاط اقتراح التقسيم ومحاولة إيجاد تفاهم بين العرب والإسرائيليين عن طريق المفاوضات المباشرة في لندن[15].

وعليه: فإنَّ كُره الأوروبيين لليهود في أساسه هو أشدّ كرهًا من كرههم للعرب، ولأنَّ الأمر كذلك قرّر الأوربيّون ما أقرّته بريطانيا دولة لليهود في فلسطين (أبعد المكروه وأدفعه تجاه المكروه تشتدّ التأزُّمات بينهم وتأمن)، فكرة في عالم السِّياسة لا تساويها فكرة في الدّهاء.

---

[15] هتلر قاهر اليهود، 2009.

إذن فكرةٌ هذا حالها، ما هو المقصد من وراءها؟

المقصد إشعال نار الفتنة في الأمَّة التي لا تركع إلَّا لله تعالى لعلّها تركع، ومع أنَّهم يعرفون جيّدا أنَّ من يركع يقينا لله لن يركع لأحدٍ، إلَّا أنَّهم واثقون على الأقل أنَّه من الممكن أن تتمّ المواجهة بين أبناء الأمَّة تجاه بعضهم بعضا؛ فتُبثّ الفوضى ويُبثّ الرّعب والفساد والتخريب في المؤسَّسات وإفساد الذّمم والنّظم السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، كي يجد صاحب الفكرة مبرّرا للتدخّل، وهذا ما تخفيه الفكرة في ثناياها.

ونحن نعتقد أنَّ الفكرة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع كالبذرة تُزرع بذرة؛ فتنتج بذورًا؛ ولذا فتلك الفكرة التي نضجت وقُطفت ثمارها ذات مرّة ومرّة (احتلال يليه احتلال)، و(تقسيم يتبعه تقسيم)، هي اليوم من جديد قد بُذرت في الأرض المهيّأة لها؛ فظهرت أوراقها فوضى في الصومال والعراق وسوريا وليبيا واليمن، وهي كذلك في غيرها بذرت ولكنَّها على قوائم الانتظار.

وما نراه مستهدفٌ مِن قِبل مَنْ بَذر بذور الفتنة في الوطن العربي هو الجيوش العربيَّة؛ إذ الغرب لا يريد جيوش عربيَّة قويَّة؛ ذلك لأنَّهم أمَّة مخيفة بالنّسبة إلى الغرب؛ كونهم يعرفون أنَّها أمَّة لا تركع إلَّا لله تعالى؛ ولهذا كانت أولويَّات تغيير الأنظمة بما سمّي بثورات الرَّبيع العربي كسر القوةَّ القتاليَّة للجيوش العربيَّة؛ ومن ثمَّ فلا جيش وطني عراقي من بعدها في العراق، ولا جيش في اليمن، ولا جيش في ليبيا، ولم يبق سالما الَّا الجيش المصري الذي

قراء قادته المشهد قبل أن يقعوا في الفخِّ، أمَّا الجيش التونس فهو جيش دفاعي ومن ثمَّ فلا يرونه مخيف.

ومع أنَّ شعوب ثورات الرَّبيع العربي قد انعتقت من قيود الدِّكتاتوريَّات؛ فإنَّهم قُيِّدوا بكتائب ومليشيات مسلّحة خارجة عن الضَّبط الوطني هويَّة وسيادة.

ومع أنَّها خارجة عن القيد الوطني قيمًا وفضائلًا؛ فإنَّها ليست بخارجة عن التبعيَّة للغير، الغير الذي يمدّها بالدّعم سواء أكان لوجستيًّا أم أسلحة وأموال تبقيها على قيد الحياة حتى يتم التأكّد أنَّه لا بقايا لتلك الجيوش، ومن باب الحرص عليها جاءت الفكرة فتنة أن تكون جميع الكتائب والمليشيات على خطوطٍ متوازية؛ حيث لا لُحمة بينها؛ وذلك بغاية استخدامها وفقًا لتلك الفكرة الملعونة فرّق تسد.

ومع أنَّ لكلِّ قاعدة استثناء فإنَّ قادت الكتائب والمليشيات أصبحوا أغنياء من بعد أن كانوا ليس كذلك، ومع أنَّ البعض يشير إليهم بأنَّه لا غاية لهم إلَّا جمع المال فإنَّ الحقيقة تقول: إنَّ جُلَّهم قد عرَّضوا أنفسهم إلى المخاطر من أجل الدِّفاع عن مدنهم وقراهم أو قبائلهم وأهاليهم، وقد قبلوا تحدّي الصِّعاب كلٌّ في دائرته.

ولأنَّهم يمتلكون خصائص المواجهة في أثناء الاقتتال؛ كونهم قبول دفع الثَّمن؛ فقد وضع أصحاب تلك الفكرة الأعين والأيدي عليهم؛ حفاظا على سلامتهم كقوى يعتمد عليها متى ما يشاءون؛ كونها القوّة الخارجة عن إدارة الدّولة والقابلة للاستخدام؛ وبخاصَّة أنَّ أصحاب تلك الفكرة لهم مقدرة

عالية على إحياء تلك الفتن النَّائمة؛ فأصحاب تلك الفكرة ما زلوا يظنون أنَّ بقيا تلك الجيوش المخيفة ما زالت لم تقبر في بلدان ثورات الرَّبيع العربي، مع علمهم أنَّه لم يتبقى من تلك الجيوش إلَّا الشّيوخ والعجائز.

ولمتسائل أن يتساءل:

لماذا يري أصحاب تلك الفكرة أن تبقى تلك الكتائب والمليشيات المسلّحة على خطوطٍ متوازية؟

بالطّبع إذا توحّدت تلك الكتائب والمليشيات فإنَّه من المتوقَّع أن تحلُّ محلّ الجيش، وهذه بالنِّسبة إلى أصحاب تلك الفكرة الملعونة لا تُقبل بالمطلق.

وماذا يعني؟

يعني أنْ تبقى متعدّدة ومتخاصمة ومتعادية قدر الإمكان حتى يتم بلوغ ذلك اليوم الذي رسمته تلك الفكرة؛ إذ أنَّ تلك الكتائب والمليشيات كلَّها تأسَّست على عناصر فنائها فيها. أي لا شكَّ أنَّها ستتقاتل بعد ما يتم استخدامها في مقاتلة من لا يقلبه أصحاب الفكرة، وهكذا ستكون المعارك سجالًا بينها، أو بينها وما تبقى من مشايخ وعجائز تلك الجيوش التي كسَّرتها الفكرة. وما تبقى من تلك الجيوش حتى وإن كانوا عجائز وشيوخ لا بدَّ أن تُخلق لهم المعارك، وتُدفع لهم الأموال، ويتم دعمهم بالأسلحة المتنوِّعة بغاية مفادها كما يقولون: (فُخَّار يكسّر فُخَّار). أي لا للجيش المقاتل وطنيًّا، ولا للكتائب والمليشيات المقاتلة في دوائر حواضنها الاجتماعيَّة؛ ولهذا فالمواجهات بينها أمرا محتوما وفقًا لما رسمه أصحاب تلك

الفكرة؛ ولذا فلا إمكانيَّة لإجراء الانتخابات في ليبيا التي من فوق الطَّاولات تعد المطلب الرَّئيس لأصحاب الفكرة، ومن تحت الطَّاولات هم الذين يعملون على تأخيرها في كلّ مرة وبأكثر من علّة.

ومع أنَّ مبعوثي الأمم المتحدة في اثناء لقائهم بي قد طلبوا مني في كلِّ مرّةٍ أن أقدّم لهم رأيا ومشورة أو نصيحةً تجاه ما يخرج ليبيا من تأزُّماتها، فإنّني استشعرت منهم في كلّ اللقاءات التي جرت معي إنَّهم يريدون في الوقت الواحد الشَّيء ونقيضة: (يريدون رأيًا يمكّن من الحل، ولا يردون الأخذ به)؛ ولهذا كانت مددهم دائمًا تنتهي بدون إيجاد حل؛ وهذا ما حدث مع السّيد كوبلر الذي جاء لمقابلتي في القاهرة؛ حيث كنت أقيم هناك في أثناء فترة بعثته إلى ليبيا. وبالتمام حدث مع السّيد الدكتور غسان سلامة الذي اتصل بي وكنت حينها في تركيا فطلب اللقاء معي فيما يخصّ الشأن الليبي، واينما أكون، واتفقنا أن نلتقي في تونس وكان كذلك، وقال في أثناء المكالمة الهاتفيّة إذا لم تستطع أن تأتي إلى تونس أنا أتيك إليك أينما شئت، ثمَّ قال: لقد نصحت بأن التقي معك، وهذا ما قاله لي بالتمام السّيد كوبلر، وكذلك قاله لي السّيد الدّكتور عبد الله باتيلي الذي التقيت معه في طرابلس؛ حيث مكان الإقامة الرَّئيس، ولقد قدّمت إلى جانب المقابلات والمناقشات للسّيد الدّكتور غسّان سلامة، والسّيد الدّكتور باتيلي صفحات وفيها من الحلول ما فيها، وفيها من البدائل ما فيها، ومع ذلك ولأسف الشَّديد أرى ما زال الشيء ونقيضه هو الحل المطلوب للقضية الليبيَّة من قبل المبعوثين الأمميين؛ ذلك لأنَّ القضيَّة الليبيَّة مدوَّلة، ومن ثمَّ فلن يُحلّ المشكل الليبي إلَّا بحلٍّ مدوّل.

أمَّا الذين يرون أنَّه لا حلّ للمشكل الليبي إلَّا (ليبي ليبي) فهم وللأسف الشّديد أصحاب نوايا وطنيّة طيّبة ونظيفة؛ وذلك لأنَّ رؤوس المشهد السياسي الليبي مع أنَّهم متخالفون؛ حيث لا وحدة رأي تجمعهم، فهم متّفقون على أنْ لا يصل الشّعب الليبي إلى حلٍّ؛ وذلك لمعرفتهم التَّامَّة أنَّه إذا وصل الليبيون إلى اتفاقٍ وحلٍّ سيكونون جميعًا خارج المشهد؛ ولهذا فهم مختلفون من فوق الطَّاولات، أمَّا من تحتها فهم متفقون.

وعليه: فلا حلّ إلَّا بقرارٍ دولي، وهذا لا شكَّ أنَّه سيتم وسيحدث، ولكن زمنه ليس بأيدي الليبيين، بل بأيدي أصحاب تلك الفكرة التي تقول: (الفخَّار يكسّر الفخار)؛ ومن هنا كان الهجوم على مدينة طرابلس الذي جُمِّع له المقاتلين مع وافر العتاد والعدّة؛ حتى بلغ مشارف العاصمة، بل وقد تمكّن من جزءٍ من مداخلها، وعندما استشعر أصحاب الفكرة أنَّ الجيش سيحقّق نصرًا يعيد الرُّوح المعنويَّة لبقايا ذلك الجيش وإن كان شائخًا؛ فكسّروه بضربات كادت ان تقضي عليه كاملًا لو لم ينسحب إلى الخلف؛ حتى وصل إلى تلك النِّقاط التي يراد له أن يتمركز فيها، شريطة أن يكون على حالة من التَّأهُّب لمواجهة العدو المفترض افتراضًا.

وكانت النتيجة المترتّبة على ذلك:

. إذكاء نار الفتنة والعداء بين المتقاتلين (جيشًا وكتائبًا ومليشيات)، ومع هذا فهناك من بينهم من يقف ضدّ ما جرى.

. إذكاء نار الفتنة بين السِّياسيين (رؤوس المشهد السِّياسي) في زمن الاقتتال الذي دار بين الليبيين فتنة، ومع ذلك بقي مجلس النّواب واحدًا،

وبكلٍّ ما فيه من علل فإنَّه العلّة الملتحفة برداء الديمقراطيَّة؛ حتى وإن كانت فاقدة للصّلاحيَّة.

. إذكاء مشاعر الجهويَّة الاقليميَّة (شرقًا وغربًا وجنوبًا) ومع ذلك كان لرجالات الوطن كلمتهم (ليبيا واحدة لا تنقسم).

وحتى لا يقال أنَّني أريد للجميع مخرجًا موجبًا أقول: من بعد التغيير في السَّابع عشر من فبراير 2011م، هناك من السلبيَّات الكثير، وعلى رأسها:

. سيادة لغة المغالبة والإقصاء لرجالات الوطن.

. العزل السّياسي لأهل الدِّراية والتجربة والخبرة.

. القضاء على وحدة الجيش الوطني الليبي.

. التفريط في السِّيادة الوطنيَّة والهويَّة الوطنيَّة؛ حيث لا وحدة رأي بين الليبيين، والحدود مفتوحة على مصارعها، ومخابرات العالم ترتع كما ترتع الذئاب مع الخراف.

. إنَّ جُل الذين تولوا مناصبا في الدّولة الليبيَّة (في أثناء زمن الفتنة) جعلوا لأنفسهم أذرعًا تفرض بقائهم في مناصبهم وتحميهم، على الرُّغم من انتهاء مددهم التي اقسموا اليمين عليها؛ ومن ثمَّ بقوا كرهًا على الليبيين على الرُّغم من انتهاء صلاحيَّاتهم كما تبقى تلك الأدوية الفاقدة للصّلاحيَّة من غير صلاحيَّة صالحة للبيع .

. أصبح في الدّولة الواحدة حكومتان ولكلٍّ ميزانيَّة يتصرَّف فيها وبدون رقابة خاضعة لسيادة الليبيين، ومع ذلك التمس عذرا لمن كلّف أو عيّن في

منصبٍ رقابيٍّ؛ كونه لا يمتلك القوّة الدّستوريَّة والقانونيَّة المتفق عليها وطنيًّا، ثمَّ ليست له كتائب لبسط نفوذه على ربوع إدارات الدَّولة؛ ففي زمن الفتنة والفوضى ليست للأجهزة الرّقابيَّة إلَّا كتابة التقارير وفقًا لما يتوافر لديهم من معلومات منقوصة، ومع ذلك حتى وإن كانت منقوصة فالزّمن كفيل بالتقصّي والتتبُّع لكل القضايا التي لا تنتهي بالتَّقادم.

ـ أصبح في الدَّولة مجلسان يختلفان في المهام ويتخالفان على المصالح؛ وهذه بالنِّسبة إلى أصحاب تلك الفكرة الملعونة هما على صواب، بل وينبغي أن يظلان على ما هما عليه مع مزيدٍ من التمسُّك بهذه الاختلافات والخلافات من أجل أنْ لا تقوم الدّولة الوطنيَّة برؤية وطنيَّة.

ـ الدّولة الليبيَّة إلى يومنا هذا (ساعة الكتابة) دولة بلا دستور، وبلا حكومة وطنيَّة واحدة، وبلا جيش واحد، وبلا أمن داخلي واحد، وبلا أمن خارجي واحد، وبلا شُرطة وطنيَّة واحدة، ومع ذلك يطلب منها أن تجري انتخابات سريعة وديمقراطيَّة وشفَّافة، ألا يكون ذلك من أكبر أضحوكات العالم.

وفي هذا الشَّأن أود أن أقول شيء إجابيّ: إنَّه على الرُّغم ممّا ذكرناه فإنَّ الأمن يكاد أن يكون سائدًا، وبشكل لا يصدِّقه من يقرأ ما كتبناه في الأسطر السَّابقة. بطبيعة الحال أنَّ الشّرق والجنوب الليبيين تحت سيطرة ما جُمِّعَ من الجيش وما أضيف إليه من حيويّة، أمَّا في العاصمة طرابلس فالأمن مريح جدًّا على الرُّغم من غياب الدّولة ومؤسَّساتها الوطنيَّة، وحتى إن وجدت أجهزة أمنية وشُرطيَّة فهي محميَّة بكتائب تحوطها من كلِّ جانبٍ، ولهذا

المواطن لو سؤل من أيٍّ كان: أين تسكن، وتحت حماية مَن؟ سيجيب بلا تأخير ولا تردّد تحت حماية الشَّيخ (الفلاني) الذي هو رأس كتيبة من الكتائب المسلّحة المعترف بها في العاصمة، وله حدود مع أكثر من كتيبة مسلّحة هي الأخرى تخضع لحماية شيخٌ آخرٌ معترف به أو أنَّه من المتمرّدين.

ومن مظاهر الاستغراب الليبيَّة أن توجد حكومتان لدولة واحدة:

. حكومة تمَّ اختيارها مِن قِبل لجنة الخمسة والسَّبعين، وهم الذين تمَّ اختيارهم من قِبل المبعوثة الخاصَّة للأمم المتحدة بالوكالة السيِّدة ستيفاني وليامز الأمريكيَّة، التي تولّت اختيار حكومة لليبيين، وفقًا لأسلوبها الخاصّ، وطريقتها الخاصَّة، التي ادارتها بعنايةٍ بين ترغيبٍ وترهيبٍ؛ وذلك في مناخٍ كان يسمح للاشتراء والبيع، حيث إقدام البعض على شراء الأصوات من قِبل الذين ارتضوا أن يبيعوا كرامة أصواتهم على حساب كرامة الوطن. فهذه الحكومة تشكّلت بأصوات الذين ارتضوا أن تباع كرامة أصواتهم على حِساب كرامة الوطن (سيادة وهويَّة). حكومة تشكّلت وفقًا لاختيار تلك اللجنة المسماة على عدد أعضائها (75) الذين جميعهم لم يتمّ اختيارهم من قبل الليبيين لهذه المهمَّة التي فُرضت عليهم من قبل أصحاب تلك الفكرة الملعونة فرضًا.

. أمَّا الحكومة الثَّانية فقد تمَّ اختيارها مِن قِبل مجلس النّواب الليبي، وهي الحكومة التي لم تنل الاعتراف من قبل أصحاب تلك الفكرة؛ ذلك لأنَّ أصحاب تلك الفكرة لم يقبلوا بالحلّ الليبي ليبي، ولهذا فهم ما يزالون لم يقرّروا بعد، متى سيكون الإعلان من فوق الطَّاولات عن الحلّ الليبي ليبي؛ ولهذا

فلم يبق متاحًا لليبيين إلَّا قبول التعامل مع المبعوثين الأمميين الذين يُرسلوا بغاية تقديم المساعد، ولكن الذين بعثوا كانوا هم الذين في حاجة للمساعدة.

ومع أنَّ العالم كلّه وافق في العام 2011م على تغيير النِّظام في ليبيا وطي صفحة العقيد معمر القذافي، فإنَّه اليوم لم يعد قادرًا على إجاد توافق دولي يخرج الليبيين من تأزُّماتهم؛ ذلك لأنَّ الخلاف بين الرُّوس والغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكيَّة؛ فلا إمكانيَّة للاتفاق على كثيرٍ من القضايا الدّوليَّة وفي مقدّمتها الملف الليبي؛ حيث وجود قوَّات الفاغنر الرّوسيَة على الأراضي الليبيَّة وهي القوَّات التي تمّ استخدامها هجوما على العاصمة حتى بلوغها مشارف المدينة وإيقافها عند أبوابها ومداخلها الرّئيسة؛ فكيف لها أن تخرج وقد ترى أنَّها قد دفعت الدّم على التراب الليبي من أجل الليبيين وإن كانوا منقسمين ولا يزالون. مع العلم هناك محاولات من أصحاب الفكرة بدفع الليبيين تجاه المواجهة مع قوات الفاغنر ومقاتلتها، ولكن معظم الليبيين تدارسوا هذا الأمر، ولم يقبلوا مقاتلة الفاغنر، ليس حبّا فيها، بل مقاتلة الفاغنر ليس بالأمر الهين، وأنَّ الليبيين يرون بأمهات أعينهم كلّ يوم جنود القوات المتعددة الجنسيات تحت غطاءات متعدّد بين خبراء داعمين، وأصدقاء مناصرين، وكتائب مأجورة، ومن ثمّ فأي قتال سيكون الليبيون فيه هم الضّحيَّة.

الليبيون الآن في حاجة لحكومة وطنيَّة رئيسها وأعضائها غير قابلين للبيع ولا الاشتراء، ومحتاجون لمجلس نواب منتخب غير فاقد للصَّلاحيَّة، وجيش وطني يحمي الحدود ويصون الهويَّة ويحافظ على السِّيادة الوطنيَّة، دستور وطني يؤسّس الدَّولة الليبيَّة على سُلطةٍ يتمُّ تتداولها سلميًا؛ حيث لا

معزول، ولا مقصي ولا مغيب بالإكراه. وهم أيضًا محتاجون إلى سيادة لا مركز لها إلَّا الشَّعب، وثروة لا احتكار فيها ولا حرمان، ومحتاجون إلى عِلمٍ ناهضٍ يمكِّن بدوره من أحدًاث النُّقلة، ويُمكِّن من رعاية صحيَّة، ويمكِّن من بلوغ جميع الغايات المأمولة ونيلها.

الوعيُ فكرًا يُفطنُ الذَّاكرة:

الذَّاكرة محفظة المعلومات والمعارف والمخزن الحصين الذي لا تكون مفاتيحه بيد الغير، إنَّها مكمن الأسرار والصندوق الأسود للعقل البشري، الذي منه تستدعى المعلومة وفقًا للطلب أو الأمر المرغوب إرادة، وهنا تكون المعلومة صادقة، أمَّا إذا كان استدعاء المعلومة نتاج أفعال الكره والإجبار؛ فلا شكّ أنَّها ستكون للضَّرورة ملبيَّة للأمر، ولكنَّ الشكوك والظّنون تملأها.

ولأنَّ الذَّاكرة مكمن الأسرار ومخزن المعارف والخبرات والتجارب الإنسانيَّة، فهي قابلة لأن تُنشّط بمزيدٍ من الانتباه والدّراية من خلال عمليَّات التذكّر والتدبُّر والتفكّر؛ فينبغي على الإنسان أنْ يفكّر عن انتباه إذا أراد أن لا تضمر ذاكرته، وعليه بتنشيط ملكات عقله من خلال المران الذّهني وإجراء عمليَّات المقارنة التي تمكّنه من التمييز بين الدّقيق والأدق منه، ومن ثمّ تمكّنه من التفكير المتوقَّع وغير المتوقَّع ارتقاء؛ فالعقول دائمًا في حاجة لأن تُمرّن حتى تمتلك القوَّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتيسّر له مشاهدة وملاحظة الآخرين وردود أفعالهم تجاه الغير.

ومن ثمّ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذَّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاء؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين، حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمَّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تفكيرا في نفسه حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ يعرف أنَّ قوَّة البصيرة بقوَّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلَّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة؛ ولهذا فالفكر ارتقاء يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى يفكّروا فيما هو أحسن منه.

ولهذا فتفطين الذَّاكرة لا يكون إلَّا نتاج الوعي بأهميَّتها للإنسان الذي له من الآمال ما له، وله من ورائها آمال تحدث النُّقلة لكلِّ مأمول نافع، فتفطين الذَّاكرة ضرورة تستوجب حُسن التدبُّر الذي يصنع المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، ويُمكّن من بلوغ الغايات العظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة؛ فينبغي الارتقاء فكرًا وعلما ومعرفة وخَلقا، وأسلوبا، وإلَّا سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجَّة والحكمة؛ فهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويُشَدّونهم للخلف ممّا يجعل الفارق كبيرا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، وبين الحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة العاملة والمتطلِّعة أملًا وارتقاء.

ومع أنَّ الذَّاكرة حافظة، فإنَّها قابلة لأن توسّع معرفة، وتُنشّط تذكُّرًا من خلال تمكّنها من معرفة الموروث المعرفي الواسع، وتنشّط تدبُّرا من خلال حسن الانتباه والالتفات لما يجب وقت وجوبه، وليس بعد أن يفلت ويصبح ماضيا، كما أنَّها تُنشّط بالتفكّر الذي يمّدها بالحيويَّة المحفّزة على بلوغ الأمل.

ولأنَّ الإنسان يولد اجتماعيًّا؛ حيث لا إمكانيَّة للعيش منفردًا، فهو في حاجة لمن يذكّره ويعلّمه كيف يتدبّر أمره وأمر من تربطه به علاقات، ومع أنَّ هذه قاعدة ولكن كما يقولون: لكلّ قاعدة استثناء؛ فآدم وزوجه لم يمرّا بهذه المرحلة؛ وذلك بأسباب الخَلق الآدمي المتكامل؛ حيث لا طفولة لهما ولا مراحل نمو قبل النّضج، فهما قد خَلقا على النّضج خَلقا، ومن ثمَّ ليس لهما ما يتذكُّرَان، ولكن بعد أن علّم الله آدم وأنبأه، أصبح لديه رصيد واسع من العلم والمعرفة؛ فيُمكنه أن يتذكّره، لِيُذكّر به الغير: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[16]؛ فتلك الأسماء التي أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حُجَّة؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد إن كان الرَّأي اختلافا.

ولكن على المستوى البشري من بعد آدم؛ فالتّجارب الإنسانيَّة متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضيًّا؛ لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات

---

[16] البقرة 33.

جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيَّام.

وقد يكون الخوف حاضرًا فيها؛ لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة؛ فالبحث عن اتفاق وحلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه وأخذ ما يجب الأخذ به؛ فيكون الاستشعار في هذا التوجّه قائما على درجة عالية من الحذر؛ كي تكون النِّهاية ملبّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُّفليَّة ومؤدّيا إلى ارتقاء مأمول.

فالذَّاكرة محفظة المعارف والخبرات والتجارب الماضية التي يمكن الاتعاظ بها في زمن التدبُّر، والوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفًا على إرث إنساني يمثل حقبة من حقب الماضي؛ فالتَّاريخ بتفريعاته وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانيَّة سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وهنا يكون النّظر الحاصل منطويًا على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلبًا من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ فيكون هذا الطَّلب فيما بعد حاجة ملحة تكون حاضرة بشكلٍ أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبِّيًا للبداية الافتراضيَّة التي كانت السَّبب في هذا الحضور.

إنَّ استدعاء الذَّاكرة للماضي فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانيَّة تسير وفق نسق واحد رغم العقبات التي يمكن أن تحدث؛ فالتفاعل

من خلال كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل البحث الدَّائم متحقِّقًا في كلّ زوايا الماضي؛ ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنيَّة والمستقبليَّة حلولًا مهمَّة، إلَّا أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة كون الظّروف مختلفة أو غير متماثلة؛ فيكون الاختزال في بعض القضايا متحقِّقًا بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت؛ فتكون الصَّورة المطلوبة في كثير من الأحيان غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة تُمكّن الذَّاكرة وعى ويقظة.

ومع أنَّ في الذَّاكرة يدخل الماضي حقل التراث، فإنَّه لم يكن من باب الجمود كأيِّ إيقونة ممكن أن تكون، ولكن من باب التبصّر والتمعّن والإيضاح الموقظ لما يجب أن يكون في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، فالإنسان يمر بظروف تكاد تتشابه كثيرًا على مرّ العصور؛ فينتج من ذلك نهايات تكون مختلفة ممّا يطرح في الذَّاكرة وجود آراء مختلفة؛ تجر إلى منعطفات لم تكن في كثير من الأحيان بالحسبان، ولعلّ تحقّق الأحدَاث العظام في الماضي يمثّل أحد هذه الاختلافات؛ فالإنسان يختلف تصرّفه كثيرًا حتى في القضيَّة الواحدة؛ إذ تحكمه الكثير من الظّروف التي تتنوّع فلا تقف عن حدٍ معين؛ فيكون الارتماء ممثلًا بتداعيات مختلفة تطرح من خلالها الحدود المفترضة التي تكون النِّهاية عند أعتابها؛ فتنساق الأمور في الذَّاكرة إلى امتدادات وإن كانت في بعض الأحيان واهية إلَّا أنَّها ممثّلة لاتجاهات فكريَّة كانت وراءها؛ ولهذا لا يمكن أن تكون هناك قطعية في الحلول؛

فالذَّاكرة تحمَل الكثير من الحلول المختلفة ممّا يحيل إلى انتفاء القطعية التي يمكن أن تطرح على أيِّ صعيد، فلم يكن هناك حلًّا واحدًا لكثير من القضايا وإن تشابهت هذه القضايا إلى درجة التطابق.

وفي الذَّاكرة يكتنف الماضي الكثير من التشكيلات التي يكون الوصول إليها يمثّل قراءة واعية بما أسبغه عليها من طروحات، ولهذا نجد يومًا بعد يوم ظهور تأويلات مختلفة للماضي وقد تكون متناقضة، لكن هذا يدلل على وجود حيّز كبير في الامتداد الفكري الذي يجوب أروقة الماضي ويقف عند محطاته الشّاخصة التي تكون فيما بعد دروسًا يستفيد منها من يبحث عن حلّ لما يمرّ به الإنسان؛ ولهذا وجب العمل على تفطين الذَّاكرة من خلال تمرينها تدبُّرًا، وتنشيطها تذكُّرًا وتفكرًا.

ومع أنَّ للذاكرة علاقة بالتَّاريخ من حيث أنَّها محفظة أحدَاثه وقضاياه، فإنَّ التّاريخ دائمًا يطرح مغايرات مهمَّة تكون عند أعتابها نهايات قد تتكرّر، وهذا يُسيّر عجلة الزّمن نحو إيجاد تعالقات متشابهة تكون أكثرها منتمية لبداية سعت دائمًا إلى حلحلت ما يمكن حلحلته في سبيل الوقوف على حدود واضحة المعالم، وهنا يكون السّير في هذا الرّواق منكفيًا على تجارب حاضرة وملبّية في الوقت نفسه للتساؤلات التي يمكن أن تُطرح، فتكون التبعات متحقّقة كونها تمثّل امتدادًا مطلوبًا، والتَّاريخ فيه من السّعة ما يجعل الكثير من المقولات شاخصة في كلّ زمان ومكان، فمقولة (التَّاريخ يعيد نفسه) تتكرّر على كثير من الألسنة لكنّها كما نعتقد أنَّها لا تمثّل تشكيلًا عامًا في هذا النسق الإنساني؛ ولذا وجب تفطين الذَّاكرة؛ لكي لا يضيع التَّاريخ ولا يزوّر، ومع أنَّ الذَّاكرة حاوية التَّاريخ وحافظته، فإنَّها لم تكن جزء

منه، ولهذا أحدًاث التَّاريخ تتكرر والذَّاكرة لا تتكرر؛ فالتكرار قد يحصل لكنَّه هل يحصل كما حصل في الماضي؟

هذا التساؤل يفضي بنا إلى أن نقول:

إنَّ التَّاريخ يمكن أن يعيد نفسه، لكن هذه الإعادة لا تكون بالتطابق التّام؛ لأنَّ هذا الأمر يكون من الصّعوبة بمكان أن يتحقّق؛ ومع ذلك فالتّجارب الإنسانيَّة متشابهة ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم بشكلّ أو بآخر في الوصول إلى حلّ حتى وإن كان افتراضيًّا؛ لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها، فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان كما سبق ذكره حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيَّام.

وكلّ التشكيل الذي ذهبنا إليه يكون الخوف في الذَّاكرة حاضرًا فيه، كونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة، فالبحث عن حلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّزه ويرشده بطريقة أو بأخرى إلى البحث عن حلّ يكون من بعده سقوط أو تبدّد كلّ المخاوف القائمة؛ ولذا يكون الاستشعار في هذا التوجّه قائمًا على درجة عالية من الحذر؛ كي تكون النِّهاية ملبّية للخوف الأوَّل الذي كان محفّزًا بدرجة جعل من آليات البحث عن حلّ خاضعة لهذا الخوف، وما سبقه من أحدًاث فيها من التشابه ما فيها، وفيها من الاختلاف ما فيها، وفيها

من المتوقَّع وما لم يكن متوقَّعا، ونتيجة لما تحمله الذَّاكرة من متناقضات تاريخيَّة؛ فهي دائمًا في حاجة للتفطين والتنشيط حتى لا تُفقد العلوم والمعارف والخبرات والتجارب والعبر والمواعظ[17].

[17] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 124 . 127.

محطات العقل الفكريَّة

الفكر تذكُّرًا:

التذكُّرُ مراجعة عقليَّة تفحصيَّة تطوي الزَّمن الماضي بغاية الاسترجاع وعيًا بتلك الأحداث، أو الظّروف، أو المواقف، أو ذلك التَّاريخ الذي تمت معايشته والدِّراية به لتستحضره معلومة من بعد معلومة. وفي هذا الشأن تختلف مقدرة العقول من شخصٍ إلى آخر مما يجعل البعض يُذكّر البعض بما نسيه؛ كونه أحد شهوده.

ولهذا فالتذكُّرَ وعيًا ودرايةً يتطلَّب مقدرة عقليَّة للاستدعاء من ذلك الوعاء أو المحفظة (الذَّاكرة) التي هي دائمًا في حاجة للتفطين؛ كونها محفظة المعلومات والمعارف والمخزن الحصين الذي لا تكون مفاتيحه بيد الغير، إنّها مكمن الأسرار والصندوق الأسود للعقل البشري، الذي منه تستدعى المعلومة تذكُّرا وفقا للطلب أو الأمر المرغوب إرادة، وهنا تكون المعلومة صادقة، أمَّا إذا كان استدعاء المعلومة نتاج أفعال الكره والإجبار؛ فلا شكّ أنّها ستكون للضرورة ملبِّية للأمر، ولكنَّ الشكوك والظنون تملأها.

ولأنَّ الذَّاكرة مكمن الأسرار ومخزن المعارف والخبرات والتجارب الإنسانيَّة، فهي قابلة لأن تُنشّط بمزيدٍ من الانتباه والدِّراية من خلال عمليَّات التذكّر والتدبّر والتفكّر؛ فينبغي على الإنسان أنْ يفكّر عن انتباه إذا أراد أن لا تضمر ذاكرته، وعليه بتنشيط ملكات عقله من خلال المران الذّهني وإجراء عمليَّات المقارنة التي تمكّنه من التمييز بين الدّقيق والأدق منه، ومن ثمّ تمكّنه من التفكير المتوقّع وغير المتوقّع؛ فالعقول دائمًا في حاجة لأن تُمرّن

حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتيسّر له مشاهدة وملاحظة الآخرين وردود أفعالهم تجاه الغير.

ومن ثمّ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذَّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته تذكُّرا حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد نهضة وارتقاء؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الغير، حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تذكُّرا وتفكيرًا في نفسه، حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ يعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التذكّر والتفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة؛ ولهذا فالفكر ارتقاء يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يتذكّرون أو يفكّرون فيه حتى يفكّروا فيما هو أحسن منه.

ولهذا فتفطين الذَّاكرة لا يكون إلّا نتاج الوعي بأهميَّتها للإنسان الذي له من الآمال ما له، وله من ورائها آمال تحدث النُّقلة والرّفعة بغاية بلوغ المأمول ونيله؛ ولذا فتفطين الذَّاكرة ضرورة تستوجب حُسن التدبّر الذي به تستدعى المعلومات من المحفظة تذكُّرا، والذي به يصنع المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة؛ ومن هنا ينبغي الارتقاء فكرا وعلما ومعرفة وخُلقا، وأسلوبا، وإلّا سيجد البعض أنفسهم جالسين في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والحكمة، وهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويُشَدّونهم للخلف ممّا يجعل

الفارق كبيرا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، وبين الحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة العاملة والمتطلّعة أمل وارتقاء.

ومع أنَّ الذَّاكرة حافظة، فإنَّها قابلة لأن توسّع معرفة، وتُنشّط تذكّرا من خلال تمكّنها من معرفة الموروث المعرفي الواسع، وتنشّط تدبّرا من خلال حسن الانتباه والالتفات لما يجب وقت وجوبه، وليس بعد أن يفلت ويصبح ماضيا، كما أنّها تُنشّط بالتفكّر الذي يمدُّها بالحيويّة المحفِّزة على بلوغ الأمل.

ولأنَّ الإنسان يولد اجتماعيّا؛ حيث لا إمكانيَّة للعيش منفردًا، فهو في حاجة لمن يذكّره ويفطّنه ويعلّمه كيف يتدبّر أمره وأمر من تربطه به علاقات، ومع أنَّ هذه قاعدة اجتماعيَّة أخلاقيَّة فإنَّه كما يقولون: لكلّ قاعدة استثناء؛ فآدم وزوجه لم يمرّا بهذه المرحلة، وذلك بأسباب الخَلق الآدمي المتكامل؛ إذ لا طفولة لهما ولا مراحل نمو قبل النضج، فهما قد خُلقا على النضج خلقا؛ مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتا}[18]، وبالتَّالي ليس لهما ما يتذكّران، ولكن بعد أن علّم الله آدم وأنبأه، أصبح لديه رصيد واسع من العلم والمعرفة؛ فيُمكنه أن يتذكّره، لِيُذكّر به الغير: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[19]؛ فتلك الأسماء التي أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حُجَّةٌ؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد إن كان الرأي اختلافا.

[18] نوح 17.

[19] البقرة 33.

أمَّا على المستوى البشري من بعد آدم؛ فالتّجارب الإنسانيَّة متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النَّظرة إلى الماضي وتذكّر ما يحتويه من تاريخ وعبر ومواعظ من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضيّا، لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيَّام. وقد يكون الخوف حاضرًا فيها؛ لكونه يمثّل الانطلاقة الثَّانية التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوَّة؛ فالبحث عن اتفاق وحلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه وأخذ ما يجب الأخذ به؛ فيكون الاستشعار في هذا التوجّه قائمًا على درجة عالية من الحذر؛ كي تكون النِّهاية ملبِّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُفليَّة ومؤدّيا إلى ارتقاء مأمول.

ومع أنَّ للذَّاكرة علاقة بالتَّاريخ من حيث أنَّها محفظةُ أحداثه وقضاياه، ولكن التَّاريخ دائمًا يطرح مغايرات مهمّة تكون عند أعتابها نهايات قد تتكرّر، وهذا يُسيّر عجلة الزَّمن نحو إيجاد تعالقات متشابهة تكون أكثرها منتمية لبداية سعت دائمًا إلى حلحلت ما يمكن حلحلته في سبيل الوقوف على حدود واضحة المعالم، وهنا يكون السَّير في هذا الرّواق منكفيا على تجارب حاضرة وملبِّية في الوقت نفسه للتساؤلات التي يمكن أن تُطرح، فتكون التبعات متحقّقة كونها تمثّل امتدادا مطلوبا، والتَّاريخ فيه من السّعة ما يجعل الكثير من المقولات شاخصة في كلّ زمان ومكان، فمقولة (التَّاريخ

يعيد نفسه) تتكرّر على كثير من الألسنة لكنَّها كما نعتقد أنّها لا تمثّل تشكيلا عاما في هذا النسق الإنساني؛ ولذا وجب تفطين الذَّاكرة؛ لكي لا يضيع التَّاريخ ولا يزوّر، ومع أنَّ الذَّاكرة حاوية التَّاريخ وحافظته، فإنّها لم تكن جزء منه، ولهذا أحداث التَّاريخ تتكرر والذَّاكرة لا تتكرر؛ فالتكرار قد يحصل لكنَّه هل يحصل كما حصل في الماضي؟

وعليه:

يعد التذكّر الفكري عمليَّة من عمليَّات الفعل العقلي المتعلّق بالمراجعات والاستقراءات بغاية الاستنباط والاستمداد الممكِّن مِن تدبُّر الحاضر وصُنع المأمول والتفكير فيما يحفّز على بلوغه ونيله.

ويمثل الماضي خزينا معرفيّا متعدّدا ومتنوّعا، بما يستثير العقل ويحفّزه على الانتباه والأخذ بما يجب اتعظا، فهو حافل بالكثير من التجارب المختلفة التي كان لها حضور واضح ومؤثّر سواء أكان ذلك على مستوى السّلب أم الإيجاب، ولهذا فإنَّ الوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفا على إرث إنساني يمثل حقبة من حقب الماضي، والتَّاريخ بتفريعاته وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانيَّة سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وهنا يكون النّظر الحاصل منطويا على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلبا من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ فيكون هذا الطّلب فيما بعد حاجة ملحة تكون حاضرة بشكلّ أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبّيًا للبداية الافتراضيَّة التي كانت السّبب في هذا الحضور.

إنَّ استدعاء الماضي تفكيرًا فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانيَّة تسير وفق نسق واحد رغم العقبات التي يمكن أن تحدث؛ فالتفاعل من خلال كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل البحث الدّائم متحقِّقا في كلّ زوايا الماضي؛ ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنيَّة والمستقبليَّة حلولا مهمّة إلَّا أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة كون الظروف مختلفة أو غير متماثلة؛ فيكون الاختزال في كثير القضايا متحقّقا بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت؛ ولذا تكون الصّورة المطلوبة في كثير من الأحيان غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة.

وعليه فإنَّ التذكّر يلفت الانتباه إلى أهميَّة الدّروس المتشابهة أو المتماثلة بغاية الاتعاظ وأخذ العبر وتفادي ما من شأنه أن يتكرَّر بذات المعطيات فيعيد نفسه وكأنَّ الماضي لم يمضِ عليه بأعوامه ودهوره.

ولهذا فالتذكُّر يمكّن المتدبِّرين أمرهم في زمنهم الحاضر من الإصلاح والتصحيح كسبا للوقت، واختصارا للجهد، وتوفيرا للإمكانات، ومن ثمَّ يخرجهم من التخبُّط والحيرة؛ قال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}[20].

في مفهوم هذه الآية جاء الأمر صريحا للنبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام بأن يذكّر النَّاس بالحقّ لعلهم يهتدون رغبة وإرادة؛ ذلك لأنَّ المهتدي رغبة

[20] الغاشية 21، 22.

وإرادة يكون أكثر النَّاس تمسّكا بالحقِّ، وفي المقابل من يُجبر ويكره على الاتباع ولو كان الحقّ سيكون متخليا عنه متى ما سنحت له الفرصة (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ). فهنا يتعلّق أمر التذكّر والتذكير بالمعجزات المنزّلة أمرا ونهيا، وهي الآيات التي تخبر عن كل ما أنزل متحقّقا، وتبلّغ عمَّا سيتحقّق لا محالة، أي إنَّها المذكّرة بما وقع وحدث وبما سيقع ويحدث يوم أن يأتي يومه.

أمَّا قوله (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) فمفهومها يُرسّخ: أنَّه ليس للرّسول إلَّا التذكير، أي لا خيار له في التذكير، وفي المقابل يصبح الخيار للمذكّرين بالقرآن رغبة وإرادة: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}[21].

ومع أنَّ الوعيد لا يتحقّق إلَّا في الزّمن المستقبل فإنَّ التذكير به حقّ؛ بغاية تجنّبه قبل أن يتحقّق؛ ذلك أنَّه اليقين الذي لا يستدعي إلَّا التسليم به حيطة وحذرا قبل أن يأتي يومه، وإلَّا سيكون الأوان وقد فات؛ ولهذا ليس للنبي إلَّا التذكير به قبل أن يصل يومه. فالله تعالى مع أنَّه يعلم بما يقول المشركون من تكذيب فإنَّه لا يقر الإكراه والجبر على الدين؛ ذلك أمر الله؛ مصداقا لقوله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[22].

وبغاية مزيدٍ من التدبّر ينبغي أن نميّز بين مفهومي (التذكّر والتذكير).

---

[21] ق 45.

[22] الكهف 29.

وعليه فإنَّ التذكُّر: هو الفعل في ذاته، وهو الذي يستدعيه المتذكّر بنفسه؛ قال تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}[23].

يفهم من هذه الآية الكريمة أنَّ أهل النَّار لما أدخلوا إليها زمرا تذكّر كلّ واحدٍ منهم افعاله، ومع أنَّهم تذكّروا ما فعلوا، فإنَّ الذكرى لن تنفعهم أبدا؛ ذلك لأنَّ الفرصة أعطيت لهم وقد ضاعت من بين أيديهم؛ كونهم ذُكّروا تذكيرا حسنا غير أنَّهم لم يأخذوا بأحسن ما ذكِّروا به، ومن هنا فالنّدم لن ينفعهم، بل الفرصة كانت بين أيديهم وقد ضيَّعوها. قال تعالى: {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ للنَّاس لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[24]، أي مع أنَّ الله تعالى حريصٌ على عباده، فإنَّ بعض العباد ليسوا بحريصين على أنفسهم، أي إنَّ الله يضرب لعباده الامثال ليلفتهم إلى ما يمكن أن يقتدوا به؛ حتى لا يجري عليهم ما جرى مع الذين سبقوهم عبر الزَّمن واحقابه، ومع ذلك لا يتعظون ولا يعتبرون، ومن هنا تولد العلّة من بعد العلّة علَّة؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الثَّانية بَصَائِرَ للنَّاس وَهُدى وَرَحْمَة لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[25]؛ فقوله (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) يحمل مفهوم إعطاء الفرصة من بعد الفرصة، ذلك فمن لم يستجب للفرصة الثَّانية لعله يستجيب للفرص التي ستمنح من بعدها ولا قنوط؛ ومن هنا فإنَّ الغاية العظمى من

[23] فاطر 37.

[24] إبراهيم 25.

[25] القصص 43.

وراء التذكير هي الهداية إلى الحقِّ بالحقِّ: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[26].

وعليه فإنَّ التذكُّر نعمة عقليَّة أنعم الله بها على عباده؛ كونها تمكِّن الإنسان من المعرفة من خلال الوقوف على الشَّواهد (شاهدة شاهدة)، ومع ذلك هناك من لا يأخذ بالشواهد: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا للنَّاس فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[27].

الفكر تدبُّرا:

يعد حُسن التدبُّر التفاتة عقليَّة بها يتجه الإنسان لنفسه وإلى ما ينبغي الاقدام عليه وفقا للحاجة والضّرورة، سواء أكانت الالتفاتة لصوغ خطة عمل، أم لرسم سياسات، أم لحل مشكلة وفك علل تأزُّمها.

وحُسن التدبُّر عن وعي ودراية يجنّب صاحبه الوقوع في الفخّ، ويمكِّنه من إيجاد الحلول والمعالجات، وإيجاد كيفيَّة الدّخول إلى والخروج مِن؛ فالتدبُّر يتطلَّب الاجتهاد والمثابرة وفقا للأهداف المراد إنجازها بموضوعيَّة.

ويعد حُسن التدبُّر اجتهاد عقلي وفكري يمكّن الإنسان من الالتفات إلى نفسه ومعرفة ما يجب أن يقوم به أو يقدم عليه في الزَّمن الحاضر؛ ومن ثمَّ فالتدبُّر يتطلّب قبول الاستغراق في الحيرة وقبول تحديها تفكيرًا؛ حتى الخروج منها وعيا ودراية، وعن بيّنة تمكِّن الإنسان من:

---

[26] القصص 51.

[27] الزمر 27.

. الخروج من الحيرة دراية.

. معرفة الحلّ.

. تجاوز المعيقات.

. إحداث النُّقلة.

. بلوغ الغايات.

. نيل المأمولّات.

والتدبُّر الحسن لا يكون إلَّا عن دراية حسنة تستوجب تحديد الأهداف ووضوحها، ورسم السّياسات والخطط والاستراتيجيَّات التي تتطلّب عُدَّة واستعدادا مع وافر التهيؤ والتأهُّب وفقا للإمكانات المتاحة والممكِنة، التي تُمكِّن من العمل وبلوغ الحلّ.

ولأنَّ حُسن التدبُّر وعيا لا يمكن أن يكون عابرا، إذن فلا يكون إلَّا عن تمعُّن ودراية تامّة بما يجب وبما لا يجب؛ قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[28]. ومع أنَّ مفهوم التدبُّر هنا جاء بمعنى أن القرآن كلّه يُعقل ويدرك؛ كونه آيات وشواهد بيِّنة تدركها الحواس سمعا وبصرا ولمسا وعقلًا وبصيرة، فإنَّ البعض تعمّد عدم التدبُّر في آياته المعجزة؛ أي: مع أنَّ آيات القرآن شواهد حقٌ فأنكرها الذين كفروا؛ قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}[29]؛ جاء في هذه الآية الكريمة مفهوما

---

[28] محمَّد 24.

[29] آل عمران 70.

يؤدِّي إلى الاستغراب الذي لا يكون إلَّا في دائرة الممكن البشري، أمَّا بالنسبة إلى الله تعالى فلا استغراب؛ كونه يعلم الغيب والشهادة: {عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[30].

أمَّا مفهوم قوله (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) جاء مفهوما خاصّا بأهل الكتاب من يهود ونصارى، كونهم يؤمنون بالله؛ ولهذا قال (لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) ولمْ يقل (لِمَ تكفرون بالله)؛ لأنَّ أهل الكتاب يعلمون بأنَّه لا مستحيل ولا معجز إلَّا من عند الله؛ أي مع أنَّهم يشهدون بذلك ويؤمنون بالله تعالى فإنَّهم كفروا بآيات الله التي يعلمون ويعرفون بأنَّها المعجزة للقول والفعل والعمل والقوّة وإن عظمت.

ومع أنَّهم أهل كتاب ويؤمنون بالله تعالى؛ فإنَّهم كفروا بالحق (كفروا بآيات الله)؛ ولهذا فإنَّ الله غني عن الكل، والكل في حاجة إليه، ومع ذلك فإنَّ أهل الكتاب أهل خصوص كونهم يعلموا الحقّ من عند الله: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[31]، وقال تعالى: {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[32]. تشترك هاتين الآتين في المفهوم ولكل الدِّيانات الإبراهيميَّة كون أهلها يعلمون الحق المنزَّل؛ ولذا فمن ينكر الحقّ المنزَّل يعدُّ من الكافرين حتى ولو كان من أهل الديانات الإبراهيميَّة.

وعليه: ينبغي على المؤمنين أن يتدبّروا القرآن حتى يتدبّروا آياته، آية من بعد آية؛ بغاية أخذ العبر والمواعظ من المعجزَّات والمستحيلات التي ليس

[30] الجمعة 8.

[31] آل عمران 97.

[32] العنكبوت 6.

لها مفاتيح معرفيَّة إلَّا في القرآن الكريم؛ قال تعالى: {قَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}[33]. لقد كفر مِنْ أهل الكتاب مَن كفر؛ كونهم لم يتدبّروا القرآن آية من بعد آية، وهم كفروا لأنَّهم يعلمون الحقيقة ولكنَّهم أنكروها، أي: يعلمون أنَّ الله ليس المسيح ابن مريم؛ فهم فمع أنَّهم يؤمنون بالنبي عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام فإنَّهم لم يأخذوا بما أخبرهم به وأوصاهم وبشّرهم؛ مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}[34].

ولأنَّ الخطاب موجّهٌ من النبي عيسى إلى بني إسرائيل؛ فبنوا إسرائيل هم الذين قالوا: إنَّ الله هو المسيح ابن مريم؛ وذلك بغاية الانحراف بالمسيحيّة عن صوابها المنزَّل. أي: لأنَّ المسيحيَّة جاءت منزَّلة وناسخة للديانة اليهوديَّة؛ فإنَّ الذين لم يؤمن من بني إسرائيل بالديانة المسيحيّة هم الذين قالوا: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ).

---

[33] المائدة 72 – 75.

[34] الصّف 6.

ومع أنَّ آيات القرآن شواهد تلفت العقل وتثيره، وتستفزّه فكرا وعلما وبحثا، فإنَّ بعض العقول عمدت أنْ لا تتدبّره؛ ومن هنا فالذين تدبّروه التفتوا إلى أنفسهم اعترافًا بالحقِّ؛ وذلك بالتفاتهم إلى آيات الخالق العظيمة التي جعلتهم على الايمان وهم في أحسن تقويم.

وعليه فإنَّ التدبُّر وعيا يؤدِّي إلى:

. إنجاز الأهداف.

. رسم السياسات.

. رسم الخطط والاستراتيجيَّات.

. معرفة الحلّ.

. تحقيق الأغراض.

. بلوغ الغايات.

. نيل المأمولَات.

. تعظيم القيم الخيّرة.

. المزيد من الدّراية والمعرفة.

. المزيد من الخبرة والتجربة.

والتدبُّر مع أنَّه قيمة فإنَّه لا يكون إلَّا عن حيويَّة تدير الأمر الذي يستوجب حُسن التدبُّر، ومع أنَّ التدبُّر لا يكون إلَّا في ساعته، فإنَّه لا

يكون إلّا من أجل المستقبل قريبا كان أم بعيدا؛ ولهذا فالحاضر تدبّرا هو ما يدركه العقل ويتبناه تخطيطا وعملا حتى يعيشه وجودا، وكما يأمله في دائرة الممكن، ومن هنا فالتدبّر حُسن إدارة وجودة عمل، به ترسم السياسات والخطط وتُتّخذ التدابير الممكّنة من إيجاد معالجات لأيّ طارئ، فالتدبّر دراية عقليَّة يرتقي بحاضر أصحابه إلى ما يمكنّهم من الأخذ بما ينبغي في سبيل إحداث النُّقلة سياسة واقتصادا وعلما ومعرفة، نُقلة تطوي صفحات الحاجات المتطوّرة بمشبعات مُرضية وفقا للفرضيَّات التي تأسّست عليها؛ ممّا يجعل المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلّة، أو حلّها من جذورها؛ فالتدبُّر ارتقاء يمكّن من مواجهة المفاجآت التي يمكن أن تحصل في الزّمن الحاضر دون أن تترك أثرا سلبيّا.

ويتّسع التدبّر ارتقاء ليكون حضوره ملبِّيًا أو محتويًا للأحداث الحاصلة، إلاّ أنّه لا يكون حلاّ نهائيّا؛ فكلّ الحلول الآنية قد لا تصلح لأن تكون حلولا دائمة، لكنّها في وقتها إن كانت ارتقاء؛ فهي لا شكّ تمثّل الحلّ الأمثل في زمنه في دائرة الممكن الذي تكون نتائجه باهرة وغير متوقّعة، كما أنَّ التدبُّر وإن كان آنيا إلّا أنَّه يفتح مدارك الإنسان رُقيّا في البحث عن حلول تكمن فيها النِّهاية المرجوة، التي تتّسع لكلّ المفاجآت، التي يمكن أن تحدث.

ففي الزّمن الآني يحدث الكثير من الأحداث التي يكون وقوعها ممثّلا لكارثة أو لأمر غير متوقّع؛ فتكون المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلّة.

فالتدبُّر حلّ للمفاجآت التي يمكن أن تحصل، ولهذا لا يكون الحلّ نهائيّا، بل وقتيّا من أجل تجاوز المرحلة المهمّة، ومن الشّواهد التي رأينا فيها التدبّر مثالا حاصلًا بالكيفيَّة الآنيَّة ما حصل في تشيلي لعمال المناجم بتاريخ 14 أكتوبر 2010، فبعد أن أصبحوا في غياهب الظُّلمات في مسافة تزيد عن ستمائة متر تحت الأرض، فما كان من السُّلطات التشيليّة إلّا بحثت عن حلّ سريع يكون به النّجاة لهؤلاء العمّال، وفي كلّ تفاصيل الإنقاذ كان الخوف حاضرًا بدرجة كبيرة، ممّا استوجب ضرورة لحسن التدبّر، فأدوات النجاة وطرقها كان يرافقها الخوف ممّا أفضى ذلك بأن يكون النّجاح حليف عمليَّة الإنقاذ، وهناك استعملت في عمليَّة الإنقاذ كبسولة أطلق عليها اسم (فينكس) نسبة إلى طائر (الفينيق) الأسطوري، وبلغ قطرها 53 سم. وخضعت هذه الكبسولة للتجريب حيث عمد عمال الإنقاذ إلى إنزالها مرّتين في باطن الأرض قبل بدء عمليَّات إنقاذ العمال. فما كان من الخوف إلّا أن يكون حاضرًا في جميع تفاصيل مهمة الإنقاذ فالبداية تدبّرا كانت باحثة عن كلّ الأساليب التي تجعل من العمال يبقون على قيد الحياة سالمين، كالغذاء والاتصال وغير ذلك، أمّا المهمّة الثَّانية؛ فكانت في تفاصيل وسائل الإنقاذ بداية من الحفر عن أقرب مكان يصل إليهم إلى الكبسولة التي تقلّهم إلى سطح الأرض؛ فالتدبّر في حاضره كان في كلّ شيء يساهم في الإنقاذ، والكبسولة حيطة وحذرا لم تكن واحدة، بل كانت أكثر من واحدة، ووسائل الحماية المتوفِّرة فيها تدبّرا كانت خاضعة لمقاييس الخوف من أجل أن يصل العامل إلى سطح الأرض بكلّ سلامة، ولم يكن الخوف والتبّر قابعا تحت الأرض فقط، بل كان حاضرًا عند سطح الأرض في توفير كلّ المستلزمات

الصحيّة التي تحافظ على صحة العمال بما فيها النظّارة الشمسية الخاصّة التي كانت البداية متمثّلة فيها.

وكذلك ما حدث مع الطّفل المغربي ريَّان ذو السنوات الخمس، الذي مأساته شدّة انتباه العالم وأنظاره يوم 1-2-2022م بمنطقة (باب برد) بالقرب من مدينة شفشاون، ريَّان الذي سقط في البئر وارتكن فيه ضيقا على عمق 32 مترا (منتصف عمق البئر تقريبا)، ولقد بقي في البئر محصورا في ضيقه حوالي 90 ساعة، وهو يعاني من شدّة الألم والبرد والجوع والخوف والرّعب من شدّة الظلمة؛ ولذلك يعد هذه الزَّمن طويلا جدّا على حياة الطفل وبخاصّة إنَّه لم يتمكَّن من الاكل ولا من الشُّرب، ولا من التدفئة، ومع أنَّه الوقت الطويل، فإنَّه بأسباب الحيطة والحذر تدبُّرا كان ضروريّا وفقا لبساطة الآلات المستخدمة إذا ما قورنت بغيرها من الآليّات المتطوّرة تقنية، ويا ليت المتدبّرين أحسنوا تدبيرهم واستخدموا غيرها من الآليَّات الأكثر تطوّرا وتقدّما.

إنَّه البئرٌ ضيّق القطر (لا يزيد قطره عن 35سم) مما جعل النزول إليه متعذرا، ومع ذلك كان التدبّر يلاحقه حفرا بغاية إخراجه حيّا قدر الإمكان؛ فكانت الاستشارات بين الخبراء والدّول مع المملكة المغربيَّة بغاية إنقاذه؛ وذلك لتفادي تلك الانهيارات التي قد تحدث بأي علّة من العلل وتكون خطرا على حياته وعلى حياة المنقذين حفرا، ومع ذلك تم الوصول إليه حفرا موازيا بسلام؛ حيث لا انهيارات حدثت، غير أنَّ الاعمار بيد الله فلم يكن الوصول إليه في الزَّمن المنقذ للحياة؛ فمات ريَّان، ولكن بحسن التدبّر لم يقبر في البئر، بل قبر دفينا كغيره من الأموات.

ولهذا يتّسع التدبّر ليكون حضوره ملبّيًا أو محتويًا للأحداث الحاصلة إلاّ أنّه لا يكون حلّا نهائيّا، أو أن يتكرّر الحدث بتكرر الحلّ نفسه؛ ولذا أنَّ كلّ الحلول الآنية قد لا تصلح لأن تكون حلولا دائميَّة، لكنّها في وقتها قد تمثّل الحلّ الأمثل في دائرة الممكن الذي تكون نتائجه باهرة وغير متوقّعة، كما أنَّ التدبُّر وإن كان آنيا إلّا أنَّه يفتح مدارك الإنسان في البحث عن حلول تكمن فيها النِّهاية المرجوة، وهو بهذا يسير نحو إيجاد حلول منفتحة ومكتسية بثوابت افتراضيَّة ممّا يكون مستقبلها حاصلًا ومنتميا لهذه الافتراضات.

ومن هنا فإنَّ الشَّخصيَّة المتدبِّرة تعتبر الحلّ الآني تدبّرا يسهم في خلق فروض متعدِّدة منتمية إلى مخاوف مفترضة، وهنا يظهر الخوف كمؤسّس حقيقي لفرضيات تسهم بشكلّ كبير في إيجاد مساحات جديدة فيها من التدبّر والمتناوبات المختلفة التي تشير بشكلّ أو بآخر إلى وجود افتراقات في المنجز الافتراضي، وهذا يبعث في الرُّؤى العامَّة المتحقّقة روح الامتداد المستفيض الذي يخلق تبعات واضحة تجد صداها عند كلّ فرضية موجودة سواء أكانت متحقِّقة أم كانت في طور الانتماء العام لفرضيّات أخذ الحيطة والحذر من أجل سلامة المتدبّر من أجله.

ويكون التدبّر المتعاقب في هذا المنجز الافتراضي أداة فاعلة في بناء استمراريَّة حقيقيَّة تكون رافدة للعمليَّة المطلوبة، فالانكفاء غير حاصل كونه يخلق انزواءات غير فاعلة تسهم بشكلٍ كبيرٍ في انضواء أنساق عديدة يكون لها دور مهم في الايضاح والتفاعل والخلق والمبادرة، فتستحيل كلّ ملاحظاتها

إلى برامج تتابعية ترشد وترسم ما سيكون وفق عمليَّة نجد فيها تشاكلٍ واضح ينضح بكلّ السياقات التي يكون حضورها فاعلًا ومؤثّرًا.

وعليه: تكون المساحة المطلوبة لهذه الفرضيَّات منتمية إلى الاتساع الذي يجب أن يكون، وهنا تظهر المدارات بأنواعها؛ كي تشغل حيزا واضحا في هذه المساحة التي تتّسع لكلّ الأطراف، أمّا حدود هذه المساحة فهي مفتوحة؛ كونها تريد أن تكون نهايتها مفتوحة كي تتّسع لكلّ المفاجآت التي يمكن أن تحدث، لأنَّ الواقع يفيض بالمفاجآت؛ فتكون معالجتها تدبّرا غير منضوية تحت أيّ إدراج، وبغضّ النّظر عن الوسائل التي تُستخدم، ممّا يسمح لها باستقطاب الحلول التي تنقلها من واقعها التي هي فيه إلى واقعٍ جديدٍ يكمن فيه الانتشال المطلوب، وعليه:

. حُسن التدبّر من الحكمة.

. حُسن التدبّر من حُسن الإدارة.

. حُسن التدبّر يجوّد المنتج.

. حُسن التدبُّر مشاركة وفاعليَّة.

. حُسن التدبّر يمكّن من رسم السياسات الناجعة.

. حُسن التدبّر يمكّن من صناعة المستقبل.

. حُسن التدبُّر حيويّة عقليَّة وفكريَّة.

. حُسن التدبُّر يدير العقول.

. حُسن التدبُّر يمكِّن من النهوض.

. حُسن التدبّر يمكّن من إحداث النُّقلة.

. حُسن التدبّر يمكّن من تحدّي الصّعاب.

. حُسن التدبّر يمكّن من مواجهة المفاجئات.

. حُسن التدبّر يمكّن من إنجاز الأهداف.

. حُسن التدبّر يمكّن من إيجاد الحلول.

. حُسن التدبّر يمكّن من تحقيق الأغراض.

. حُسن التدبّر يمكّن من بلوغ الغايات.

. حُسن التدبّر يحفّز على نيل المأمول.

. حُسن التدبُّر يمكّن من كسر القيد.

. حُسن التدبُّر يمكّن من معرفة غير المتوقّع.

. حُسن التدبُّر يمكّن من طي صفحات الوهم.

. حُسن التدبُّر يمكّن من بلوغ الخوارق.

إذن: يوجد التصاق بين التدبّر الإنساني وبين الزَّمن الحاضر، أي لا تدبّر إلّا حاضرًا، وهذا الأمر جعل من التدبير يدور في المعاجم التي تنتمي إليها الحلول الآنيَّة التي لا يمكن معاودتها مرّة ثانية؛ وذلك لأنّها لم تنتم إلى دائرة الثبات التحقّقي؛ فهي تزاول نشاطها ضمن مساحات محدودة يدفعها

الخوف باتجاهات ترتبط به وبدون أن يمنحها حقّ التراجع، لأنّها في حقيقة الأمر لا تمتلكه؛ كونها تابعة للخوف بوصفه المانح لكلّ الرسوم التي تُسيّر الحلول في زمنها الحاضر وفقا لما هو ممكن سواء أكان الممكن متوقعا أم أنَّه على غير متوقّع.

وهنا تباشر الشَّخصيَّة المتدبِّرة وجودها من خلال الارتماء في حضن الواقع الذي يكون فيه المشكّل حاصلًا بكيفيَّة متوقّعة وغير متوقّعة؛ فتنبري الحلول المستدعاة تدبّرا بتقنيات مختلفة، إذ تدور كلّها حول إيجاد حلّ سريع وملبِّيًا للواقع، ويكون الزّمن مفتوحا ضمن مدى يقصر وقد يطول بحسب الاحتياج المطلوب، فتتعالق عوامل متعدّدة ومتنوّعة تسهم بأشكال مختلفة من أجل الوصول إلى الحلّ المنشود أملا.

والشَّخصيَّة المتدبِّرة في حاضرها تبحث عن سُبل كثيرة تريد من خلالها الوصول إلى مبتغاها تدبّرا، ويكتنف هذا البحث تبعات في حالة الحصول على المبتغى؛ يكون حسن التدبُّر موجّها للعقل ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، فالمتوقّع يكون حافزه ليس بالكبير كونه حاصلًا وحدوده يمكن تبيانها ووضع علامات لها، وتكون مدعاة للتقييم، ومن ثمَّ تكون قابلة للرصدّ والتحليل وللتمثّل، إلّا أنَّ غير المتوقّع تكون حدوده غير واضحة المعالم؛ فيكون الاستغراق الفكري حاضرًا في إيجاد افتراضات مستمرّة تحاول أن تجيب عن كلّ ما يُطرح، وهذا بدوره يخلق حالة من الارتدادات المعرفية التي يكون فيها التسابق حاصلًا للوصول إلى كنف جديد يكون ملبِّيًا للمراحل المرادة، فالانزواءت غير مطلوبة، والعبثية غير مطلوبة، والتوقّف غير مطلوب، والتسليم بما هو موجود غير مطلوب؛ ذلك أنَّ التدبّر يمرّ دائمًا بحالة من

الحضور المغاير ممّا يحمله على البحث عن كلّ ما يمكن أن يكون فيه الحلّ المرجو[35].

وعليه فإنَّ زمن التدبّر يكون فيه في دائرة الممكن الاحتواء على السّابق والتطلَّع إلى ما يمكن أن يكون لاحقا؛ ولذا فهو الحركة الممتدة من الماضي إلى المستقبل عبر بوتقة الحاضر.

وعليه فالقاعدة الأخلاقيَّة ترى ضرورة:

- التواصل مع التَّاريخ.

- تقبُّل الآخرين.

- التواصل مع الآخر.

- التواصل مع القدوة.

- التطلّع للمستقبل.

- العمل على بلوغ الأمل ونيل المأمول النّافع.

- استيعاب المختلف.

والاستثناء هو:

- عدم التواصل مع التَّاريخ.

- عدم تقبّل الآخرين

---

[35] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 127 . 131.

. عدم التواصل مع الآخر.

. عدم التواصل مع القدوة.

. عدم التطلّع للمستقبل.

. عدم العمل على بلوغ الأمل ونيل المأمول النافع.

. عدم استيعاب المختلف.

وعليه:

. أعمل على تفطين ذاكرة المتعلمين.

. بيّن لهم نقاط الضّعف التي تشوّه الذَّاكرة وتطمسها.

. مكّنهم من معرفة المعلومات الخاطئة.

. مكّنهم من معرفة المعلومات الصّائبة.

. مكّنهم من المقارنة حتى يتبينوا عن وعي وإرادة.

. مكِّنهم من الاختيار بمسؤولية واعية.

. اغرس فيهم حبّ الآخر.

. حفّزهم على التطلّع الموجب.

. عوّدهم الاعتماد على أنفسهم والتعاون مع الآخرين.

. مكّنهم من المشاركة التي تُيسِرَ لهم النُّقلة إلى الأفضل والأجود.

ولذلك فالذَّاكرة تُصنع بقوّة الإرادة وقوّة العزيمة التي تخلق شخصيَّة قويّة متدبِّرة متحدِّية للصّعاب؛ فالشخصيَّة القويَّة المتدبِّرة هي التي لا تغفل عن معطيات الزَّمن الحاضر ولا تنغلق عليها، بل تتطلّع إلى ما هو آتي؛ كي تصنع مستقبلا تتجاوز به الآخرين الذين سقطوا في ميادين المنافسة الحرّة؛ كونهم من المستهلكين المتكئين على ظهور الغير.

ومن ثمّ ينبغي أن يركز أخصائيو التنمية البشريَّة وعلم النَّفس والخدمة الاجتماعيَّة على دفع العملاء إلى ما يحفّزهم على تفطين الذَّاكرة وصناعة المستقبل الأفضل، الذي إن لم يسهموا في صناعته فسيفاجؤون بغير المتوقّع، ولذا تُفطّن الذَّاكرة بنوعية التواصل الذي منه:

. التواصل مع الفضائل الخيّرة.

. التواصل مع القيم الحميدة.

. التواصل مع المعلومة المستفزّة.

. التواصل مع المختلف.

. الالتفات إلى التاريخ وما فيه من المواعظ والعِبر والتجارب والخبرات.

. التواصل مع أهل القدوة الحسنة.

. التطلّع إلى ما هو أفيد وأكثر جودة.

. قبول التحدّي.

ومن هنا فإنَّ مفهوم التدبُّر يرمي إلى الحكمة التي يصوغها العقل البشري بغاية الاقدام الآمن، أو الانسحاب الآمن، أو بغاية التحايل والالتفاف والمناورة.

ولذا فالعلاقة قويَّة بين إيجاد الحكمة وحسن التدبُّر؛ كون كلّا منهما مولود حسن التفكير الموضوعي؛ حيث لا مجال للعاطفة على حساب تقرير المصير أو إحداث النُّقلة وبلوغ الغايات ونيل المأمولَات.

وقد جاء مفهوم التدبُّر من أصل الكلمة وتصريفاتها اللغوية (دبَّر – يدبّر – تدبيرا)، وهي بهذا المفهوم كمن يقول: (فكَّر – يفكّر – تفكيرًا)؛ ومن هنا ارتبط حُسن مفهوم الحكمة بحسن مفهوم التدبُّر دلالة ومعنى؛ ولذا فكما تخرج الحكمة أصحابها من التأزُّمات يخرج التدبُّر أصحابه من التأزُّمات أيضًا.

وعليه:

فحسن التدبر يمكّن من التواصل مع التَّاريخ ويصنع الذَّاكرة، كما أنّه يُمكّن من التواصل مع المستقبل ويحقّق المأمول.

ومن ثمَّ يصبح التدبّر وحسن إدارته مُمكّنٌ من إحداث النُّقلة، ومحقّقٌ للرفعة المأمولة؛ ولذلك يجب على الحكماء وإخصائي التنمية البشريَّة والخدمة الاجتماعيَّة والرّعاية النفسيَّة إذا أرادوا المشاركة في التغيير إلى الأفضل أن لا يغفلوا عن القواعد المهنية التي تستوجب:

ـ تقبل العملاء كما هم.

. البدء معهم من حيث هم.

. الأخذ بأيديهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه.

. التأكيد على أنَّ الصِّعاب لا تصمد أمام المتحدين لها.

وهذه لن تتحقّق إلا بمراعاة الآتي:

. تفهّم حالات الأفراد والجماعات والمجتمعات وتفهّم ظروفهم الخاصّة والعامَّة.

. الاعتراف بأنّ لكلّ فرد وجماعة ومجتمع حقوق تمارس وواجبات تؤدّى ومسؤوليات يتمّ حمْلها.

. استيعاب الأفراد والجماعات والمجتمعات بما لهم وبما عليهم دون تحيّز لطرف على حساب آخر.

. تقدير الأفراد والجماعات والمجتمعات قيميًّا وثقافيًّا وحضاريًّا، في ضوء تقدير القدرات والمهارات والخبرات والإمكانات المتاحة أو المتوفرة.

وعليه تستمد قيم التواصل من مصادر مقدّرة عبر الزّمن اجتماعيّا وإنسانيًّا.

وبما أنَّ ما يُقدّر اجتماعيّا وإنسانيًّا، يجب أن يُوضع في الحسبان تدبّرًا. إذن على العلماء والحكماء والأخصائيين الاجتماعيين والنَّفسيين وإخصائي التنمية البشريَّة الأخذ بالآتي:

. أن يضعوا في حسبانهم وتقييماتهم كلّ ما هو مُقدّر لدى العملاء أو الأفراد والجماعات والمجتمعات.

. أن يُصنّفوا قيم الأفراد في نسق قيمي، وفقا لأولويَّاتها وأهميَّتها بالنّسبة إلى كلٍّ منهم.

. أنْ يمدّوا يد العون للفرد والجماعة، حتى يستبصروا تأثيرات كلّ فعل وسلوك يقومون به أو يقدمون عليه.

. العمل على إحداث التغيير في النّسق القيمي للأفراد والجماعات أو العملاء، إذا اكتشف الأخصائيون أنّها تتعارض في البدائل القيميَّة المقدّرة اجتماعيّا أو إنسانيّا.

. العمل على تمكين الفرد والجماعة من معرفة قيم الآخرين النّافعة.

. تهيئة الأفراد لتقبّل الآخرين، الذين يبادلونهم الخبرة والمنفعة.

وبناء على ذلك، تؤكّد القواعد المهنية للتنمية البشريَّة والخدمة الاجتماعيَّة على الآتي:

. التواصل مع مبادئ وأهداف وقيم وأخلاقيَّات المهنة بمهارات متنوّعة.

. التواصل ثقافيًّا ومعرفيًّا مع الأفراد والجماعات؛ لكي يصبحوا في حالة تواصل مع قيمهم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة التي حادوا عنها بنسب متفاوتة.

. العمل على تمكين الأفراد أو العملاء من الاتصال مع حواضنهم الاجتماعيَّة، دون أن يغضّوا النَّظر عن أهميَّة قيم الآخرين.

. تمكين الأفراد والجماعات والعملاء من التواصل مع أنفسهم (مع قدراتهم واستعداداتهم الخاصّة) حتى لا يُحّلقوا في الهواء خيالا، بمنعزل عن الواقع، وما يمكن أن يتمّ الإقدام عليه من أجل المستقبل المأمول.

وعليه: ينبغي على كلّ فرد وكلّ جماعة وكلّ أمّة أن يتدبّروا أمورهم وإلّا سيجدون أنفسهم قد وقعوا في الفِخاخ.

أي: ينبغي أن يعرف الجميع أنّ حُسن التدبّر ينّجي من الوقوع في الفخ فلماذا لا يتدبّروا أمورهم؟ ولماذا لا يتعرّفوا على الفِخاخ حتى لا يقعوا فيها؟

وعليه:

. لاحظ حتى تميّز.

. تعلّم حتى تعرف.

. استوعب حتى تدرك وتتّسع معارفك.

. شارك ومارس.

. اجتهد حتى تكتسب الخبرة.

. تطلّع حتى تطوي الهوة، وتحقّق النُّقلة.

. تفهّم وافهم لتتمكّن من معرفة الأسباب.

وبما أنَّ التطلّع إلى المستقبل يتطلّب جمع القوّة الممكّنة من بلوغه (الممكّنة من تحقيق النُّقلة).

إذن: القوّة المجمّعة في الزَّمن الحاضر جزء كبير منها نتاج الماضي؛ ولذا يعدّ زمن التدبّر قاعدة الوصول بين السّابق واللاحق أو أنّه البوتقة التي تنصهر فيها الأفكار تخطيطا بين متوقّع وغير متوقّع[36].

ولهذا ينبغي مراعاة الآتي:

. جمّع قواك لتتمكّن من صناعة المستقبل ونيل المأمول.

. تذكّر ما يمكن أن تتذكّره وتتحصّل عليه من الذَّاكرة وما يمكن أن تستقرأه من الغير حتى تتمكّن من معرفة المزيد الذي كنت تجهله غفلة.

. اتصل وتواصل وثق أنَّ الخبرة لا تستمد إلّا من خبير.

. تعرّف على الجديد المفيد والنَّافع، حتى تتيسّر لك الأمور تجاه ما يطوي الهوة بينك وبين المأمول.

. تطلّع إلى الآخر وعلومه وثقافته وحضارته دون أن يكون ذلك على حساب قيم مجتمعك الحميدة وفضائل دينك الخيّرة.

---

[36] عقيل حسين عقيل، الشّخصيَّة المتهيأة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م، ص 94 – 108.

. نافس فالمنافسة الشريفة تصنع الرُّموز وأهل القدوة الحسنة.

. نوّع مهاراتك ومعارفك، حتى تكون بين يديك أكثر من فرصة للنجاح والتفوّق.

. استوعب، تذّكر، اتصل، تعرّف، تطّلع، تفكّر؛ لكي تتسع دائرة الحدود، وتحدث النُّقلة بعد حُسن تدبّر[37].

ولسائل أن يسأل:

وما الفرق بين التدبُّر والتذكّر والتفكُّر؟

أقول:

الزَّمن أوَّلا؛ إذ لا تذكُّر إلَّا لماضٍ، ولا تدبُّر إلّا لحاضرٍ، ولا تفكّر إلّا لمستقبلٍ. ومع ذلك الكل يتم في الوقت الحاضر، فالذي يتذكَّر في حاضره ليس له إلَّا الالتفات إلى الورى، إلى ذلك الماضي قريبه أو بعيده، أمَّا الذي يتدبّر أمره حاضرًا ليس له إلَّا العمل، وفي المقال فإنَّ الذي يفكّر في الزَّمن الحاضر بغاية مستقبله فليس له إلَّا رسم السياسات والخطط والاستراتيجيَّات إذا أراد بلوغ حلٍّ أو صنع مستقبل وإحداث نُقلة.

الفكر تفكُّرًا:

التفكُّرُ مقدرة عقليَّة وكأنَّه حلقة وسط يربط الماضي بالحاضر والمستقبل، ولذا نجد التذكّر يتصل بالماضي وفقا لأحداث وقد حدثت؛

---

[37] عقيل حسين عقيل، مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م، ص 213 – 227.

وذلك بغاية الاتعاظ وأخذ العبر، وفي المقابل في الوقت الحاضر يتم التفكُّر في الزّمنين بغاية صُنع المستقبل المأمول ونيله.

ولذا يعد التفكُّر درجة من درجات الادراك العقلي للمراجعة بغاية المستقبل المأمول (استثارة العقل من الحاضر إلى الماضي بغاية التخطيط للمستقبل)

والتفكّر لا يكون إلّا في قضية أو موضوع أو مشكلة محيّرة، وهو من أعمال العقل وعمليَّات الذّهن، وهو يُمكّن من المعرفة والدِّراية (ملاحقة المعلومة أو الفكرة) وإدراكها أينما كانت بحثا أو تفكيرًا بهدف التخلّص من الحيرة المقلقة؛ فالتفكّر كونه يمكّن من إدراك الشيء قبل فوات أوانه، يعدّ حيويَّة العقل ونشاطه توجيها إراديّا، وهو لا يقتصر على التفكّر في المتوفّر من المعلومات أو المتوفّر بذاته للمشاهدة، بل يمتدّ في دائرة الممكن إلى معرفة المزيد المضاف والمبدع.

ولأنَّه التفكّر؛ فهو يلاحق كلّ ما يقع في الزَّمن، وغايته معرفة طبيعة المتعرّف عليه، والاستفادة منه حاضرًا ومستقبلا، أمّا غايته فهي: التجويد وإحداث النُّقلة وصُنع المستقبل، ونيل المأمول أو الفوز به.

ولهذا فالتفكّر تشغيل العقل وتوجيهه تفكيرًا فيما يجب أن يكون غاية وأملا، فإنْ كان المأمول مرتبطا بماضٍ فتشغيل العقل تفكّرا يقود إليه، مثل: أبونا آدم عليه السّلام الذي في زمانه أصبح يفكّر في العودة إلى تلك الجنّة التي افتقدها بعد أن أهبط به والأرض إلى الحياة الدُّنيا. أمّا بالنسبة لبنيه من بعده فالتفكّر يربطهم بالمستقبل المأمول، ولأجل ذلك وجب الاتعاظ حتى

لا يتمّ الإغفال عن التفكّر في المستقبل: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[38]، فإنْ تذكر بنو آدم تلك الآلام التي حدثت بعلل التفكير اتعظوا، ومن ثمّ ليس لهم بدّ إلّا التفكّر فيما يجب أن يصنع لهم مأمولًا ومستقبلا عظيما. أمّا التفكّر في المجرّد فدائمًا ينقل المفكّرين إلى ما يمكّنهم من المعرفة المضافة كما يمكّنهم من إحداث النُّقلة.

ويرتبط التفكّر بالمستقبل المأمول وهو يمثل الامتداد الطَّبيعي للحياة من ماضيها وحاضرها، وله أهميَّة كبرى في البناء المرتقب الذي يكون من ورائه امتدادات مختلفة تتّجه بحسب الاستراتيجيَّة التي وضعت له اللبنات الثَّانية، فالمستقبل يعدّ الأرضيَّة الجديدة التي يُؤسّس من خلالها كلّ ما هو مطلوب ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع؛ وبذلك يكون التفكّر عنصرا مهمّا في خلق مستقبل موافق لكلّ التوجهات التي تسعى إلى المضي قدما نحو التفاضل والوصول إلى الدّرجة التي تكون إخافتها حاصلة، ودون وجود مخيف يمكن أن يماثلها أو أن يكون ندّا لها.

ولا يكون التفكّر منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة للتأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في المستقبل؛ فالمستقبل لا يمكن بناؤه دون النّظر إلى امتداداته الحاصلة التي يكون الانطلاق منها حاصلًا في كلّ التوجهات، وتكون التوجهات المختلفة منتمية إلى جذور تمدّها بما يسمح لها بالسّعي إلى إيجاد حلول واضحة المعالم، فلا يكون هنا أيّ انكفاء، بل تكون الأمور عامّة

[38] الأعراف 176.

سائرة نحو تشابك منظم يكون من ورائه وجود تبعات تبحث لها عن رؤى تفاعليَّة تثري التفكّر وتمنحه أبعادا مختلفة ومهمة، وهنا يكون الايضاح سمة مطلوبة؛ كي يكون الاتساع المرافق ملبِّيًا للإدراكات الحاصلة، فتحصل بذلك شموليَّة مطلوبة تطرح التواصل الذي يكون من ورائه تحقّق التفكّر[39].

ولذا علينا أن نميّز بين مفهومي (يتفكَّرون، ويفكّرون)؛ قال تعالى: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ}[40]؛ قال يتفكّرون ولم يقل يفكّرون؛ ذلك لأنَّ قوله (يتفكّرون) يرسّخ بدون شكّ مفهوما واضحًا ودالًا على اسبقيّة خلق السّماوات والأرض وجودا خَلقيّا، ولأنَّها آياتٌ شاهدةٌ فهم في خلقها يتفكّرون، أي: يتفكّرون في كيفيَّة خلقها آيات معجزَات وسابقة على وجود العقل المدرك لها يقينا معجزًا؛ ذلك العقل الذي كلّما أدركها سلّم اعترافًا بالمستحيل الذي لا يكون إلَّا بيد الخالق الأعظم جلَّ جلاله.

أمَّا لو قال: (ويفكِّرون) فهنا يصبح الأمر متعلّقا بما يجب أن يكون، وليس بما هو كائن وهو المرسّخ بقوله (ويتفكّرون). أي إنَّ مفهوم القول (يفكّرون) يتضمّن في معناه التردّد وكأنَّ السّماوات والأرض ليست بشاهدة أمام المدركات الحسيَّة؛ ولذا فقوله يتفكّرون يستند على الحجّة الماثلة أمام المشاهدة والملاحظة، أمَّا القول يفكّرون يشير إلى أنَّ الحجّة قد لا تكون بين الأبصار أو أنَّها غائبة، ولهذا فهم في حاجة ولو لبرهة من الزّمن ليفكّروا في الأمر؛ ولذلك فالذين تفكّروا في خلق السماوات والأرض اعترفوا بالحقّ

[39] عقيل حسين عقيل، من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 89 . 96، 2018م.

[40] آل عمران 191.

المنزَّل حُجّة وبرهانا (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ). وقال تعالى: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ}[41] تتعلّق هذه الآية بقصّة الوليد بن المغيرة والد خالد بين الوليد (سيف الله المسلول) الذي لما سمع من القرآن ما سمعه من الرّسول استشعر في نفسه أنَّه الحقّ، ومع أنَّه قال: إنَّه الحقّ فإنَّ قومه ضغطوا عليه وعلى رأسهم أبو لهب، بأنْ ينكر اعترافه بالحقِ، أي إنَّه فكّر بين أمرين: الإيمان أو الكفر؛ ولذا فهو بين أمر الاعتراف بالحقِ، وبين ترضيّة قومه كفرا؛ ومن ثمَّ فقد كفر بالحقِ، أي إنَّه على الرُّغم من تفكيره استكبر على الحقِّ ومال إلى تقدير قومه، أي: بدل أن يُقدِّر كلام الله وقوله؛ قدّر القول الذي من دونه؛ ومن هنا فإنَّ التفكّر الذي يؤدِّي إلى عدم الاعتراف بالحقيقة وإنكار الحق لا يعد تبدّرٍ؛ ذلك أنَّ التفكُّرَ يعني:

. حُسن التفكير.

. حُسن الاختيار.

. حُسن القرار.

. حُسن الحكمة.

. حُسن الدِّراية.

. حُسن القول.

. حُسن الحُجَّة.

---

[41] المدثر 18.

. حُسن البرهان.

. حُسن الاستنارة.

. حُسن الدِّر اية.

. حُسن التخطيط.

. حُسن الفعل.

. حُسن العمل.

. حُسن السُّلوك.

وعليه:

مع أنَّ المستقبل لا يكون إلَّا في الزَّمن الآتي بعد كلِّ قول أو فعل أو عمل، فإنَّ صُنعه لا يكون إلَّا في الوقت الآن؛ ولذا فصُنَّاع النُّقلة من الوقت الآن إلى المستقبل يعملون ليلا نهارا من أجل تحقيقها عملا به تتغير الأحوال من مستوياتها الدُّنيا إلى المستويات المأمولة رفعة.

ومن هنا فصُنع المستقبل تَفكير وتخطيط وعمل مُضني بغاية إحداث النُّقلة إلى الأفضل والأجود مما عليه الإنسان في زمنه الحاضر إلى مستقبلٍ يأمله وهو الأرفع مما هو عليه من أحوال علميَّة وسياسيّة واقتصاديَّة ونفسيَّة وأخلاقيَّة، ولأنَّ نيل التقدير والاعتراف يحقّق النُّقلة النَّوعيّة، فهو الممكِّن من تجاوز المستويات القيميّة الثلاثة (الذَّاتيَّة والانسحابيّة والأنانيّة) والامتداد إلى المستوى القيمي التطلّعي والمستوى القيمي الموضوعي، اللذين يعتمد فيهما

الإنسان على المنطق والعقل حُجّة في الحوار، وحجّة في استقراء واستنباط الأمور المتعلّقة بالعلائق الاجتماعيَّة والاقتصاديّة والسياسيّة والنفسيَّة والذوقيّة والثقافيّة، كما يعتمد على التعليم والتعلّم استطلاعا لإحداث نُقلة عظيمة تغيّر الأحوال إلى أحوال مملوءة منفعة وطمأنينة مع وافر الرّضا.

ولهذا فالقاعدة هي:

ـ العمل على تحقيق النُّقلة.

والاستثناء هو:

ـ البقاء على حالة من التخلّف.

ولذا فحسن التفكُّر والاعتراف بما يُبذل من جهودٍ حسنٍ، يؤدِّي إلى تحقيق الطمأنينة النفسيَّة والرّضا النَّفسي ويغرس الثِّقة، التي تمدّ الإنسان بالمزيد من العطاء الموجب، وتمدّه بقوّة الالتزام الأخلاقي الذي يحسّس الآخرين بأهميّة العمل على رد الجميل أو الفضل بما هو أجمل وأفضل منه.

ولأنَّ التقدير قيمة رفيعة وكذلك الاعتراف قيمة رفيعة بين النَّاس الذين يميّزون بين ما يجب وما لا يجب، فإنّ نيل كلّ منهما مبدأ أخلاقي وإنساني، وهنا يقول فرنسيس فوكو يامَّا: إنَّ الرَّغبة في الاعتراف والتقدير المحركان للتاريخ هما الحلقة المفقودة بين الاقتصاد الليبرالي والسياسة الليبراليّة، وكذلك يؤكد هيجل كيف أنَّ رغبة الإنسان في سبيل نيل الاعتراف والتقدير قد زجت به في فجر التَّاريخ في معركة دمويَّة من أجل المنزلة والمكانة الرفيعة.

ولأنَّ حُسن التدبُّر وحُسن التفكُّر والتقدير والاعتراف تمكِّن من إحداث النُّقلة النَّوعيّة؛ لذا فإنّ النُّقلة تحقّق التميّز والمكانة الرّفيعة والمنزلة العالية عند من يبادلك الاعتراف، أو ينتظر أن تقدّمه له قيمة؛ فالعبد على سبيل المثال: في الوقت الذي يقبل فيه بالعبوديّة، يأمل أن يكون سيّده راضيا عنه؛ ولهذا يكدّ ويجدّ ويتحمّل التّعب من أجل شيء مهم جدًّا هو نيل التقدير والاعتراف من سيده، بأنَّه عبدٌ مخلصٌ ومطيعٌ ومهذبٌ؛ ولذا فهو لا ينبسط إلا بانبساط سيّده منه، وهكذا حال المتعلّمين الذين يتنافسون على أخذ الصّدارة والفوز بها، تراهم يبذلون الجهود المثمرة (المحقّقة للفوز) من أجل أن ينالوا الاعتراف والتقدير من والديهما، ومن ذوي العلاقة بهم، ومن محيطهم الاجتماعي والإنساني وإلّا لماذا يبدلون المزيد من الجهد، وأيضًا هكذا حال من يقول الحقّ، ويعدل إذا حُكّم، وحال من يعمل ويزرع ويصنع ويتصوّف أو يتعبد بموضوعيّة، أو يدخل المنافسات في المناشط المتعدّدة (الرِّياضيّة والفنيّة والثقافيّة والعلميَّة والجماليّة) فهؤلاء جميعهم يسعون لنيل الاعتراف والتقدير من الآخرين الذين هم في محيطهم البيئي؛ إذ لا نُقلة بدون اعتراف وتقدير لما يجب ولمن يجب.

أمَّا الذين يعانون من حالات انسحابيّة فأمرهم غير ذلك؛ فهم يحتاجون إلى دراسة حالاتهم وتحديد مستوياتهم القيمّية التي هم عليها، ثمّ إعادتهم لِما يجب، ثمّ بعد ذلك نقلهم إلى ما يُسهم في تحقيق المستقبل الأفضل والأجود الذي يحقّق لهم النُّقلة.

وعليه:

. كُن حسن التفكّر؛ لتكون أكثر استنارة.

. كُن حسن التفكّر؛ لتصبح أكثر دراية.

. كُن حَسن التدبُّر؛ لتعرف ما لك وما عليك.

. تجاوز بحسن تدبّرك الوقوف عند التنظير.

. استعد للعمل عن حُسن تدبُّر.

. تهيأ للعمل عن حُسن تفكّر.

. تأهَّب للعمل عن حُسن تفكير.

. أقدم على العمل والمأمول نصب عينيك.

. أقبل بتحدِّي الصّعاب فإنَّها لا تستطيع الصُّمود أمام المتحدين لها.

. كن إيجابيّا لتنل التقدير.

. كن متفهِّما لتحدث النُّقلة.

. اعترف بالآخرين يتمّ الاعتراف بك.

. قدّر الآخرين تنل التقدير منهم.

. ثق أنَّ الاعتراف يحقق قيمة التقبُّل.

. ثق أنَّ الجحود مفسدة.

. ثق أنَّ مبادلة قيمة الاعتراف تبادل قيمة التقدير.

. استوعب الغير يستوعبك.

. ثق أنَّك لن تحدث النُّقلة بدون جهود تعاضدك.

. ثق أنَّك قادر على كسر القيد فلا تتأخر عن كسره.

. تأكّد أنَّ القيد قد كُسر؛ حتى لا تقع في فخّه أكثر من مرّة.

. ثق أنَّ صُنع المستقبل لا يكون إلَّا في الوقت الحاضر.

. ثق أنَّ زمن الحيرة تدبُّرا لا يصمد أمام الصَّامدين فاصمد حتى وإن شعرت بضيق.

. ثق أنَّك بالاعتراف والتقدير تنال الاحترام وتُزال من أمامك المعوقات.

وعليه ينبغي على المسئولين أنْ لا يغفلوا عن:

. حُسن التدبُّر وفقا للإمكانات يُمكّن من إنجاز الأهداف.

. حُسن التفكّر يُمكّن من بلوغ الغايات ونيل المأمولًات.

. تفعيل منطق (النّحن) بين أفراد المجتمع وجماعات التعلّم والعمل والجماعات الممارسة للمناشط المتنوّعة، والجماعات الممارسة للسياسة والاقتصاد، والذين يشتركون في رسم الخطط والاستراتيجيَّات لمجتمعاتهم أو دولهم أو لوضع رؤية مع الغير.

. تمكين أفراد المجتمع من تكوين إحساس عام مشترك، مفاده أنَّهم مفردات أساسيّة في الدّولة، ولهم حقوق يجب أن تمارسها، وواجبات ينبغي

أن تؤدّى، ومسئوليّات ينبغي أن تُحمل؛ حتى يصبح منطق الجميع: (نحن معا) من أجل إحداث النُّقلة للجميع.

. التركيز على القيم الاجتماعيَّة التي تستوعب الأفراد والجماعات دون استثناء، مع تفطين الأفراد بأهميّة هذه القيم الاستيعابيَّة، وحثهم على احترامها وتقديرها والوقوف عندها والابتعاد عمّا يُبعدهم عنها؛ فهذا الأمر يجعلهم تحت مظلة الاحتضان الاجتماعي الذي يمدّهم بالدّفء والطمأنينة.

. حث أفراد المجتمع وجماعاته وفئاته على استيعاب بعضهم لبعض، وتقبُّلهم كما هم يُمكِّن من تكوين علائق قيميَّة ذات أبعاد أخلاقيّة وأبعاد إنسانيّة جليلة.

. ضع خطط وبرامج لتحقيق الألفة والمحبّة والموائمة الاجتماعيَّة والإنسانيَّة بين العاملين والمتعلمين، وبين أفراد الأسر والممارسين للمناشط المتعددة، وبين أصحاب الحضارات وأصحاب الأديان المتعدّدة، وبين أصحاب الحاجات المنقوصة والحاجات المشبعة؛ ذلك لأنَّ الرّب واحد والدّين واحد، والنُّقلة العظيمة لا تكون إلَّا بالجميع ومن أجل الجميع.

. دفع الأفراد تجاه الأفعال الاستيعابيَّة التي تُسهم في زيادة قوّتهم قوّة بغاية إحداث النُّقلة رفعة إنسانيَّة.

. المواءمة بين مطالب الأفراد وحاجاتهم، ومصادر الإشباع المتاحة في بيئتهم الاجتماعيَّة.

. التحريض على ممارسة أساليب الدّيمقراطيّة بما يحقّق المعاملة الحسنة بين الذين تربطهم علائق قيميَّة أو بين الذين تربطهم مصالح ومنافع مؤقّتة.

. غرس قيم الشفافيَّة واتباع أساليبها بين المتعلمين والممارسين لحقوقهم والمؤدّين لواجباتهم والحاملين لمسئوليَّاتهم.

. تفطين أفراد الأسرة من غفلتهم عن متطلّبات المراحل العمريَّة للأبناء وأثر المتغيرات التي تحيطهم في البيئة الاجتماعيَّة أو في القرية الصَّغيرة؛ حتى يتمّ الاستيعاب الموضعي وتقدير الحاجات المتطوّرة عبر الزَّمن، والعمل على إشباعها ونقلهم مما هم عليه إلى ما يجب أن يكونوا عليه نُقلة.

. دفع الأفراد للتعامل بأسلوب ديمقراطي مع بعضهم بعض، ومع الآخرين في كلّ ما يتعلّق بهم من أمر سواء أكان هذا الأمر علائق أسريّة، أم علائق جيرة، أم عمل، أم سياسة داخليَّة أو خارجيَّة، أم أمر سلم، أم حرب، أو أيّ أمر من أمورهم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة.

. تفطين المجتمعات والفئات الاجتماعيَّة إلى أهميّة الاستيعاب في تبادل المعارف والعلوم والمكاسب التي تنمو بالجهود المشتركة والتعاون والاستيعاب المتبادل.

. مشاركة الأفراد والجماعات في كلّ ما يتعلّق بهم من أمر دون إنابة عنهم في أمر من أمورهم التي يقدرون على القيام بها أو أدائها، ولا داعي للأحكام المسبقة التي تقول: (أنّهم لن يكونوا قادرين)؛ ولذا فلا إمكانيَّة لتحقيق النُّقلة ما لم يتمكن الجميع من المشاركة البناءة.

. التأكيد على أهميَّة ممارسة الدِّيمقراطيّة بشفافيّة، يزيل الشّكوك التي تظهر بين الحين والحين بين أفراد المجتمع أو جماعته، ويطوي الهوة بينهم إلى أن يجعلهم يدا واحدة في مغالبة الصّعاب وصُنع المستقبل المأمول نُقلة.

. التأكيد على أهميَّة الاستيعاب في تنمية رأس المال الاجتماعي وتحقيق الوحدة الوطنيّة رفعة.

. ترشيد الأفراد والجماعات على التمسّك بقيمة الاستيعاب؛ حتى يتمكّنوا من تحقيق مجتمع القوّة الممكن من إحداث التغيير وبلوغ النُّقلة علما ومعرفة ودراية.

. تفعيل المشاركة والتعاون بما يؤكّد أهميَّة كلّ فرد من أفراد المجتمع بالنسبة للآخر وحاجته إليه.

. التخطيط إلى كلّ ما من شأنه أن يؤدِّي إلى توزيع المسئوليّات حسب الاختصاصات والأدوار والصّلاحيّات قانونا ودستورا؛ لأجل تفعيل مبررات الاستيعاب المثمر.

. المشاركة في المؤتمرات العلميَّة والسّياسيّة والاقتصاديّة، للتعرّف على المتغيرات المستحدثة، التي تؤدّي إلى نتائج موجبة في العلائق الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، والإفادة منها في وضع البرامج وإعداد الخطط ورسم الاستراتيجيَّات التي تحقق النُّقلة ورفعة الشأن للفرد والجماعة والمجتمع، بل وللإنسانية جمعاء مع وافر المحبَّة.

. تشجيع أفراد المجتمع على إقامة صداقات خارج حدود الوطن من خلال شبكات المعلومات الدّوليّة؛ تحقيقا للتواصل مع الآخر واستيعابه بما يحقّق التقارب وتبادل المنافع المشتركة.

. ترسيخ لغة ومفهوم (النحن)، حتى لا تسري الشخصانيّة والأنانيّة في سلوك وأفعال بني الوطن؛ ذاك لأنَّ كلمتي (أنا) و(أنت) تسمح بمسافة امتداد فراغي لتجذب مشاعر الخوف إليها، ومن ثمَّ فكلّما زاد تمسُّك الأنا بأناته اندفع (الأنت) لإعادة حساباته، وهذه تزيد من الظّنون وتقلل من الثِّقة، التي ينبغي أن تسود بين بني الوطن؛ ولهذا وجب سيادة (أنا) الفرد ينبغي أن أسود بكرامتي، وأنا الحريّة ينبغي أن أعم النَّاس، وأنا الشفافيَّة ينبغي أن أكون في السُّلوك والفعل، وأنا الوطن يجب أن أكون خالصا لأهلي، وأنا الأبوَّة والأمومة والأخوة والأسرة والجيرة التي لا ينبغي أن يُحرم أحد من مشاعري وانتمائي، وأنا دين الله الذي كُرِّمت به الآدميّة، وأنا المنطق الذي يجب أن أسود بينكم حجّة إذا أردتم التفاهم والتواصل وتبادل الاحترام، وإذا أردتم الاعتراف والتقدير، وأنا النَّاس كلّ النَّاس الذين لهم حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسئوليَّات تُحمْل، وأنا كلمة حقّ لا بدّ أن أقال، وأنت الباطل لا بد أن تُزال، وأنت العبد يجب أن تتحرّر، وأنت الاستعمار يجب أن ترحل، وأنت القيد يجب أن تُفك بإرادة أو تُكسر بالقوّة، وأنا صاحب السُّلطة ومالك الثروة، وأنت الذي استولى عليهما بغير حقّ؛ فأرحل خير لك من أن ترّحل؛ ولذا فأنت لم تكن أنا فلماذا لا تفهم؟ وفي المقابل نحن معا نحدث النُّقلة.

من هنا تتَّضح قيم (النّحن) الاستيعابيّة، التي تُمكِّن الأفراد من حُسن التدبُّر والالتقاء على الحُجَّة والتفاهم والاحتكام، لا على التعصّب بلا حُجَّة ولا برهان.

وعليه:

. استوعب النَّاس يتم استيعابك.

. اعترف بحقوق النَّاس يتمّ الاعتراف بحقوقك.

. قدّر النَّاس تنل التقدير منهم.

. عامل النَّاس بشفافيَّة تُعامل بها.

. عامل النَّاس بمرونة يمدوك بالاحترام.

. اعتمد المنطق حُجّة حتى يصبح قاسم مشتركا.

. تفهَّم ظروف النَّاس يتم تفهّم ظروفك.

. التفت للنَّاس يلتفتون إليك، وفي المقابل إن أعطيتهم بظهرك فلن تجد إلّا ظهورهم في وجهك.

ولأنَّ التمسّك بالمنطق تمسّكٌ بالقواسم المشتركة؛ إذن فالتمسّك بالقواسم المشتركة (قاعدة)، والتخلّي عنها (استثناء).

ومن هنا ينبغي العمل على تفطين أفراد المجتمع إلى أهميّة حُسن التدبُّر والتمسّك بالقواسم المشتركة؛ حتى يتوحّد الجميع على منطق (نحن)، الذي لا يقبل التفرقة والتجزئة والإقصاء والتهميش.

ولهذا من أجل حُسن التدبُّر وإحداث النُّقلة ينبغي أن تتمركز قواعد المنطق على الآتي:

ـ الحُجَّة إقناع واقتناع.

ـ البرهان دليل إثبات موضوعي.

ـ التقريب القيمي بالقواسم المشتركة.

ـ الاستيعاب بإعطاء الهامش.

ـ التوافق تمركز على عناصر القوّة.

ـ التفرّق تمركز على عناصر الضّعف.

ـ التقبّل رضا إرادي.

ـ الاعتراف إقرار بالفضيلة.

ـ الاعتبار إعطاء مكانة للآخر.

ـ التقدير معياري النجاح.

ـ التواصل استمراريَّة علائقيّة.

ـ الشفافيّة وضوح في القول والفعل والعمل والسُّلوك.

ـ الأخذ بما يجب يمكّن من إحقاق الحقّ.

ـ إحقاق الحقّ يمكّن من إحداث النُّقلة.

ـ إحداث النُّقلة يمكن من بلوغ المأمول ونيله.

وعليه:

إنَّ حُسن التفكّر وتفعيل العلائق الاجتماعيَّة والإنسانيَّة يؤدِّيان إلى التطلُّع والقّوة والنّمو ويحدثان النُّقلة؛ أمّا إهمالهما فيؤدِّي إلى التراجع والانسحاب والضّعف الذي لا يؤدِّي إلّا إلى الخسارة والانهزام.

ولذا فالتمسّك بحجّة المنطق يستوجب سيادة التفهُّم بين أطراف الحوار الذي به يتم تقدير الظّروف الاجتماعيَّة والاقتصاديّة والسياسيّة والنفسيَّة والذوقيّة والثقافيّة، فهذه الظروف من طبيعتها لا تتساوى بين الأفراد؛ حيث الفروق الفرديَّة، والفروق في الإمكانات المتاحة.

ولأنَّ المنطق يستند على الحُجَّة والبرهان وفقا لمعطيات أو مسلّمات تتضمّن حقائق ودلائل وإثباتات موضوعيَّة؛ فإنَّ اعتماد المنطق والحُجَّة بين الأطراف المشتركة في وحدة الموضوع يُعد تمسكا بالقواسم المشتركة بين الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات التي ينبغي دفعها إلى صُنع المستقبل بنُقلة بها تتغير الأحوال إلى ما يفيد وينفع ويعظم المكانة ويرسخ السيادة الوطنيَّة.

الفكر تفكيرًا:

التفكير تعمّق فكري بغاية إيصال العقل إلى معرفة حقائق الأمور؛ ومن هناَّ فحُسن التفكير حساباته دقيقة وتتجه إلى التدقيق والتفحُّص في الصغائر والكبائر مع صعوبة الاختيار أحيانًا بين معاييرها، وكأن العقل يريد أنْ يفرز الدقيق من الدقيق وأن يزن الأدق بالأدق.

ولذا فالتفكير عمليَّة عقليَّة لتقصّى الظواهر أو المشكلات المحيّرة مع إصرار المفكّر على الخروج من الحيرة بنتيجة تجيب على التساؤلات أو الافتراضات قيد التفكير والاستقراء الذهني واستنباطاته.

والتفكير في الشّيء لا يكون إلّا بتمكّن العقل منه شيئا محيّرا؛ فيقرر العقل تحدّيه معرفة، حتى يدلل صعابه ويُليِّنه مرونة ومعرفة ذهنيَّة، ثمّ يهيئه وضوحا للخروج؛ ليكون بين الأيدي معرفة منتجة، أو إبداعا مضافًا.

فالتفكير إشغال العقل بعمليّة ذهنيّة تلفته إلى الموضوع تفحُّصًا وتتبّعا، والتفكير هو انشغال بما هو موجب، ولهذا لم يكن هو التخمين الذي فيه من التلاعب العقلي ما فيه (من السّالب ومن الموجب)، ممّا يجعل صاحبه لاعبا بالورقة التي يعتقد أنّها المربحة، ومن هنا يجد نفسه بين النَّاس بين مذموم ومشكور وكلّ حسب ما هيّأ نفسه له عقليًّا؛ فالتخمين مع أنّه من إعمال العقل فإنَّ نتائجه غير يقينيَّة؛ وذلك لامتلائها بالشكوك والظّنون؛ كونها لا تستند على الحجّة.

إذن: التفكير هو نشاط العقل في ذاته تفكيرًا، ولا وظيفة له إلّا أن يفكّر، وعندما يفكّر فيما يفكّر فيه يكون في حالة عمل مُلفت للمفكّر؛ ولذلك تعدّ الاستجابات المفاجئة بأسباب الاستفزاز المرعب هي استجابات عن غير وعي (عن غير تمعُّن) استجابات غير مسؤولة، لأنّها لم تكن نتاج انصهار المعرفة والأفكار في بوتقة الانتباه، ممّا يجعل الشوائب تتعلّق بها وهي تفتقد إلى الحقيقة، فالحقيقة نتاج التفكير هي التي يبلغها العقل عن وعي وانتباه سوأ أكانت نتيجة موجبة أم سالبة.

فالتفكير في الموضوع أو المشكلة قيد البحث، تفكير وعيٍ لأنّه وفقا لأهدافٍ محدّدة وفروض أو تساؤلات تمّ صوغها موضوعيًا؛ بغاية الوقوف على العلل والأسباب التي تكمن من ورائه، ممّا يجعل العقل المدبّر لأمره يفكّر في حلول أو معالجات، ولن يتوقّف عن التفكير حتى ينجز بحثه استقصاءً بنتائج قابلة للتفسير وتُخرِج من الحيرة.

والتفكير كونه عمليَّة عقليَّة ذهنيَّة غير قابل للمشاهدة والملاحظة، مع أنّه لا عمل قابل للمشاهدة والملاحظة إلّا وهو نتاج ما يبذله العقل من عمل تفكيري.

فالتفكير يُمكّن من معرفة الشيء قبل أن يصبح شيئا عند من لم يشغل عقله به تفكيرًا، ولأنَّ الشيء في دائرة الممكن هو نتاج التفكير الذّهني، فهو في زمن التفكير لم يكن شيئا على الصّورة المشاهدة، بل يكون على الهيئة، والهيئة هي ما يُمكن أن يكون عليه الشيء قبل أن يصبح شيئا مشاهدا وملاحظا؛ فالمفكّر متى ما تمكّن تفكيرًا من معرفة أو اكتشاف الهيئة التي

عليها المكتشف يستطيع من بعدها أن ينقل أو يُخرج تلك الهيئة التي تصورها وضوحا إلى حيّز المعرفة المشاهدة والملاحظة؛ ولهذا فلا هيئة في دائرة الممكن إلّا بالتفكير المعمّق الذي من خلاله يستطيع المفكّر أن ينتقل من حالة المشاهدة إلى حالة التفكير تجريدا، ومن ثمّ يستطيع تفكيرًا أن يضيف مشاهدا جديدا إلى ذلك المشاهد الذي حيّره حتى تخلّص من حيرته تفكيرًا.

إذن: بأسباب التفكير والغوص في مفاصل مواضيعه تتمّ المعرفة المضافة للمعارف السّابقة، ومن هنا:

. لِمَ لا نفكّر حتى نتمكّن من الإضافة؟

. لِمَ لا نفكّر؛ حتى نتمكّن من المعرفة الواعية؟

. لِمَ لا نفكّر بلا إشارة قف؛ حتى نعرف ما يكمن من ورائها؟

. لِمَ لا نفكّر في كلّ شيء بغاية تحسين أحوالنا التعليميَّة والصّحيَّة والبيئيَّة والذوقيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة والثقافيَّة والنفسيَّة والاجتماعيَّة؟

وعليه فإنَّ التفكير في الشيء يظهر المفكّر على حيثيته، ويمكّنه من كشف خفاياه، والتفكير ارتقاء هو بحث عقلي وتفحّص فيما يجب وما لا يجب، مع اختيار الوسائل المحقّق لفعل الارتقاء؛ فبنو آدم في دائرة التفكّر ارتقاء هم بين متوقّع وغير متوقّع، أي: أنّهم بين متوقّع الارتقاء ومتوقّع الدّونية، ومن جهة أخرى هم: يتبدّلون حيث لا ثوابت؛ فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه، ومنهم من نراه في دونيَّة، ولكن من

بعدها يبلغ القمم ارتقاء؛ ولذلك ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه قمّة.

ولأجل ذلك ينبغي أن نغوص في عقولنا تدبّرًا حتى نميّز بين تحديد الأهداف وإنجازها، وبين تحديد الأغراض وتحقيقها، وبين تحديد الغايات وبلوغها، وبين تحديد المأمولّات ونيلها؛ فالأهداف تحدّد تفكيرًا قبل أن تصاغ أهدافا قابلة للإنجاز، وهي في دائرة الممكن المتوقّع لا تنتهي إلّا بانتهاء من يعمل عليها، ولهذا فلا توقّف بعد إنجاز الأهداف، بل ينبغي ارتقاء أن يتمّ التفكير في أهداف أهم من التي أنجزت، ثم التفكير من بعدها في أهداف أعظم، وهذه من سُبل تحقيق الارتقاء غاية.

ولأنّها أهداف تحقيق الارتقاء؛ فلا تكون ذات أهميَّة إلّا ومن ورائها أغراض، ثمّ من وراء الأغراض غايات عظيمة، ولهذا لا ينبغي أن تكون الأهداف غاية في ذاتها، بل يجب أن تكون الغايات من ورائها رفعة.

إنَّ قاعدة التفكير في تحديد الأهداف مؤسّسة على التفكير في المنجز قبل أن ينجز، ثمّ التفكير في كيفيَّة إنجازه، أي: كلّ ما أنجز بنو آدم هدفا ينبغي أن يكون من ورائه هدف أهم، ثمّ من ورائه هدف أكثر أهميَّة، ووراء كلّ هدف غرض من ورائه غرض أعظم، وهكذا هي سُبل تحقيق الارتقاء غاية ومن ورائها غاية ومن وراء الغايات مأمولًا.

ولذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع، البعض يحدّد أهدفه، ولكنّه لا يفكّر في كيفيَّة إنجازها ولا يعمل على إنجازها وكأنّ تحديدها هو الغاية؛ وكذلك هناك من يحدّد أهدافه ويعمل على إنجازها دون أن تكون له أهداف

من بعدها، وهنا يكمن الفشل أمام تطوّر الحاجات وتنوّع مشبعاتها، ولهذا؛ فالأهداف ارتقاء: ينبغي أن يكون من ورائها غرض تكمن من ورائه غاية.

وكذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع هناك من يحدّد أهدافه بمعزل عن قدراته وإمكاناته المتاحة، ممّا يجعل الأهداف لا تزيد عن كونها قد كتبت على الورق، أو خبّأت في الصّدور، وهنا يقف حمار الشّيخ عند العقبة، حيث لا شيء ينجز، سوى الحديث عن تلك الأهداف المقبورة.

ومن ثمّ فمن يريد أن يبلغ الغايات العظيمة، وينال المأمول؛ فعليه أن يجعل أهدافه درجات سلّم (درجة أعلى من درجة) أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلّم، أهّب قدمه الأخرى إلى الدّرجة التي هي أعلى من التي وضع عليها قدمه الثَّانية؛ ولذا فلا ينبغي أن يغفل أحد من بني آدم ويضع قدميه معا على درجة من درجات السّلم حتى لا تنكسر بأيّ علّة ويجد نفسه قد وقع على الأرض الدُّنيا حطاما؛ فالقدمان لا يوضعان بسلام وصاحبهما مطمئن إلّا على قمّة استراحة السّلم الذي يرتق الأرض مع السّماء ارتقاء.

ومن ثمّ ينبغي على بني آدم عند رسم السِّياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشَّخصيَّة قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السَّعيد قيمة. ولكن إن لم يفكّروا ويعملوا ويفعلوا؛ فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرَّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار علّة.

ولذا فالحياة الدُّنيا لا غاية من ورائها إلّا رتق الأرض بالسّماء ارتقاء. أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلم ارتقاء وتحقّقت له الرّغبة المرضية قيمة وفضيلة، يجدّ نفسه أكثر تفكيرًا وأكثر رغبة تجاه الصّعود إلى الطوابق العليا حتى يرى بأمّ عينيه أنّ الأرض والسّماء قد رُتقتا جنّة.

فعلى بني آدم أن يعرفوا إنّهم سيبلغون السّماء ارتقاء كلّما فكّروا وتدبّروا ثمّ عملوا، ولكن إن أحسّ بعضهم بشيء من التّعب؛ فعليهم بإعادة التفكير في المحيّر وعليهم بوضع أيديهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء، وعليهم أن يتأكدوا أنّهم في حاجة لوضع أيدهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء.

ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة؛ فلا بدّ من سيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين بني آدم، تقبّلا، واحتراما، وتقديرا، واعتبارا، واستيعابا، وتفهّما، وتدبّرا، مع مراعاة البدء مع النَّاس من حيث هم، من أجل ما يجب أن يكونوا عليه ارتقاء.

فالارتقاء معمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة)، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة؛ فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيّا، وبين الهادمين له انحدارا؛ ذلك لأنَّ الخالق خلقنا على الاختلاف وسنظل عليه مختلفين حتى وإن فكّر من

فكّر في غير ذلك: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّة وَاحِدَة وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[42].

إنَّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين، ولذلك يجب على بني أدم أن يفكّروا بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدِّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصاما، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلا وارتقاء.

فمن أجل الارتقاء قمّة، ينبغي الابتعاد عمّا يؤدِّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة، والزَّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛ فيجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظروف ارتقاء، ومن يضيعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدِّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة؛ فالنّدم يؤدِّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي ارتقاء تذكّر؛ فاتعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر، عمل وأنتج، ومتى ما فكّر، حدّد أهدافًا من ورائها أغراض، والغاية من ورائها قمّة.

---

[42] هود 118، 119.

ولذلك وجب التفكّر والتدبّر بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين؛ فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بركب من يحدِّدون أهدافهم وأغراضهم وغاياتهم بأمل تحقيق الرّفعة والارتقاء قمّة.

وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم، وتوجيهها وفقا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة؛ فيخلّصهم من التسوّل إرادة وعملا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة؛ فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة.

فرجالات الدّولة ارتقاء هم من لا تأخذهم العصبيّة؛ ذلك لأنّ العصبيّة مقبرة الذين لا يعلمون؛ فرجالات الدّولة ارتقاء كلّما حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كبروا تواضعوا، أمّا المدّعون لذلك؛ فهم مع كلّ هبة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وعلّة الدّولة.

فالدّولة ارتقاء تستهدف رجالات بعينهم وفقا لما هم عليه من مكانة، ومع ذلك تخضعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك هم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن القيم والفضائل الخيّرة، بهدف إعادتهم إليها ارتقاء.

ومن ثمّ فمن يرى نفسه رجل دولة؛ فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنون هم يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو: التفكير في كلّ شيء يدفع ويحفّز على الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدِّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعية، أو الوطنية، أو الإنسانيَّة، أو يمسّ معتقدا دينيا.

ولكن من بني آدم من يجهل ويغفل؛ فلا يفكّر فيما يجب؛ فيقع في فخّ مصيدة الغاوين والمزيّنين والمضللين التي تزداد ضيقا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنَّ للألم أوجاعا، وللتأزّم أوجاع، ولكن أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك، وجب أخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمَّا الحقد بين بني آدم؛ فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي إنَّ نار الحقد تحرق أوَّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)؛ ولذلك فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه، والحاقد في حقيقة أمره هو في حاجة لمن يطفئ عنه النَّار التي بها نفسه تحترق؛ ومن ثمّ فمن يعتقد أنّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها؛ فلا شكّ أنّ عضّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا فإنَّ الجهل والحقد والظّلم والعدوان والكيد والمكر عندما تشتعل نيرانها بين بني آدم؛ فلا سبيل لهم إلّا التخلّف، والانحدار، والسُفليَّة المؤلمة، وفي المقابل الشّعوب ترتقي علما ومعرفة وتسامحا وخبرة وتجربة؛ فتغزوا الأرض سلاما، والسّماء بحثا وارتقاء.

فبنو آدم الذين بلا أمل لا يعدّون إلّا أمواتا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله؛ فسيبقون على أملهم وكأنّهم بلا آمل، أمّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل؛ فلا شكّ أنّه سيُسهم في إحداث النُّقلة ارتقاء، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنَّ الهدم سيقع على رأسه وكأنَّه بلا رأس.

وهكذا هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس؛ ولذلك فلا ينبغي أن يكون بنو آدم سمّاعيون فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظا، وعليهم بالتدبّر تحليلا وتفسيرا وتخطيطا وسلوكا وعملا، وعليهم بالتّفكّر من أجل ما يجب، حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسؤوليّات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فارتقاء بني آدم مؤسّس على ما أخبرهم وأنبأهم به أبوهم آدم، ومن بُعث من بعده من الأنبياء والرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا فهم يفكّرون والأمل لا يفارقهم بغاية العيش في ذلك النّعيم المنبئ عنه، ولأجل

ذلك فمن آمن منهم يسعى ويعمل من أجله ارتقاء، ومن لم يؤمن ستظل فُرصه على قائمة الانتظار ما بقي حيّا.

فبنو آدم من أجل تلك الجنّة التي وُصفت بما وُصفت به من عظمة، يصلّون لله من أجل بلوغها، ويصومون ويزكّون ويتصدّقون ويحجّون ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجل بلوغها؛ ولذلك هم يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغها، ويتعلّمون ويعملون من أجل بلوغها، ومع ذلك؛ فهم في حاجة للمزيد المعرفي الممكّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير وسيلة لذلك، المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعا وتمدّدا.

وهنا أقول لبعض علماء الفيزياء وعلماء الفلك: ما قد تمّ اكتشافه عن الكون من قبلكم؛ فقد أخبرنا به القرآن الكريم الذي أنزل قبل أن يفكّر أحد في غزو الفضاء، وقبل أن يتمّ اكتشاف أسرار من الكون؛ ولذا فَلِمَ لا تفكّرون موضوعيَّة وتتوقّفون عند الكتاب لتتبيّنوا قوله لعلكم ترشدون إلى المزيد من التفكير الممكّن من المزيد من الاكتشاف العلمي، وإلى ما يُمكّن من الارتقاء من أجل بني آدم (النَّاس جميعًا)؛ ولذا فإن كنتم أهل موضوعيَّة؛ فلا يليق أن تتجاهلوا كتابا يملأه العلم والبيّنة؛ فأنا لا أقول لكم ادخلوا الإسلام، ولكن أقول: أنتم أهل علم، وها هو مصدر ثمين يملأه العلم آية من بعدها آية ترشد للخير وللمحبّة.

ولهذا فلا ارتقاء لبني آدم إلّا والبحث العلمي مصدره، والفضائل الخيّرة مصدره، والقيم الحميدة مصدره، ومن يغفل عن ذلك ليس له من خيار إلّا الانحدار على بلاطة الدُّنيا.

ومن ثمّ فالارتقاء بالنّسبة لبني آدم هو: أمل قابل لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين العُليا والدُّنيا؛ فالعُليا هي السّماء وما فيها من نعيم الجنّة وبقاء الحياة، أمّا الدُّنيا؛ فهي: الأرض وما عليها من مخلوقات وزوال الحياة. وبين هذا وذاك، وجد الإنسان نفسه تفكيرًا بين التّخيير تارة، وبين التّسيير تارة أخرى؛ فالتّخيير: (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحا أو تعمل طالحا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمَّا التّسيير فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا فالارتقاء قمّة، هو: ما يمكّن بني آدم من العيش الرّغد في الحياة الدُّنيا (الزائلة) وما يمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العليا (الباقية)؛ فبنو آدم لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة، ومن هنا فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاء.

فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة؛ فالله خلق أبانا آدم في النّعيم ليعيش وبنيه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة)؛

حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعة وارتقاء.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدُّنيا، التي تتطلّب تفكيرًا واعيا كما تتطلّب من بعده عملًا مبدعًا ومنتجًا بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية) والفوز بها نعيم مأمولًا.

لذا يجب التفكير في كلّ شيء ولا شيء، ولا سقف ولا موانع توضع أمام الفكر الإنساني، ثمّ يجب بعد ذلك الإقدام على العمل المشبع للحاجات المتطوّرة بلا حدود؛ ذلك لأنَّ الحدود عوائق أمام التقدّم تجاه بلوغ الأفضل والأعظم؛ ولهذا فلا ينبغي أن يرتضي بنو آدم بالفقر؛ فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ فلو عمل بنو آدم جميعهم، لما وجد الفقر مكان له على الأرض، ولأنّهم لا يعملون جميعًا؛ فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

ولذلك فالغناء رحمة؛ والفقر أزمة ومواجع، ولأنّهما كذلك، وجب على الأغنياء العمل إلى جانب ما يعملون ويجنون من مكاسب من أجل إزالة الألم عن الفقراء وتحويلهم إلى ميادين العمل المنتج ارتقاء.

فالغنى ارتقاء حقّ لا يكون إلّا نتاج العمل المرضي، أمّا الفقر ليس بحقّ، بل الفقر أوجدته أسباب وعلل ينبغي أن تزال، أمّا العجزة والقصّر؛

فحقوق عيشهم المرضي على كواهل العاملين من ذويهم، ولكن إن كان ذووهم يعيشون اتكالا على الغير؛ فالعيب لا شكّ أنّه سيلاحقهم ومن ورائهم سيلاحق المسؤولين في الدّولة.

إذن فالارتقاء لا يمكن أن يكون على حساب الغير، بل يكون بجهودهم المشتركة؛ حيث لا إقصاء ولا تغييب لأحد عن ممارسة حقوقه، أو أداء واجباته، أو حمْل مسؤوليَّاته. وفي المقابل يحدث الانحدار والنّزول سُفليَّة لمن يتخلّى عمّا يجب التمسّك به حقّا وواجبا ومسؤوليَّة.

ولذلك ينبغي أن يعمل الجميع بهدف الاستغناء والحياة الرّاقية، وكلّما بلغ الجميع مستوى من العيش الرّفيع الرّغد يجب أن يفكّروا فيما هو أرفع وأرغد منه حتى تُرتق الأرض والسّماء بالعمل ارتقاء[43].

العقلُ فكرًا واستنارة:

الاستنارة استجلاء الاستظلام وبقاء النُّور مرشدًا، لمن شاء الاهتداء بنوره، حتى تزاح العتمة التي تحول بين النوُّر ونفاذه لمن هم في حاجة إليه استرشادًا؛ ومن ثمَّ فالاستنارة أخذٌ مِن نُورٍ.

ومع أنَّ الاستنارة استمداد النُّور من مصادر نوره، فإنَّها لا تكون إلَّا عن علمٍ أو دراية، ومع ذلك العلم ليس بالدِّراية؛ فالعلم لا يكون إلَّا من عليمٍ أو عالمٍ، أمَّا الدِّراية فلا تكون إلَّا من مُدرٍ مستنير.

[43] عقيل حسين عقيل، الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الخوف استطلاع مستقبل من التذكّر إلى التفكُّر)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م، ص 136 – 168.

وعليه فإنَّ الفارق كبير بين مفهوم الاستنارة، التي لا تكون إلَّا عن استجلاءٌ بيّنة ورؤية؛ حيث لا استظلام، وبين مفهوم الإنارة التي لا تكون إلَّا في وسط ظلمة.

ولأنَّ الاستنارةُ لا تكون إلَّا عن وعيٍ ودرايةٍ؛ فهي ترشد إلى ما يجب اتباعه، وترشد أيضًا إلى ما لا يجب اتباعه؛ ومن هنا فالواعون لا يقدمون على مخالفة منظومة القيم التزمًا بقيدها خُلقًا، وفي المقابل عقول غيرهم ممن هم دونهم قيمًا لا تخشى قيد القيم، بل تقدم على كسره دون أن تنتظر وقتًا؛ ومن ثمَّ فلا استنارة.

وعليه:

استنارةُ العقل مع أنَّها لا تكون إلَّا عن وعيٍ ودرايةٍ وترشد لما يجب اتباعه، فإنَّها ترشد أيضًا إلى ما لا يجب اتباعه بوضعها علامة: (قف) قيدًا دونه؛ ومن هنا فالواعون لا يقدمون على مخالفة منظومة القيم التزمًا بقيدها خُلقًا، وفي المقابل عقول غيرهم ممن هم دونهم قيمًا لا تخشى قيد القيم، بل تقدم على كسره دون أن تنتظر وقتًا.

فعندما تظل الشُّعوب منتظرة لاستيعاب الثّقافة بغاية كسر قيدها، فإنّها ستكون في حاجة لمزيدٍ من الوقت؛ وفي المقابل عندما تعي الشُّعوب الحقيقة تُصبحُ قادرة على تجاوز الواقع وإحداث النُّقلة؛ ومن ثمَّ فزمن الانتظار لن يجد مكانًا له ليحل فيه أمام الدّراية التي بتجاوزها لزمن الأميَّة تتجاوز زمن الثّقافة والوعي؛ فالدّراية تجاوز معرفي لكلِّ ما من شأنّه أو يوصف

جهلًا، أو أميَّة، أو علمًا، أو فكرًا وثقافةً وهي التي تحدثُ النُّقلة من معرفة الممكن إلى معرفة المعجز والمستحيل.

ومع أنَّ الثَّقافة استنارة عقلٍ، فإنَّها أمام العقل قيدٌ على ما ينبغي اختياره والإقدام عليه، وما لا ينبغي اختياره والإحجام عنه؛ ومن هنا فعندما تغيب الدّراية يصبح زمن الانتظار معطية من معطيات الأميَّة التي لا تملّ من الانتظار وإن طال زمنه، ولهذا فالزّمن قادرٌ على قيد الأميّة وتجاوزها وعيًا، أمَّا الأميَّة فلا إمكانيّة لها بذلك؛ ذلك لأنَّ أهل الأميّة غير قادرين على إحداث النُّقلة وصُنع المستقبل أملًا ومأمولًا.

ولأنَّ الوعي استنارة لا يقيده الزّمن فهو العقل ولا قيد عليه، وفيه يتساوى الأمي معرفة مع من يدري ويتدبَّرَ؛ أي: يتساوى الأمي فيه مع من تعلّم وتثقَّف ودرى؛ قال تعالى: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}[44]، في هذه الآية الكريمة ارتبطت الأذن مع الوعي ولم تستقلّ عنه، وهنا فهي الأذن المميّزة لما تسمعه أو تنصت إليه؛ إنَّها المميزة بين المسموع معرفةً والمتجاوزة له؛ كونها الأذن الواعية التي لا تأخذ بالمسموع إلَّا دراية.

ولأنَّ الوعي يُمكّن من معرفة الحقيقة المراد البحث عنها، فإنَّه المؤدّي إلى الفطنة الممكِّنة من التمييز واتخاذ القرار المناسب حتى وإن كان صاحبهُ أميًّا، فالحقيقة كما يلمّ بها الأمي ويعرفها يلمّ بها كلًّا من المتعلّم والمثقّف ويعرفانها، وبخاصّة في الزّمن الذي لا شيء فيه يُخفى؛ إذ كلّ شيء على البلاطة.

---

[44] الحاقة: 12.

والوعي لا يقتصر على المتعلّمين والمثقّفين، بل الأميون لهم من الفطنة ما لهم؛ ذلك لأنَّ الوعي والفطنة لا يقتصران على من تَعلّم، فمع أنَّ المتعلمين تحصَّلوا على رخص قيادة (شهادات ومؤهلات جامعيّة وعليا) فإنَّ بعضهم لا يستطع أن يقود وسط الازدحام.

ولهذا فالوعي ليس دائمًا مولود تعليمٍ، فمن المتعلّمين مَنْ لا ثقافة لهم ولا وعي ولا دراية، وفي المقابل من الأميين ما لهم من الحكمة والمعرفة ما لهم، ومع أنَّ كيفيَّة البحث والتقصي عن الحقيقة في المدارس والجامعات منهجيًّا تُعلّم، فإنَّ الحقيقة عبر التَّاريخ تروى وتسمعها أذنٌ واعية.

ومع أنَّ الأذن الواعية تسمع فتتعظ وتتدبّر، فإنَّ الأذن غير الواعية وإن سمعت فإنَّها لا تتعظ ولا تتدبّر؛ ولهذا جاء قوله تعالى {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}، ففي هذه الآية الكريمة جاء الوعي مرتبطًا بالسّمع ولم يأتِ مرتبطًا بالأذن السَّامعة؛ إذ جاء ارتباط الأمر بالسّمع وليس بالأذن؛ ذلك لأنَّ الوعي مقدرة على التمييز بين ما يجب وما لا يجب أخذًا وانتهاءً.

ومع أنَّ الأذن في دائرة الممكن تسمع ما يقال أو تستمع إليه، فإنَّ الأذن الواعية لا تأخذ بكل ما تسمعه، فهي وإن سمعت قادرة على الغربلة والتفحّص والتمييز؛ ولذا فبمعرفة الحقيقة يستوي وعي الأمّي مع وعي من تعلَّم وتثقّف ودرى؛ ومَن غفل منهم بأيّ علّة فقد استوى في غفلةٍ مع غيره؛ ومن هنا فالعقل قيد أمّيّة ودراية.

فالعقلُ دراية هو تلك الحيويّة المستنيرة وعيًا، وهو الذي يعلم بالشيء بعد أن كان لا شيء ومجهولًا، كما أنَّه يعلم الحكمة التي تُخفي من ورائها سرًّا.

والعقل دراية ليس ذلك العقل الممنهج برؤية تعليميَّة وثقافيَّة، بل هو ذلك العقل المتجاوز لدائرة الممكن تحدٍّ وخوارق، إنَّه العقل الممكَّن من دخول دائرة المعجز؛ ومن هنا فالأنبياء والذين يلمون بالمنزّل ويؤمنون به هم أصحاب العقول الدَّارية.

تطوّر الفِكَر جدلًا وحُجَّة:

مع أنَّ الإنسان خُلق من طين، فإنَّه خُلق معدًّا للتفكير؛ فكانت الفكرة نتاج عقله ومن إعماله، وأوَّل فكرة كانت هي من عقل أوَّل من خُلق في أحسن تقويم، (آدم) ثمّ تعدّدت الفِكَر بتعدّد البشريَّة وبتعدّد ما تفكّر فيه، ولهذا أصبحت فكرًا بعد أن كانت فكرة. أي في هذا المسار الأمر يتعلّق بالفكرة التي أصبحت بتكاثرها فكرًا، ولكن هذا لا يعني أنَّ الأمر لا يتعلّق بالفِكْرِ الذي هو مكمن التفكير؛ فالفِكْرُ من معطيات العقل، وفي المقابل الفكرة لا تكون إلَّا من التفكير وإنتاج العقل، وفيما يُفكَّر فيه؛ ولذلك يؤسّس التطوّر على قاعدتين:

الأولى: تطوير الفِكْرِ بما يمكّن الإنسان من التفكير، وهو يُفكّر فيما يُفكّر فيه قبل أن يتّخذ القرار تجاه ما فكّر فيه بداية حتى يُحسم الأمر تطوّرًا.

الثَّانية: تطوير الفكرة بفكرة أكثر ارتقاءً، حتى تتولّد الرّؤى المتجاوزة للمألوف والمعتاد التفكير فيه.

وعلى هاتين القاعدتين تطوّرت رؤى البشريَّة وهي على التخيير بين اختلاف وخلاف، ولا حاسم للأمر إلَّا المحاجّة والمجادلة، أي لا حاسم للأمر إلَّا الالتقاء الذي فيه تُدحض الحُجَّة بالحُجَّة، وحتى إن امتلأت الحجج والجدل شدّة، فإنَّ الشدّة الجدليَّة ضرورة؛ فهي لا تكون إلَّا من أجل الحرص، وهي كذلك لا تكون إلَّا بغرض التسوية لما سلف من انحدار وسفليَّة، وهي بغاية الارتقاء عن كلّ ما يؤدّي للفرقة والخصام؛ ولهذا فمن أجل التطوّر والارتقاء لا يجادلك إلَّا من هو حريص عليك، ويأمل أن لا تظل تائهًا عن ممارسة وتأدية ما يجب أن يكون من أجلك وأجل من تربطك به علاقات.

إنَّ أصحاب الحُجج تطوّرًا يسعون إلى أحدًاث النُّقلة، والارتقاء بالنَّاس إلى ما يجعلهم قمّة، وفي المقابل من يخالفهم بغير حُجَّة يشذّ إلى الخلف إعاقة، وبين هذا وذاك فلا استقرار، ولا أمن، ولا ارتقاء ولا تطوّر لأحد ما لم يؤخذ بالحُجَّة ارتقاءً واستيعابًا، ولا استثناء لأحد بأيّة علّة، إلَّا إذا كان أحدٌ علّة في ذاته، ولا استغراب من هذا الأمر؛ حيث لكلّ قاعدة شواذ، ومع ذلك فإنَّ الحُجَّة الجدباء لا تصمد أمام الحُجَّة الحلّ التي تعلو بأصحابها تطوّرًا وارتقاءً إلى ما يمكّن من المعرفة، التي بها سترتق الأرض والسّماوات كما كانت أوَّل مرّة.

ولأنَّها المجادلة تطوّر وارتقاء؛ فهي لا تكون إلَّا بالتي هي أحسن: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[45]؛ أي لا ينبغي أن تكون المجادلة بالتي هي أسوء؛ فالأسوء لا يقود إلَّا للخلاف والصِّدام والاقتتال، ومن هنا يلد الألم ألما.

وحتى لا يسود الألم بين النَّاس، ينبغي الأخذ بمبدأ المجادلة حرصًا وتطوّرًا وارتقاءً، ويجب أن تبدأ المجادلة مع المختلفين من حيث هم عليه اختلافًا، لا من حيث ما يجب أن يكونوا عليه اتفاقًا؛ فما ينبغي أن يكونوا عليه اتفاقًا هو المأمول الذي من أجله تجري المجادلة بالتي هي أحسن، أمَّا المجادلة غِلظة؛ فلا تكون إلَّا مع من يستغلظ على الحقّ بغير حقّ، وهنا يصبح المستثنى من جنس المستثنى منه (غلظة بغلظة)؛ ومع ذلك فللعفو والصّفح مكانة لا يبلغها إلَّا من تدبّر أمره بحكمة.

ولأنَّ الجدل بالتي هي أحسن وسيلة للارتقاء؛ فينبغي أن تكون أساليبه على الترغيب والتشويق والنّهي والرّهبة والتحذير والإنذار مع مراعاة الفروق الفرديَّة بين المجادلين ارتقاءً؛ ففي الجدل الرّسائل تُرسل بين المجادلين لكلٍّ حسب ما هو عليه من معرفةٍ، وثقافةٍ ومعتقدٍ، ومنّطقٍ، مع عدم الإغفال عن أهميَّة الحكمة في إدارة الجدل؛ فالإنسان مع أنَّه خُلق من نطفة، فإنَّه خصيم؛ ولهذا فهو مجادل؛ ولذا فكلّما جادل بالتي هي أحسن، كسب قلوب النَّاس، وفي المقابل متى ما استغلظ عليهم استغلظت قلوبهم عليه.

[45] العنكبوت 46.

ولأنَّ الجدل بالتي هي أحسن جدل حُجَّة؛ فينبغي أن يكون على اللين مع تبيان الدّليل والبرهان شاهدًا بين أيدي المتخالفين، ولنا في إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام القدوة الحسنة حينما جادل أباه آزر وهو يخاطبه بقوله: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شيئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطا سويًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}[46]؛ فقوله وهو يجادله رأفة وودًّا: (يَا أَبَتِ) وهو يكرّرها مرَّات (يَا أَبَتِ)، هي: بهدف صحوة أبيه آزر من الغفلة التي ألمت به، والجهل الذي استحوذ على عقله، وبخاصّة أنَّ إبراهم لم يخفي علمه وحرصه ومحبَّته له؛ ولذلك كان ارتقاء إبراهيم مؤسَّسًا على عدم الإكراه؛ فالإكراه لا يزيد عن كونه حُجَّة من ليس له حُجَّة: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جميعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[47].

ولأنَّه الجدل ارتقاءً؛ فهو لا يكون إلَّا عن صبر، وسعة صدر، بهدف استيعاب المختلفين، وأخذ الحَجَرِ من أيديهم التي به امتلأت؛ ولذا ينبغي أن يمتلك المجادل المقدرة على استجلاب الدَّلائل والبراهين لإثبات قضيَّته، وفكّ القيد عنها، مع فكّ اللبس والغموض عمّا يستخدمه من مفاهيم؛ وفي هذا الشأن أتذكّر تلك المجادلة التي جرت بين النَّبيّ إبراهيم ومن حاجّه في ربّه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

---

[46] مريم 42 . 45.

[47] يونس 99.

رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}[48]؛ فاللبس في ذهن من جادل إبراهيم في ربّه كان متعلّقًا بمفهوم الإحياء والإماتة؛ فإبراهيم قال: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) وفي المقابل كان قول المجادل له: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ). واللبس هو أنَّ إبراهيم يجال بحُجَّة من يحيي ويميت، وفي المقابل فهم المجادل أنَّ الإماتة هي القتل، ولهذا أجابه بقوله: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) أي وكأنّه يقول: إذا أردت أن أقتل أحدًا قتله، وإذا أردت عدم قتله تركته حيًّا. ولكنّ الفرق كبير بين القتل الذي يكون على أيدي المتقاتلين أو القتلة، وبين الموت الذي لا يكون إلّا بيد الله.

ومن ثمّ فالحُجَّة يمكن أن تكون مُعجزة تفحم المجادل بغير حُجَّة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}[49]، وفي المقابل يمكن أن تكون حلًّا، ويمكن أن تكون موعظة، ويمكن أن تكون عبرة، ويمكن أن تكون دليلًا ملاحظًا أو مشاهدًا (قولًا وعملًا وفعلًا وسُلوكًا)، قال تعالى: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}[50].

وعليه: فالجدل تطوّرًا هو ما ليس بتفاوض؛ بل هو التوجُّه للنّاس بالحُجَّة تطوّرًا وارتقاءً، وهي الحُجَّة التي لا تقبل التنازلات؛ ذلك لأنَّ الحُجَّة ينبغي أن يؤخذ بها، أمَّا التفاوض فلا ينتهي إلّا بتقديم التنازل الذي من وراءه تنازلات.

---

[48] البقرة 250.

[49] البقرة 158.

[50] يوسف 26.

ولذلك فالمجادلة تطوّرًا وارتقاءً فيها مكابدة وعُسرة، وهي في معظم الأحيان تستدعي تقديم المزيد من الحُجج الدّامغة التي لا تستفز أحدًا، وبتقديم المزيد من الحجج ينبغي أن ينبهر الخصم بما يجذبه إلى الحقّ حُجَّة بعد حُجَّة.

ولذا فالصّبر حُجَّة المتجادلين؛ فعليهم به دون استرخاء، ولا داعي للقلق حتى وإن كانت الاستفزازات من ورائه، بل كلّما طال زمن التجادل والصّبر لم يفارق المتجادلين حُجَّة بحُجَّة كلّما اختنقت أنفاس من لا حُجَّة له.

ومن ثمّ ففي المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، أمَّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الرّكون إلى المحاجّة المنطقيَّة، قد يضطروا إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلَّا الخلاف والفرقة؛ ومن هنا يصبح كلّ شيء ممكن سواء أكان متوقَّعا أم غير متوقَّع.

ولذا فعندما تغيّب الحُجَّة بين المتجادلين ارتقاءً، يصبح المجال بينهم مفسوحًا للخصام والاقتتال؛ ومن ثمّ فالجدل وما فيه من شدّة هو منطق السَّلام، الذي إن لم يؤخذ به، قد تصبح مصارف الدّم بين النَّاس في حاجة للمزيد.

وعليه: فإنَّ المحاجّة تطوّرًا وارتقاءً ليست نقاشًا بلا دراية، ولا مفاوضات بلا خبرة ولا مهارة، بل المحاجّة تحاور يتكئ على حُجج بيّنة

بغرض تنقية الشّوائب التي نُسجت بين المتخالفين أو المختلفين، الذين يميلون عن صائبة المطّلب والقول بعلل فيها علّة.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاءً قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل قصور مشبعاتها؛ ممّا يدعوه إلى قبول التكيُّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء مقوّمًا، فإنَّه لم يُخلق نسخة واحدة وكأنَّه أوراق سحب، بل لكلٍّ خصوصيَّته التي بها يتميّز عن غيره كما غيره يتميّز عنه؛ فالنَّاس مختلفون ولكلّ بصمته الخاصّة التي لا تتكرّر: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّة وَاحِدَة وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[51]؛ فما أعظم هذه الآية (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي مع أنَّهم من نفس واحدة فإنَّهم لا يتطابقون، وإن تماثلوا صفة؛ فهم مختلفون بصمة ومقدرة وتذكُّرًا وتدبُّرا وتفكرًا؛ ولهذا فهم يختلفون، وسيظلون مختلفين (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي إنَّهم خُلقوا على الاختلاف الذي جعلهم في حاجة لحشد الطّاقات؛ حيث لا إمكانيَّة للتطوّر والبقاء بغير الاختلاف.

ولأنَّهم خلقوا على الاختلاف؛ فهم في حاجة لِما يجمع شملهم متى ما اختلفوا، أو تخالفوا؛ فالمحاجّة والجدل جهود تُبذل لإظهار الحقّيقة التي لا تكون إلَّا بامتلاك السّند الذي يَحتكم به ويُحتكم إليه، ومع ذلك تختلف المجادلة عن المحاجة من حيث كون المجادلة تتمركز على التمسّك بالحُجَّة دون

---

[51] هود 118، 119.

تفريط ولا يأس ولا قنوط، أمَّا المحاجّة فالأمر يقتصر على تقديم الحُجَّة لتكون شاهدة على القضيَّة، ولمن شاء أن يحكم بها عدلًا فليحكم[52].

العقل بين المتعرّف عليه والمجهول:

المتعرّف عليه هو: كلّ ما تمّت معرفته وإدراكه بداية ونهاية، وفي المقابل العقل (المتعرّف به) على ذلك الموضوع (المتعرّف عليه) لن يستفيد جديدًا كون الموضوع لا يضيف له شيئًا؛ ولهذا فإعادة التعرّف لا تضيف للعقل جديدًا وإن أسهمت في تثبيت المعلومة.

أمَّا المجهول فالعقل عندما يتمكّن من البحث والتقصّي العلمي يُمكِنه التعرّف على الجديد بالمتعرّف به (العقل) في حدود القدرات والاستعدادات كبداية ونهاية إدراكيَّة، والمجهول هو الذي لم يُكتشف بعد حتى يعد معرفة علميَّة، ولهذا يعد غير المتعرّف عليه بالنّسبة إلى المدركات العقليَّة مجهولًا إلى حين، وعندما يتمّ التعرّف على غير المتعرّف عليه، يكتسب العقل معرفة جديدة تضاف لمعارف الإنسان السّابقة معرفة ودراية.

ومن هنا فكلّ معلومة لم يتمّ التعرّف عليها بعد وهي في دائرة الممكن، فلا استحالة بينها والتعرّف العقلي، وهذا الأمر يجعل المتعرّف عليه (الموضوع) تحت قبضة المتعرّف به (العقل) إلى النِّهاية، ومن ثمّ فكلّ معلومة يعجز الإنسان عن معرفتها تندرج تحت غطاء (غير المتعرّف عليه)؛ وذلك لقصور العقل عن إدراكها والوقوف عند نهايتها، وهكذا فكلّ شيء عرفناه

[5252] عقيل حسين عقيل، من الفِكَر إلى الفِكْر، المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة: 2020م، ص 7 – 46.

يكون هو (المتعرّف عليه)، وكلّ شيء على قيد الوجود ولم نتمكّن من التعرّف عليه يوصف بـ(غير المتعرّف عليه)؛ كونه موجودًا أو متاحًا إلى حين التمكّن من معرفته بداية ونهاية؛ ولذا فمتى ما تهيأت عقولنا للمعرفة تهيأت المعرفة إلينا.

العقل يصنع المستقبل:

المستقبل هو ذلك المعلوم وفقًا لدائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، وهو الذي من أجل بلوغه الشّعوب والأمم المتقدّمة تخطّط له وترسم السِّياسات، أمَّا الشّعوب والأمم المتخلّفة فتضع المستقبل في علم الغيب. مع العلم لا يمكن أن يكون علم المستقبل علم غيب، فعلم المستقبل هو الذي سيأتي في حركة متصلة مع إدارة الزَّمن برهةً وساعةً ويومًا وأسبوعًا وشهرًا وعامًا ودهرًا وهكذا، فعلم المستقبل هو الذي نعلمه في دائرة الممكن؛ فنحن نعلم أنَّ غدًا الجمعة بما أنَّ اليوم هو الخميس، ولهذا نفكّر في يوم الجمعة ونعمل من أجله حتَّى يأتي دون أن نغفل عن السّبت وبقيَّة الأيَّام؛ فنكدّ ونجدّ من أجل أن تكون أحوالنا فيها على خير، ولأنَّنا نعلم أنَّ التّعليم يقضي على الجهل ويُحسّن أحوالنا المعيشيّة والصّحيّة والثّقافيَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة؛ فنبني المدارس والمعاهد والجامعات ومراكز البحث العلمي؛ ليكون النَّاس كلّ النَّاس في مستقبلٍ أفضل، ولو لم نفكّر ونعمل من أجل المستقبل فلماذا نستنشق الأكسجين؟ ولماذا نقي أبدًاننا من البرد القارص؟ ولماذا نصلّي ونصوم ونزكّي إن لم يكن كلّ ذلك من أجل المستقبل؟

ألا يكون لأحوال الطّقس قراءات في دائرة المستقبل المتوقّع؟ ألا تكون هناك قراءات دقيقة عن أزمنة الكسوف والخسوف وأماكنه التي يظهر فيها أكثر وضوحًا؟ فهل هذا علم غيب!

بالتأكيد لا؛ فعلم الغيب هو الذي لا نعلمه؛ كونه بأمر الله عالم الغيب والشّهادة، أمَّا علم المستقبل هو العلم الذي نعرفه؛ كونه يكمن فيما نعرف من أيَّام وأعوامٍ ستأتي بلا شكّ إن لم يصدر عالم الغيب أمرًا، وحتَّى النّمل يدرك المستقبل، ممّا يجعله يعمل جادًّا في أيَّام الصّيف والخريف من أجل أن يخزّن طعامًا له لتلك الأيَّام القارصة التي ستأتي في فصل الشتاء؛ فما بالك بالإنسان الذي يتذكّر ما مرّ به من أزمات في أعوامه المنصرمة أيٍّ كانت هذه الأزمات سواء أكانت غذائيَّة أم مائيَّة أم طبيعيَّة، أم صحيَّة؛ فهذه معطيات تجعله يفكِّر في أعوامه الآتية في يومه هذا كي لا تتكرّر معه التأزُّمات المؤلمة ثانيةً، ويسلم من الأضرار التي لا تكون إلَّا بأسبابها؛ فيتدبَّر أمره تخطيطًا وعملًا استراتيجيًّا به تُحدث النُّقلة من حالة كانت سائدة بالتأزُّمات إلى حالة الحلّ المخلّص من كلّ أزمة.

والمستقبل ليس ذلك الزّمن المنتظر في ذاته، بل هو ذلك المأمول الذي لا يتحقّق إلَّا فيه؛ ولهذا فالمنتظرون للزّمن في ذاته لا شكّ أنَّ ما ينتظرونه سيكون متحقّقًا، ولكن بلا آمال، لأنَّه الزّمن المنتظر، وهذا الذي نحن نخشاه وفي شأنه نقول:

لا ينبغي أن تنتظروا الزَّمن، بل عليكم بانتظار ما تأملون أن يكون تتويجًا لما تبدلونه من جهد تكون ثماره إنتاجًا بين أيديكم في الزَّمن المنتظر (المستقبل).

المستقبل زمن لم يأت بعد، وهو الذي ترسم الخطط وتوضع الاستراتيجيَّات من أجل بلوغه عملًا وإنتاجًا ونهضةً وتقدّمًا؛ ممّا يجعل الزَّمن ليس غاية، بل الغاية تفادي ما يمكن أن يكون فيه حاصلًا سلبيًّا. والمستقبل غير منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثّلان له قاعدة التأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول ارتقاءً، وهو الذي بدونه لا يجد الأمل حلًّا.

ولأجل النّهوض ارتقاءً، وجب المزيد من البحث العلمي الممكِّن من المعرفة الواعية التي بدورها تُمكّن من الإسراع في طي الهوة بين المأمول والأمل؛ وذلك بما يطوي مشاعر الخوف طمأنينة، ويخلّص من الحيرة حلًّا بعد تأزّم؛ فالبحث العلمي ارتقاءً يستوجب أسلوبًا مرنًا، وطريقة تستوعب التَّاريخ تجربةً ومنهجًا ووسيلةً.

ولأنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم؛ فليس له بدّ إلَّا المحافظة على حُسن تقويمه، وهذه قاعدة، ولكن إن انحدر استثناءً، وبأيّة علّة؛ فليس له إلَّا النّهوض، وهذه قاعدة أيضًا، والإنسان بين قاعدة واستثناء لا ييأس؛ ولهذا وجب العمل الذي يمكّن من بلوغ الغايات العظام التي يأملها، فالإنسان متى ما فقد ألأمل فقد المستقبل المنقذ.

ولأنَّ الانحدار بين قاعدتين (حُسن الخَلق، وضرورة الارتقاء)؛ فهو باق ما دمنا باقين، وله الثُّلث في حياتنا من الموروث انحدارًا؛ ولهذا فلا داعي للقلق بما أنَّنا نرث الثّلثين (خَلقًا وارتقاءً)، ولكن هذا لا يعني أن نظل كمن ترك له أبوه إرثًا ولم يستثمره؛ فانتهى صفرًا.

ولأنَّ لكلّ قاعدة شذوذ؛ فلا إمكانيَّة لبلوغ الحلّ كمالًا؛ فتلك الجهود عبر التّاريخ، وهذه الجهود، ستتلاقح ارتقاءً بغاية إنتاج الفِكْر الممكِّن من إشباع الحاجات المتطوّرة.

ولأنَّ الارتقاء رغبة وأمل؛ فسيظل أملًا يسعى في الزَّمن المستقبل نهوضًا وهو لا يُمكن أن يلاحق إلَّا بالعمل إنتاجًا وإعمارًا وبناءً وبحثًا علميًّا، مع الاهتمام بالقيم التي تنال التقدير من النَّاس.

إنَّ التفكّر في المستقبل يمثل الامتداد الطبيعي للحياة من ماضيها وحاضرها، وله أهميَّة كبيرة في البناء المرتقب الذي يكون من ورائه امتدادات مختلفة تتّجه بحسب الاستراتيجيَّة التي وضعت له اللبنات الأولى، فالمستقبل يعدّ الأرضيَّة الجديدة التي يُؤسّس من خلالها كلّ ما هو مطلوب ضمن دائرة المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ وبذلك يكون التفكّر عنصرًا مهمًّا في خلق مستقبل موافق لكلّ التوجهات التي تسعى إلى المضي قدما نحو التفاضل والوصول إلى الدّرجة التي تكون إخافتها حاصلة، ودون وجود مخيف يمكن أن يماثلها أو أن يكون ندًّا لها.

ولا يكون التفكّر منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلَّان له قاعدة للتأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة

وفاعلة في المستقبل؛ فالمستقبل لا يمكن بناءه دون النّظر إلى امتداداته الحاصلة التي يكون الانطلاق منها حاصلًا في كلّ التوجهات، وتكون التوجهات المختلفة منتمية إلى جذور تمدّها بما يسمح لها بالسعي إلى إيجاد حلول واضحة المعالم، فلا يكون هنا أيِّ انكفاء، بل تكون الأمور عامّة سائرة نحو تشابك منظّم يكون من ورائه وجود تبعات تبحث لها عن رؤى تفاعليَّة تثري التفكّر وتمنحه أبعادا مختلفة ومهمَّة، وهنا يكون الإيضاح سمة مطلوبة كي يكون الاتساع المرافق ملبِّيًا للادراكات الحاصلة، فتحصل بذلك شموليَّة مطلوبة تطرح التواصل الذي يكون من ورائه تحقّق التفكّر.

ومع ذلك فالمستقبل يكتنفه في بعض الأحيان غموضًا معيّنًا يسير في مدارات قد تبدو للوهلة الأولى غير منضبطة وفق الرّؤيا المطروحة، وهنا يكون الاستشراف حالة ملبّية للكثير من الطموحات وحتى التداعيات التي تخلف انفراجًا وإن كان وقتيًا إلَّا أنَّه قد يكون سببًا في حلّ الكثير من المتعلقات المفترضة، كما أنَّ التشكيل العام لهذه الرّؤى يكون مطويًا خلف إزاحات دائمة تريد أن تجد لها مكانًا بين الحضور الحاصل، إلَّا أنَّ مكمنها قد لا يبدو واضحًا نتيجة البعثرة التي تحصل في بعض الأحيان، وهنا تنبري لنا مسألة مهمَّة ألا وهي التنظيم المطلوب ضمن هذه الصيرورة، إذ يحتّم المكوث عند هذا التنظيم وجعله منهجًا يكمن فيه التحقّق المطلوب، ويكون الحذر حاضرًا في هذا التنظيم بطرق متباينة؛ فالحذر يقف عند كلّ النقاط المهمَّة التي يكون من ورائها الوصول إلى الامتدادات المستقبليَّة المطلوبة؛ فتكون الآليات المطروحة تسير وفق اتجاه يكتنفه الحذر وفق كلّ التفصيلات المتاحة، وهذا الأمر يسهم بشكلّ أو بآخر في إيجاد نتائج واضحة المعالم يُرى فيها

معالم الحذر في كافَّة جوانبها؛ فيكون الظّهور المتحقّق وفق هذا التفكّر ملبيًا للبداية التي طرحت كلّ ما من شأنه كي يصل التفكّر إلى هذه المرحلة وما بعدها ارتقاءً.

وينفتح الحذر على كلّ الأزمنة، وهذا من باب الاتساع المطلوب؛ كي تكون الصَّورة المطلوبة واضحة وملبّية لكلّ التغايرات التي يمكن أن تحصل، فالارتباط المطلوب يغرس في كلّ خطوة من الخطوات اتكاءات جديدة يكون مبعثها متزامنًا مع التفصيلات التي يكمن فيها الحذر من أجل تحقيق مستقبل أفضل، وهذا يسير بوتيرة إفضائيَّة تتحكّم بشكلّ ينمّ عن وجود ارتباط فعلي بين هذه الامتدادات الثّلاث، ولأنَّ النِّهاية مفتوحة سيبقى الحذر مفتوحًا ولا يتقيد بأيّ قيد يمكن أن يكفّه عن تحقيق فاعليّته؛ فالنِّهاية المفتوحة تكون حافزًا على خلق استمراريَّة في البحث تتّجه دائمًا نحو شموليَّة يتّسع مداها كي تكون متجاوزة لكلّ الأساليب التقليديَّة التي تكتفي بالبقاء عند عتبات تجد أنَّها تمثّل النِّهاية التي يجب أن تكون، وهذا الأمر بطبيعته مخالفًا للحياة التي نعيشها؛ فهي قائمة على استنهاض مستمرّ، وبحث مستمرّ والأمل لا يفارق، فالتوقّف أو الانكفاء سمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقيَّة في التفكير، لأنَّ البقاء ضمن هذه الأطر يخلق ارتباكًا وفوضى معرفيَّة لا تكون نتائجها محمودة أبدًا، وفي المقابل تفطين الذَّاكرة لاحتواء ما يُنتج عبر الزّمن ماضيًا وحاضرًا، يقود بسلام إلى تطلّع مأمول لا يتحقّق إلَّا بالعمل في دائرة الممكن مستقبلًا.

ونحن إذ نشير إلى هذا التعالق فهو من باب أنَّ التفكّر لا يمكن له أن يكون سائرًا بالاتجاه الصَّحيح دون أن تكون له قاعدة يتكئ عليها، تمدّه

بكلّ ما يمنحه من امتدادات مختلفة سواء أكانت نظريَّة أم عمليَّة؛ فتوجه الحذر يكون متماشِّيًا مع هذه الامتدادات كونها تتوافق معه فيسمح لها بالمثول عند أيِّ ارتكاز تريده.

وعليه: يكون التفكّر واقعًا ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له، فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه، وإن كان الأمر ضمن دفعات تتابعيَّة إلَّا أنَّه لا يخلو من إرهاصات قد تكون متواجدة بشكلّ لا يكون من ورائها انزياحات كبيرة، وهنا يكون الحذر من أجل صناعة المستقبل المأمول متغلغلًا في كلّ الجوانب التي تريد أن تقف عند أعتاب كلّ التشكيلات التي يكون من ورائها البناء المطلوب، لأنَّ هذه الصِّفة بلزوميتها تواكب الحاصل الذي لا يسير معها، بل هي تسير معه، وهنا تكون عظمة المرافقة التي تمنح التفكّر أبعادًا مهمَّة تساهم بفاعليَّة كبيرة في خلق مستقبل غير مسبوق، لأنَّ السّابق متحقّق بكلّ ما فيه أمام المستقبل الذي يسعى نحو التفاضل والتمايز، فتتحقّق بذلك الافتراقات التي تخلق بناءًا مغايرًا مبنيًّا على تشعبات استبطانيَّة وجدت في الماضي والحاضر البداية التي لا يمكن أن تكون ثابتة، بل هي موجّه نحو إيجاد البدائل أو إيجاد الجديد الذي يكمن فيه التغاير والتباعد عن نقاط الالتقاء التي تكون ملبّية للتساوي الذي يجب ألَّا يكون.

إنَّ التفكّر في المستقبل يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل يكمن فيها النّهوض المأمول الذي يمنح النَّاس جميعًا حياة أفضل، لكن هذا الأمر لا يتحقّق للجميع؛ كونه يرتبط بأخذ الحيطة والحذر؛ فالمخاوف بسمتها الإيجابيَّة المفقودة يكون الرّكون إليها متفاوتًا، وهذا ناتج عن الإدراك غير الواعي بالحقيقة الموجودة؛ فالخوف لم يكن سلبيًّا على مدار الوجود الإنساني،

بل كان حافزًا مهمًّا في المعالجة والوقاية ودرء المخاطر في أوقات مختلفة؛ فهو يشير دائمًا إلى وجود خروقات طبيعيَّة وغير طبيعيَّة، تخرج عن نطاق المتعارف أو الطّبيعي الذي يجب أن يكون؛ فهو بذلك منبّه من الدّرجة التي يكون استشعاره باعثًا على إيجاد كلّ ما من شأنه أن يدفع بالمتغيرات الحاصلة التي ظهرت منها المخاطر نحو حدود جديدة يكمن فيها الدرء المنشود من أجل بلوغ مستقبل أنفع، وهذا الحال حين يكون تحقّقه مستمرًا يمنح الإنسان وعيًا مستمرًا أيضًا؛ ذلك أنَّ تكرار المنبهات يحيل إلى زيادة في الوعي المتحقّق؛ فيكون الخزين العام منساقًا نحو هذه الزِّيادة التي يُرى فيها إضافات جديدة على المساحة الفكريَّة المطروحة؛ فيكون الاغتناء الفكري قد وجد له تمويلًا مستمرًا يمنحه ما يشاء، وبتفصيلات تلهمه المتابعة التي يجد فيها كلّ ما هو جديد وكلّ ما هو بديل للحاصل[53].

وعليه:

لا يمكن أن يُصنع المستقبل إلَّا بالتفكّر، ولهذا فعلينا به تخطيطًا، مع السّماح للبحاث بالتفكّر حتى بلوغ الخوارق، وبلوغ المعرفة التي تمكّن من معرفة المستحيل مستحيلًا، ومن معرفة المعجز معجزًا، ومن معرفة الممكن ممكنًا حتى وإن كان غير متوقّعا؛ ولهذا فصناعة المستقبل المأمول تمكّن من معرفة المجهول وكشف خفاياه.

ولأنَّ الحياة من أجل المستقبل؛ فنحن بنو آدم نتعلّم، ونبحث عن فرص عمل، ونتزوج، ونصادق من يصادقنا، وعندما نتعرّض لسوء التكيُّف

---

[53] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 131 . 135.

قد نُطلق عند الضّرورة، وعندما تقوى علاقاتنا نُشرّع، ونسنّ القوانين والنّظم، ونحدّد الأهداف ونرسم الخطط، ونتطلّع بأمل إلى المستقبل القريب والبعيد، ولهذا نصوم ونصلي من أجل نيل المستقبل جنَّة.

ولذا فالقاعدة هي:

العيش من أجل المستقبل.

والاستثناء هو:

العيش من أجل الآن.

مِنَ العقلِ إلى الفِكْرِ:

العقل مقدرة خَلقيَّة تمتلكه كل المخلوقات مع مراعاة الفروق الفرديّة التي بينها مقدرة واستطاعة، أمَّا الفِكْر فهو معطية لتنمية العقل، وهذه خاصَّة الخَلق الإنساني الذي خَلقه الله تعالى في أحسن تقويم، ومن هنا ميّزه بهذه المقدرة الفكريّة دون غيره من الكائنات الأخرى؛ ليكون الخليفة في أرضه جلَّ جلاله.

ولهذا فالعاقل الذي يرسم خططه بغاية بلوغ المستقبل ينهض، أمَّا الذي يغفل عن ذلك أو ليس له معطية فكرية فلن يبلغ شيء من هذا. والمستقبل زمن ومحتوى مَن رَسم له الخطط والاستراتيجيَّات من أجل أن ينل منه ما شاء وفقًا للقدرة والاستطاعة والدِّراية كسب ونهض، ومَن لم يقدم على ذلك فلا مكان له مع الذين سينالون مأمولاتهم التي عملوا وصبروا من أجلها حتى

بلغوها؛ ومن هنا نلاحظ الفارق العقلي بين النَّاس الذين فكّروا ونهضوا والذين لم يفكّروا فبقوا هناك في سُفليَّة ودونيَّة.

والمستقبل إذا تمّ قصوره على الزَّمن؛ فالمستقبل المرتقب لن يُصنع، ولكن إن نُظر إليه سعة يمكن أن تملى بما هو مأمول ليتم العمل من أجله قبل بلوغه بالتأكيد سيكون المستقبل قابل لأن يُصنع عملًا ومعرفةً وتخطيطًا وأخذ حيطة وحذر. ومع أنَّ الإنسان ارتقاءً خُلق مسيَّرًا في أحسن تقويم، فإنَّه اختيار انحدر في غفلة حتى أصبح أقل شأنًا عمّا خُلق عليه، وعندما لامس القاع سفليَّة أخلاقيَّة أخذته الصّحوة والحيرة تملأ نفسه ندمًا؛ فاستغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، ولكن لم يتمّ ذلك إلَّا بعد نفاذ الأمر وهو الهبوط به والأرض أرضًا، ومن هنا أصبحت تلك الحياة الخَلقيَّة، التي خُلق فيها الإنسان الأوَّل (آدم) جنَّة لم تفارق عقله، وظلّ يأملها؛ حتى جاءت الاستجابة حافظة لأمله في العودة إليها ارتقاءً.

فبعد أن كان آدم قد خُلق على الارتقاء خَلقًا، أصبح الارتقاء بالنّسبة إليه مجرّد أملٍ؛ ومع ذلك فالأمل لا يتحقّق إلَّا عملًا؛ فمن عمل من أجله بلغ مأموله، ومن لم يعمل؛ فلا ارتقاءً.

ومع أنَّ الأمل بالنّسبة إلى بني آدم يرتبط بالمستقبل، فإنَّه بالنّسبة إلى آدم يرتبط بذلك الماضي الذي كانت فيه الأرض والسّماوات رتقًا؛ ولهذا فالأمل بالنّسبة إلى آدم هو العودة إلى تلك الجنَّة التي فُقدت في لحظة غفلة.

ومن هنا فالأمل مع أنَّه من حيث المفهوم واحد، فإنَّه من حيث الدّلالة ليس كذلك؛ ولذا وجب التفكير في الزّمن وضبطه بين ماضٍ لن يعود، وبين

ماضٍ يأمله آدم وبنوه الذين يعتقدوا أنَّ الجنَّة حقيقة على قيد الوجود؛ فتلك الجنَّة التي خُلق فيها آدم وزوجه قبل أن تُفتق الأرض من السّماوات، ظلّت هناك في علوٍ، أمَّا الأمل فظل منقطعًا على الأرض التي أهبط بها ومن عليها من المختلفين والمتخالفين دُنيا.

وعليه:

. فكّر فيما تفكّر فيه حتى تصنع أملًا يشبع رغبة مرضية ولا تكون على حساب الغير.

. جمّع قواك العقليَّة والفكريَّة وخطّط بما يمكّنك من تفادي الصّعاب وأنت تعمل من أجل بلوغ المأمولات.

. حشّد الإمكانات وعدّ العدّة المناسبة لبلوغ المأمول.

. انزع التردّد من نفسك وتقدّم قوّة تصنع المستقبل.

. استعن بمن يمدّك قوّة تُسهم في اختصار الزّمن وتقليل الخسائر.

. أعرف أنّك كلّما أنجزت هدفًا، وجب عليك تحدِّيد أهداف أخرى أكثر أهميَّة حتى تحدث النُّقلة إلى الأفضل المرتقب.

ولهذا فالارتقاء قمّة هو ما يُمكّن بني آدم من العيش الرّغد في الحياة الدُّنيا، وما يُمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العلّيا؛ فبنو آدم لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة؛ ومن هنا فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاءً.

فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل؛ فلا معنى للحياة؛ فالله خلق أبانا آدم في النّعيم ليعيش وبنيه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزّائلة (المنقوصة)؛ حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت؛ ومع ذلك وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعة ونهضة.

ولذلك ظلّ آدم وزوجه على الرّفعة الخَلقيّة حتى أقدما على عمل المعصية؛ فانحدرا هبوطًا من تلك الجنَّة على الأرض الدُّنيا، التي جُرِّدت من الصّفات التي كانت عليها عُليا.

ومن هنا أصبح الصّعود للقمّة مطلبًا وأملًا لمن فقد تلك المكانة، وبقي الخَلق الحَسن على ما هو عليه حُسنًا، ولكن الأخلاق أصبحت على الاهتزاز تتبدّل من حَسنٍ إلى سيء، وكذلك من سيء إلى حَسن؛ {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[54]. فآدم وزوجه شاءا أن يؤمنا وأمل العودة إلى تلك الجنَّة لم يفارقهما، ولكن بنيهما اختلفوا، بل تخالفوا على ما يؤدِّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الدّونية، حتى بلغ الاقتتال بينهم أشدّه؛ ومع ذلك فالإصلاح بين المختلفين والمتخالفين لم ينقطع، وكذلك العفو والصَّفح ظلّا جنبًا إلى جنبٍ مع القصاص الحقّ.

فالإنسان ينبغي أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف إنَّ العمل نهضةً وحده يطوي الهوة بين الأمل وصاحبه، وبين الحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

---

[54] الكهف 29.

ومع أنَّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه قد خسر ذلك الارتقاء بمعصية منه، ممّا جعله استغفارًا يأمل الارتقاء عمّا انحدر فيه من سفليَّة؛ فغفر الله له وتاب عليه بغاية الارتقاء إلى تلك المقامات العظام، ولكن الأمر لا يعدّ هينًا؛ حيث لا عودة إلَّا بالعمل الصّالح الممكّن من الارتقاء إلى تلك القمّة التي أصبحت أمل آدم بعد أن كانت بين يديه.

فآدم بعد أن خسر تلك المكانة القمّة، عمل على الارتقاء إليها ثانيةً، ولكن بقي الارتقاء إلى تلك القمّة من قِبل بني آدم أملًا وعملًا؛ فمن يعمل صالحًا يقترب منها، ومن يعمل باطلًا يبتعد عنها؛ فالإنسان الذي خُلق على الارتقاء بدايةً، ثمّ انحدر عنه إرادةً وشهوةً، أصبح ثانيةً يسعى إلى العودة إلى القمّة، وهو يأمل أن تُرتق الأرض بالسّماء حتى يرى بأمِّ عينه ما يأمله ارتقاءً.

وعليه:

. كلّما تكتشف أنَّك على شيء من الخطأ؛ فأعرف أنَّ معلومات خاطئة قد علقت بك؛ فتخلّص منها؛ فصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة ولا تتردّد.

. لا تترك عقلك سارحًا فيما لا يعنيك نهضةً ورفعة، بل عليك بإشغاله فكرًا حتى ترى المستقبل البعيد بالعمل قريبًا.

. الأخلاق تجعلك على الارتقاء وتمكّنك من بلوغ ما هو أكثر رُقيًّا، فكن في عقلك فكرًا، وقيّم الأمور من حولك قبل أن تتخذ قررًا أو موقفًا بشأنها.

. ثق في نفسك إن أردت التحدِّي، ولا تلتفت لمن يريد إغواؤك عثرة من بعد عثرة.

. أعمل والأمل لا يفارقك؛ فالإنسان بلا أمل لا فرق بينه وبين من خُلق في دونيَّة.

. ضع الدّروس نصب عينيك؛ ولا تنسى ذلك الدّرس الذي تركه لنا أبونا آدم عليه السَّلام، فهو بعد أن عصى ربَّه بأسباب الأكل من المنهي عنه، عرف أنَّ ما يُنهى عنه لا يكون إلَّا مخالفًا للفطرة الخلقيَّة (في غير مرضاة الخالق)، أي إنَّ المنهي عنه، لا يكون إلَّا لضررٍ، سواء أكان نفسيًّا، أم صحيًّا، أم خُلقيًّا؛ فآدم بعد أن أكل من تلك الشّجرة المنهي عن الأكل من ثمارها ندم وتألم، وظل على ما ألمّ به من ندمٍ وألمٍ حتّى غفر الله له ذنبه؛ ومع ذلك صدر عليه حكم الهبوط من الجنَّة، إلى الحياة الدُّنيا على الأرض الدُّنيا.

ولذلك فبأفعال المخالفة والمعصية يتمّ استشعار الذّنب؛ فيلد النّدم والألم في نفس من يأمل الارتقاء عمَّا وقع فيه من معصية؛ ومن ثمّ ليس للإنسان إلَّا أن يلتفت إلى نفسه تقييمًا ومراجعةً واستغفارًا وتوبةً تخرجه من التأزّم إلى الانفراج، وتعيده إلى حيث ما يجب أن يكون عليه وعيًا؛ فآدم بعد الهبوط على الأرض الدُّنيا لم يظلّ له أمل سوى أمل العودة إلى تلك الجنَّة التي خسرها بعلل الشّهوة والرّغبة والإرادة.

ومع أنَّ الزّمن في أذهاننا مقسّمًا بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ، فإنَّ التفكير تدبُّرًا في الوقت الآن لا يمكن أن يفصل مستقبل آدم المأمول عمّا

نشأ فيه يقينًا؛ ولذلك فالزَّمن الحاضر كما يربطنا بما جرى ارتقاء؛ فهو يربطنا بما نأمل الارتقاء إليه، سواء أكان المأمول قد حدث في الماضي، أم إنَّه سيعود إلينا ثانيةً.

ومع أنَّ خَلق آدم وزوجه كان خَلق قمّة في أحسن تقويم، فإنَّ آدم وزوجه انحدرا عن تلك القمّة باختيارهما، ومع ذلك عندما عرفا أنَّ العلّة قد المت بهما وكانت من وراء انحدارهما هبوطًا دونيًّا، ندما واستغفرا لذنبهما؛ فتاب الله عليهما، ومن هنا نشأ لديهما أمل العودة إلى تلك القمّة الماضية وهي بالنّسبة إليهما هي الأمل المفقود، ولكنّ هذا الأمل المفقود لا يمكن أن يبلغ إلَّا فكرًا وعملًا وصبرًا.

وهنا يتداخل الزّمن؛ فما يأمله آدم وبنوه المصلحين هو: تلك الجنَّة التي خُلق فيها آدم وزوجه، ولكن كيف تكون تلك الجنَّة هي الماضي، وتكون هي المأمول ذاته في المستقبل؟

أقول:

الجنَّة خُلقت وجودًا في الكون المرتق؛ حيث لا وجود للأيَّام، بل هناك اليوم الواحد (اليوم الآخر) الذي لا وجود للظُّلمة فيه؛ إذ لا مجال للشّروق والغروب؛ ولأنَّه كذلك فلا وجود للماضي والمستقبل، بل الوجود للحاضر، ولا شيء غيره.

فالمخلوق عندما ينتهي من الوجود الحي، ليس له من الأيَّام إلَّا الزَّمن الحاضر، وكذلك عندما يُبعث حيًّا لن يجد شيء مستحيلًا إلَّا في الزَّمن الحاضر الذي وحده سيكون الشّاهد الأوَّل على الأعمال ثقيلها وخفيفها.

ولذلك فكلّ حياة الإنسان هي زمنٌ حاضرٌ، وكلّ ما يعمله الإنسان فيها ويتمّ استدعائه من الذّاكرة لا يكون إلَّا حاضرًا في الزَّمن الحاضر. أي كلّ شيءٍ يُفعل أو يُعمل لا بدّ أن تسجله الحياة في صفحاتها حاضرًا.

فالزَّمن دائرة، نقطة بدايتها تتمثّل في كلّ نقطة من نقاطها المتّصلة، التي عندما يوضع الأصبع على أيٍّ منها تعدّ هي مركز منتصفها، وفي ذات الوقت تعدّ نقطة نهايتها؛ وهنا يعدّ الزّمن كلّه حاضرًا، أمَّا الأعمال في الزّمن فهي الشّاهدة على من يقوم بها؛ ولهذا يموت العاملون وتبقى أعمالهم حاضرة؛ حيث لا وجود لماض يقبرها، بل الماضي يحفظها حاضرًا.

ولهذا فالآمال هي ما يحتويها الزَّمن كلّه؛ فلا تقصر أمالك على المستقبل وحده؛ فهناك من الآمال ما قد أنجز، ممّا يستوجب الأخذ به عبرة وموعظة، أو العودة إليه كنز لا يفنى.

وعند ما تتاح لك فرص الاختيار؛ فلا تتسرّع، وكذلك لا ينبغي أن تتأخر؛ فلكلّ حسابه فلا تغفل.

وعليك أن تعرف أنَّ زمن تحدِّيد الأهداف ليس زمن حصاد نتائجها، فزمنها زمن الزّراعة والبدر؛ ولذلك فالنَّاس يحدّدون أهدافهم، ثمّ يعملون على إنجازها وبلوغ الغاية التي من ورائها، مع العلم أنَّ الزَّمن بين تحدِّيدها وبلوغها يحتاج إلى أعوام، وهذا يعني أنَّ زمن تحدِّيد الأهداف لم يكن هو زمن تحقيقها ولا تحقيق الغاية التي من ورائها، مع أنَّ الزَّمن الذي حُدّدت فيه قد أصبح ماضٍ، وهو في ذات الوقت بالنّسبة إلى إنجازها أو بلوغها لا يعدّ إلَّا مستقبلًا.

ومن ثمّ فتلك الجنَّة بمقاييس زماننا هي ماضي، ولكن إن سلّمنا بذلك، ألا يعني أنَّ الماضي سيظل ماضٍ ولن يعود؟ وإذا كان كذلك فلا أمل فيه، ممّا يجعل التسليم به وكأنّنا نقول: لا وجود للجنَّة في المستقبل.

ولهذا فمن يعمل، ثمّ يزداد نموًّا ونهضةً؛ فلن يبلغ جنَّة غير تلك الجنَّة التي هي حاضر آدم وزوجه، وهنا نقول:

إنَّ الماضي المأمول هو المستقبل بعينه؛ فمن شاء بلوغه؛ فليعمل على مستقبل يربطه بالماضي رفعةً؛ ولكن هذا لا يعني الاجترار، ولا يعني الالتفات إلى الورى، بل يعني التقدّم تجاه المأمول نشوءً وأبدًاعًا منتجًا لكلّ جديد مفيد يرتقي بالنَّاس إلى تلك الجنَّة، وحيث ذلك الماضي الذي خُلقت فيه الأزواج، والتي كان آدم وزوجه على رأسها في أحسن تقويم قمّة.

فالزَّمن متصّل بلا فواصل، وما يسمّى بالماضي والحاضر والمستقبل لا يزيد عن كونه فواصل من عندنا، وليس من عند الزَّمن؛ فالزَّمن هو الزَّمن حاضرًا مستمرًا، ولكن الأحدًاث التي تقع فيه تفصل بينها الأيَّام التي بها تُعدّ السّنين، وفيها تُصنّف الأعمال بين من ثقلت موازينه من أجل العودة إلى تلك الجنَّة أملًا، ومن خفّت موازنه انحدارًا؛ حيث لا أمل له في ماضٍ لم يأمله مستقبلًا.

ولذا فَخَلق الكون مُرتقًا، ونشوء آدم وزوجه فيه ارتقاء، ثمّ انحدارهما منه والأرض هبوطًا لا يلغي في دائرة الممكن أمل العودة إلى ذلك الكون

متى ما تمّ رتقه كما كان أوّل مرّة: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[55].

يُفهم من هذه الآية، إنَّ الخَلقَ والنشوء قد أوجدا كونًا أوّلًا (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، ثمّ أصبح الارتقاء فرصة، ولأنَّه فرصة؛ فلا ينبغي أن تضيع من أيدي من سُنحت لهم؛ ولهذا فأوّل المغتنمين لها استغفارًا وتوبةً كان آدم عليه السَّلام؛ فتاب الله عليه بأمل العودة إلى حيثما كان عليه رفعة وعلوًّا.

وبما أنَّ الارتقاء لا يكون إلَّا حيثما توجد القمّة المأمولة؛ إذن فلا ارتقاء إلَّا إلى حيثما هي كائنة، ولأنَّها قمّة كائنة وجودًا؛ فهي وجود سابق على من يرغبها أملًا لاحقًا؛ ومن هنا فالزّمن ليس هو ما نأمله، بل الذي نأمله ما يحتويه الزّمن وجودًا؛ ولذلك فالزَّمن هو الزَّمن فحيثما كان الماضي يكون المستقبل حاضرًا.

ومن ثمّ فالأهداف التي تصاغ في خِطّة بحثيَّة في الزَّمن الحاضر هي الأهداف المأمول إنجازها في الزَّمن المستقبل الذي يوم أن تنجز فيه يكون هو الشّاهد (الحاضر) على إنجازها، كما كان هو الشّاهد حضورًا يوم تحدِّيدها وصياغتها.

ولأنَّ النّشوء في دائرة الممكن ارتقاءً يُمكّن من بلوغ الغايات؛ فالمزيد من التّأهب إليه يُسرّع بحركة أحدَاث النُّقلة مع تسارع امتداد الكون إلى النِّهاية؛ ولهذا لن تستطيع تلك الأنظمة المعيقة للارتقاء أن تصمد أمام التسارع ارتقاء تجاه أحدَاث النُّقلة المأمولة، بل كلّ الأنظمة التي رَكِب

[55] العنكبوت 20.

أصحابها المصاعد إلى الأسطح، ولم يضعوا في حسبانهم أنَّه لا نزول إلَّا من خلالها؛ فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك إلى أن أُسقِطَ بهم أرضًا.

ولهذا كان الفأر أكثر فطنة وذكاء من تلك القمم التي صعدت وبقيت هناك حتى أُسقط بها أرضًا في الزَّمن غير المتوقَّع؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

فقال:

ألا يكون من الأفضل لي أن العب بذيلي بدلًا من أنْ العب برأسي؛ فأنا عندما العب بذيلي أفكّر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

هكذا هي الرّؤوس بلا أمل يُلعب بها، وهكذا هي الفأران تفكّر؛ فتنجو؛ ولذلك فالعيش بلا أمل ممكن، ولكن لا حياة بلا أمل؛ ذلك لأنَّ الحياة لا تكون إلَّا والأمل يملؤها، أمَّا العيش فلا فرق فيه بين حيوان وإنسان، ولكن ما هي الحياة أمل؟ ومن هو الإنسان أمل؟

أقول:

الحياة الأمل هي التي لا يهدّدها الزّوال، وهذه لا تُبلغ إلَّا إذا تجسّد الأمل عملًا محفّز بالرّغبة والإرادة؛ ولهذا فمن يعمل من أجل بلوغها يصنع لنفسه أملًا لا يموت حتى يورّثه لمن خلفه.

أمَّا الإنسان الأمل؛ فهو الذي يولِّد من الفكرة فكرة تخرجه ومن معه من التأزُّمات وتصنع لهم مستقبلًا يحدث لهم نقلة تمكّنهم من عمل الخوارق حتى يعرفوا أنّ المعجز معجزًا.

ولذلك فالواعون دائمًا هم السبَّاقون والمبادرون بصناعة الأمل الذي يقرِّبهم من رتق الأرض بالسّماءِ رفعةً.

وعليه:

. فكّر فيما يجب قبل وجوبه حتى تكون سبّاقًا قبل غيرك.

. أعرف أنّ اَلأمل لم يكن غاية، بل الغاية بلوغ المأمول؛ فاعمل من أجله إن أردته حقيقة بين يديك.

. تحدّى كلّ محيّرٍ حتى تتجاوزه معرفة، وتصبح السُّبل أمامك بلا عوائق ولا معيقين.

. أصنع أملًا فالأمل لا يصنع نفسه، ولا يأتيك من الغير، وأعرف أنَّ المسافة بينك وبينه وإن كانت بعيدة فهي غير مستحيلة.

. فكّر في نفسك حتى تستكشف نقاط ضعفها، لتتجاوزها قبل أن يشار إليك من الغير بما يمكن الإشارة به إليك إحراجًا.

. أعمل بحيويَّة وتفاعل إن أردت القضاء على الملل المعيق لك من بلوغ المأمول.

. عرّف من لك علاقة بهم أنَّ الصّعوبات لا تصمد أمام الصّامدين في سبيل تحقيق أمالهم، وحفّزهم على التحدِّي؛ ذلك لأنَّ قبول التحدِّي لما يؤلم يمكّن من بلوغ ما يدخل البهجة.

ـ تجاوز بهم قصور التفكير عند المتوقَّع رتابةً إلى ذلك غير المتوقَّع الذي تملأه الحيويَّة بما يرشد إله من جديد أكثر وضوحًا.

ـ لا تصدّق ما تسمع؛ فإنْ صدقت ما استمعت إليه وكأنَّه المسلّمات فقد تقع في السفليَّة والدّونيَّة كما وقع فيها أبونا آدم عليه السَّلام حينما غرّر به إبليس؛ فكانت النتيجة مؤلمة (خروجه وزوجه من الجنَّة).

ـ تأكّد أنَّ وراء كلّ هدف أهداف أخرى لا يمكن أن تعرف إلَّا بعد إنجاز ما قد حدّد هدفًا.

ـ تأكّد أنَّ وراء كلّ هدف من الأهداف التي تمّ تحدِّيدها غرض ووراء كلّ غرض أغراض جديدة.

ـ تأكّد أنَّ وراءِ الأغراض غايات، ووراء الغايات غايات أعظم منها؛ فلا تملّ ولا تقنط.

ـ تأكّد أنَّ التقدّم خطوات فأسرع تقدّمًا دون التسرّع.

ـ أعمل على صناعة الأمل؛ فالأمل يصنع بلا يأس.

ـ تأكّد أنَّك على القوَّة، ولكن عليك بمعرفة أنَّ قوّتك لن تخرج عن دائرة الممكن (المتوقَّع وغير المتوقَّع)؛ ولهذا فلا إطلاق لقوَّتك، ومن هنا يكون الضّعف والوهن، ومن هنا أيضًا يجب الاستعانة بالغير لاستمداد أفعال القوَّة الممكّنة من إنجاز ما يفوق القوَّة الفرديَّة؛ ولذلك فالآمال العظام تحتاج لتكاتف الجهود ولا استغراب.

. الأمل دائمًا لا يتحقّق إلَّا بتهيؤ الآملين (تهيؤ نفسيًّا وعقليًّا وبدنيًّا وصحةً وتعليمًا وتأهيلًا وتدريبًا؛ فعليك بمزيد من ذلك إن أردت بلوغ آمل عريضة.

. أعرف أنَّ الأمل لا يأتي إليك أبدًا، بل الأمل تسعى إليه؛ فأسعى فهو ممكن التحقّق، ولكن عملًا.

. بلوغ المأمول يستوجب عدّة وإعداد لها، فعليك بإعداد العُدة الممكّنة من بلوغ المأمول.

. الأمل يستوجب حوافز ودوافع حتى لا يتسلّل الملل إلى العقل والقلب والنَّفس البشريَّة، وخير الحوافر والدّوافع (الرّغبة)؛ حيث لا عمل ولا أمل بلا رغبة؛ ذلك لأنَّ الأعمال والأمل بدونها تصبح أمنيات ليس إلَّا؛ ولهذا فالأمنية شيء لا يستوجب الإقدام عملًا، أمَّا الأمل لا يكون إلَّا والعمل أداته تخطيطًا وتنفيذًا مع وافر الرّغبة.

. الأمل عملًا يستوجب الاستعداد إليه تأهّبًا وعدة وإعداد ومن ثمّ استعدادًا يُمكِّن الآمل من بلوغ أمله.

. الأمل يستوجب متأهّبًا للإقدام على الفعل الممكن منه أملًا؛ وذلك من خلال تنفيذ ما رسم من خطّة أو استراتيجيَّة قد أعدت من أجل بلوغه.

ولسائل أن يتساءل:

آلا تكون العلاقة بين الآملُ وأملهِ علاقة غاية؟

أقول: لا.

الأمل لا يزيد عن كونه شعور مرغوب، ولكنَّه في حاجة لما يشبعه، أي: هناك علاقة بين الآمل وأمله، وهذا الأمر يجعل من الأمل حلقة وصل بدونه يكون اليأس هو ما تمتلي به المسافة بين الآمل وما يمكن أن يكون له من آمل؛ ولذا فإن حدث ذلك أصبح الفرد أو الجماعة في مراحل الأمنيات وليس في مرحلة الآمال.

إذن وجب الارتباط بين الآمِل والمأمول بأمل لا يأس فيه، ومن أراد مزيد من الآمال فعليه بمنابعها؛ فهي لا تستمدّ إلَّا منها؛ فتلك هي الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة التي يرتضيها النَّاس.

التطلّعُ عقلًا وفكرًا:

التطلُّع عقلًا تطلّع دراية، والتطلّع فكرًا تطلع استنارة؛ ولذا فالدِّراية المام بما يجب، والاستنارة العمل كيما يجب، ولهذا فالتطلُّع عقلًا وفكرًا تطلُّع الواعين العارفين لما يجب، والعاملين عليه وفقًا لما يجب.

ومع أنَّ التطلُّع يحتوي على مفهوم النّظر إلى المستقبل والاعداد إليه قبل أن يأتي؛ فإنَّ التطلُّع بالنّسبة إلى مكوّنات الشّخصيَّة يعد قاطعًا من قواطعها الرَّئيسة؛ ولذا فهو المستوى القيمي الذي يجعل الشّخصيَّة في حالة ميل من المستوى الذَّاتي إلى المستوى الموضوعي، ولأنها تعتمد على التحليل المنطقي فإن الاكتشاف العلمي سيكون من مميزاتها الموضوعيَّة والإبداعيَّة؛ ولهذا فهي في حالة رغبة للعمل المنتج لأجل إبراز قدراتها المتميزة عن غيرها من العاملين أو المنتجين؛ ولأنَّها شخصيَّة متطلِّعة للمستقبل فإنَّها تميل إلى التّعرف المباشر على التقنية؛ ولذلك لا تتأخر عن الاتصال لأجل استعارة

التقنية التي ترى فيها معطيات التقدُّم ومبررات العصرنة، إنَّها الشّخصيَّة المنسجمة القادرة على التوفيق بين ظروف المجتمع ومتغيرات الحداثة.

وعليه: فإنَّ الشّخصيَّة المتطلِّعة هي التي تتمسّك بحقوقها وتمارسها، وتؤدِّي واجباتها وتتحمّل مسئوليَّاتها، وتعترف بأن للآخرين ما يماثل ما لها. فهذه الشّخصيَّة تعيش حالة التقمّص؛ حيث تستعير شخصيَّة الآخر وتسعى للذوبان فيها، باعتبارها القدوة التي تعتقد إنَّها الأفضل، وهذا يدلّ على أن الشّخصيَّة في حالة تطلّع لِما ينبغي أن يكون، وبالمنطق ينبغي على الإنسان أن يفكّر ويسعى لأن يكون على مستوى أفضل وأرفع، وعندما يسعى لِما هو أفضل بالضّرورة سيجد نفسه في ظروف تمكّنه من الاختيار بإرادة، وهذه الظّروف تمكّنه أيضًا من الاقتران بذاته ولا ينفصل عنها سواء في حالة التمركز التّام أو في حالة التطلّع لِما ينبغي، هذه هي الشّخصيَّة المتطلِّعة، التي تحتكم إلى المنطق عند كلّ تصرف، وتنتقي تصرفاتها وأفعالها حسب كلّ ظرف وكلّ حالة، فهي لا تعمم سلوكيَّاتها في المواقف المختلفة، ومن صفاتها الإخلاص في أداء الواجبات والمهام المناطة بها، إنَّها الشّخصيَّة التي توصف بذاتيَّة تميل إلى الموضوعيَّة؛ وذلك لإقبالها على ما يظهر الحقيقة، وحصرها للأهداف الممكنة التحقيق، وسعيها للإنجاز كمتوقَّع منطقي. إنَّها الشّخصيَّة التي تميل إلى المشاركة في الأحدَاث الموجبة، وتبتعد عن المبررات السّالبة، مستوى لغتها الحوار الجامع، الذي لا يعتقد إلَّا في الحُجَّة المقبولة بين أطراف الحوار.

إنَّها الشّخصيَّة الاستنتاجيَّة القادرة على الاستنباط المعرفي المجرَّد؛ حيث تلتجئ إلى التمييز بين المواضيع بمعطيات عقليَّة أكثر من التجائها إلى التفسير المادّي المباشر نتيجة لتجاوزها مستويات الذَّاتيَّة الاجتماعيَّة، ولبلوغها

مستويات ذاتيَّة تميل إلى الموضوعيَّة. تنتهج الأساليب العلميَّة في سلوكها المعرفي وتعتمد في أحكامها على المعايير التي تمكّنها من التمييز المنطقي. إنَّها الشّخصيَّة الطَّموحة المتطلِّعة للأفضل والأجود، وترى أن التحصيل العلمي هو المؤدي إلى الوصول إلى ما هو أجود أو أفضل، فتبني كلّ طموحاتها على هذا المبرر القيمي[56].

الخوف يستنهض العقل فكرًا:

يكمن الخوف في النَّفس الإنسانيَّة، لكن هذا الكمون لا يكون مستديمًا أو حالة تكون أشبه بالمكوث الذي لا يرى بزوغه أبدًا؛ ذلك أنَّ المثيرات الخارجيَّة تسعى دائمًا إلى يقظته في تشكيلات متعدّدة ومتنوّعة، فيكون ظهور الخوف ضمن حالة متفاوتة بحسب المثير الذي يستفّزه، هذا الأمر يكون تحقّقه ضمن آنيّة مفترضة يكون حصولها بعد امتدادات واضحة المعالم، يُرى فيها كلّ التمركزَات المطلوبة، والتي يكون من بعدها التوجّه العلاجي قائم من خلال مثول الخوف وراء كلّ ما يحصل.

إنَّ هذا الانفتاح في المعالجة قائم على آنيّة تكون محدّدة الحدود واضحة التفاصيل، ومن الممكن الوقوف على كلِّ ما من شأنه أن يكون الحلّ فيه ظاهرًا سواء أكان مادِّيًّا أم معنويًّا؛ فتكون المعالجة سريعة، لكنَّها لا تخلو من أخطاء متفاوتة قد تكون قليلة في بعض الأحيان، إلَّا أنَّها قد تتّسع في أحيانًا أخرى لتصل الأمور في بعضها إلى وجود خروقات غير منطقيَّة، تجعل الكثير من الحلول في المستقبل في مهبّ الرِّيح، هذه الآنيّة ساهمت بشكل أو بآخر

---

[56] عقيل حسين عقيل، حلقات صنع المستقبل، المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة: 2022 م، ص 9 .34

في استنهاض الخوف من خلال رسم حجم المخاطر وتبيان ما فيها من تفصيلات تعينه على إيجاد حلول يكون من خلالها الوصول إلى نقاط التقاء فعليّة تكسب الزَّمن أوَّلًا، وتخرج الوضع الحرج أو الخطر إلى وضع آخر أفضل ثانيًا، إلَّا أنَّ الوضع الأفضل يكون وفق مقاييس غير ثابتة؛ إذ تكون هذه المقاييس تابعة إلى مجمل العوامل التي التفّت حول الخوف، ومنحته هذا الاستنهاض الذي كان سببًا فاعلًا في الوصول إلى النتيجة الحالية التي هي في كلّ الأحوال منقادة للبداية الأولى التي كانت قاعدة الانطلاق.

يسير الخوف باتجاهات واضحة المعالم حين يكون الاستنهاض مبنيًّا على أسس علميَّة، تتّسع مراحلها نحو إيجاد توافقات بين الحدود المفتوحة التي لا يُرى فيها في كثير من الأحيان إلَّا ابتعادًا عن المركز المفترض، هذا المركز يكون من خلاله طرح ما يمكن طرحه وإعداد ما يمكن إعداده، ولهذا لا تكون البداية مفتعلة بأيِّ حال من الأحوال، لأنَّ الافتعال لا يولِّد في المستقبل إلَّا أخطاء جسيمة، ونحن إذ نرى في البداية أنَّها يجب أن تكون مبنيَّة على اتساعات علميَّة مختلفة تلملم المطروح وتدخله في سياقات حقيقيَّة وافتراضيَّة، فتمنحه بذلك مديات متباينة يكون على أساسها الوصول إلى الاتكاءات التي يكون من ورائها الوقوف على الحلّ، والذي يكون من ورائه تفادي المخاطر التي يمكن أن تحدق بالإنسان.

إنَّ السّير خلف طروحات ثابتة يجعل من استنهاض الخوف أداة ناقصة الفاعليَّة؛ ذلك أنَّ التغيُّر المستمر في الحياة يخلق حالة من التصحيح المستمر لكلِّ ثوابت الحياة، وهذا بطبيعة الحلّ يوجد ارتماءات متعدِّدة تحاول أن تجد لها ما يكفل بقاءها ضمن دائرة الاستنهاض؛ فتكون الأمور ضمن هذه

النسقيَّة باطلة وغير قابلة لردع المخاطر؛ فتقلُّبات الحياة جعلت الكثير من الأمور تكون ضمن انزواءات لم يتوقّع لها أن تكون فيها؛ فكانت وجودًا غير مرغوب فيه في كثير من المواقف، وهنا تنبري الأمور ضمن استمداديَّة جديدة؛ فتحاول أن تجد ما يمنحها صيرورة البقاء ضمن دوائر جديدة تسهم من خلالها في إيجاد حلول واضحة، وإن كانت استعراضيَّة، إلَّا أنَّها ملبِّية لبعض الارهاصات الحاصلة التي تبدو غير خطرة.

وتتحدّد الحياة من خلال تقسيم يطرح كلّ ما من شأنه أن يكون سببًا في استنهاض الخوف؛ ذلك أنَّ المخاطر أصبحت ضمن مدارك الإنسان المختلفة؛ فيلتفّ حولها استشعارات متباينة تكون حافلة بأسباب البحث عن كلِّ النقاط التي يكون من ورائها الوقوف على الصَّورة الافتراضيَّة التي ستكون في المستقبل، وهذا يشمل ما يسمى بصناعة المستقبل؛ فالمستقبل في حقيقته غير متحقّق، إلَّا أنَّه يمكن أن يتحقّق من خلال رسمه بتقنية خاضعة لكلِّ ما يساهم في تحقّقه، وفي هذا المقام يتراءى لنا مصطلح المستحيل الذي يمكن أن يكون باعثًا لتوقفات كبيرة يكون من بعدها تحقّق المخاطر؛ ومن ثمَّ الانزواء عن إيجاد حلول تكون ناجعة في كلّ المقاييس؛ ولكي نبدِّد هذا المصطلح ولو آنيًّا علينا أن نلجأ إلى المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ كي نسلب منهما الحلول التي يمكن أن تكون باعثة على إيجاد أرضيَّة صلبة وواضحة المعالم، ويكون من ورائها خلق استنهاض للخوف يكون من ورائه صناعة المستقبل بالكيفيَّة المفترضة والمرادة.

ولذا فالمتوقَّع يسير في دائرة المتحقّق الذي يكون وجوده وصداه حاضرًا في المنظور وغيره، وهذا بطبيعته يخلق حالة واضحة من وجود ثوابت يكون

حضورها ممثلًا لجانب مهم من جوانب صناعة المستقبل؛ فيكون هذا الحضور استمرارا لهذه الصِّناعة حتى يمكن القول أنَّها تدخل حقل البديهيَّات التي يكون وجودها لا بديل عنه.

أمَّا غير المتوقَّع فيكون خاضعًا لنظرة استشرافيَّه باحثة عن كلّ ما من شأنه أن يكون مؤسَّسًا بطريقة أو بأخرى لصناعة مستقبل مطلوب وفي المواصفات الافتراضيَّة التي وضعت عند بداية الاستنهاض، ولعلَّ البداية قد تكون مفتعلة في بعض جوانبها نتيجة التحسُّب المبالغ فيه؛ إلَّا أنَّه بمرور الزَّمن قد يكون هذا الافتعال ممثلًا لكثير من الوقائع التي يمكن أن يكون لها شأنٌ آخر، فلا يكون هناك استبعاد لأيِّ استنهاض وإن كان بعيدًا عن السِّمات المتواجدة ضمن الدَّائرة الظنيّة الحاضرة في كلِّ حركة متّجهة نحو الاستنهاض.

عليه: يكون استنهاض الخوف باعثًا لإيجاد قواعد جديدة تكون ملبِّية لما يمكن أن يكون بديلًا عن الماضي، ودون الرُّكون إلى كلِّ ما من شأنه أن يلغي التوجّه نحو المستقبل بافتراضات بالية وعقيمة لم تنتج إلَّا ما يُعطّل الحياة ويجعلها تمرّ بأزمات متوالية.

إنَّ الحياة في كثير من تفاصيلها هي مبنيّة على استنهاض الخوف لصناعة مستقبل يكمن فيه الأمان المطلوب في كلِّ جوانبه؛ فمن ذلك نجد أنَّ المقررات التعليميَّة إن لم تكن مصاغة بمنهجيَّة استنهاض الخوف لدى المعلمين والمتعلمين؛ فإنَّها ستفشل في تحقيق الغايات المرجوة لصناعة المستقبل، فإعداد كمّ من المعلومات الملبّية لاستنهاض الخوف، يكون موافقًا

لما يمكن أن يكون منجزًا مستقبليًّا، فالمقررات إنْ لم يراع في صياغتها استنهاض الخوف في أنفس المتعلمين لا يمكن لهؤلاء المتعلمين صناعة المستقبل المأمول منهم، حتى يكونوا من المواكبين لحركات التغيّر والتقدّم التي هي دائمًا في حالة تطوّر من عصر إلى عصر.

ولذا فإنَّ الخوف من أعظم النِّعم التي تحفِّز الإنسان وتدفعه إلى كلّ ما من شأنه أن يجنِّبه المخاطر والآلام والمظالم، ويجنِّبه الحاجة والعوز، ويُمكِّنه من بلوغ مشبعاتها والإقدام على تطورها وتطويرها، حتى المناهج التي رأينا فيها أن تكون ملبِّية لاستنهاض الخوف، هي متغيِّرة ومتبدِّلة، لأنَّ الخوف أيضًا متغيّر ومتبدّل، وهنا يكون النَّاس ضمن اتجاهين:

الاتجاه الأوَّل: يكون منهم متتبِّعًا لكلّ ما يسهم في استنهاض الخوف من أجل صناعة المستقبل؛ فتكون حركتهم واعية وتسير في مدارات تلبّي ما يطمحون في الوصول إليه؛ فتكون أدواتهم خاضعة لكلّ ما يصل بهم إلى التحقُّق المراد، حتى ردود أفعالهم تكون منتمية إلى أرضيَّة واقعيَّة التشكيل، فتمنحهم بعد ذلك حلولًا صحيحة كما يريدونها في كثير من الأحيان.

الاتجاه الثَّاني: المتفرِّجون الذي يراقبون كلّ ما يجري، فلا يحركون ساكنًا وسيظلون يتفرجون ما لم يعرفوا عن يقين أنَّ استنهاض الخوف ضرورة للفرد والجماعة والمجتمع، هذه المعرفة لا تأتي من فراغ، بل يكون السَّعي من أجل معرفتها هو مطلب مهم يمنحهم فيما بعد هذا المطلب نتائج غير متوقَّعة على كافَّة الأصعدة التي كان ينظر إليها أنَّها غير مهمَّة.

إذن من يستنهض الخوف في نفسه يتقدّم ويتطوّر حتى يصل به الأمر إلى أن يغزو الفضاء وهو يصنع المستقبل، وفي المستقبل أيضًا سيغزو ما لم نعرفه الآن في دائرة غير المتوقَّع؛ ولهذا من يعلم بذلك لن يُفاجأ، أمَّا الذين لا يعلمون فبالضَّرورة ستكون المفاجأة في أنفسهم عظيمة، ويا ليتها تكون موجودة.

ويمكن التوقُّف عند مرتكزات مهمَّة في الحياة يكون استنهاض الخوف فيها السّبيل إلى صناعة المستقبل المطلوب منها:

1 – الإعلام

يمثل الإعلام عصب الحياة الآن في توصيل المعلومة وبمختلف الوسائل، فالفضائيَّات والأنترنيت والجرائد والمجلَّات والاتصالات بأنواعها، تخلق حالة من الصّيرورة المطلوبة في توجيه النَّاس نحو أفكار مختلفة يكون الالتقاء عندها هاجسًا من هواجس البحث المطلوب؛ فالنَّاس مشدودون إلى هذا الإعلام بكيفيَّات مختلفة؛ فعند توظيفه بالطَّريقة التي يتمّ فيها استنهاض الخوف، يكون التفاعل متحقِّقًا وملبِّيًا لما يمكن أن يكون مسهمًا في صناعة المستقبل.

إنَّ الحياة تسير نحو الأمام بطرق مختلفة؛ فتكون الارتباطات المختلفة مدعاة لبناء ركائز يكون من ورائها تحقيق الكثير من التوجّهات التي تكون أكثرها قائمة على اختزاليَّة واضحة، فالإعلام في هذه المواقف يستنهض النَّاس نحو المتحقِّق وما سيتحقّق؛ فيكون الترابط الحاصل منتميًا لكلّ ما يكون باعثًا لامتدادات تكون موافقة للبداية التي يتمثّل فيها الانطلاق الأوَّل، والإعلام يسمح بوجود فسحات كبيرة يكون من خلالها الوصول إلى

المبتغى المراد، حتى أنَّ النَّاس جميعًا يختلفون في استقبال المعلومة، ممّا يسمح بوجود تفاوت؛ لذا تكون المعلومة محصورة بين أمرين:

الأمر الأوَّل:

مصدر المعلومة الذي تكون عنده نقطة البداية؛ إذ يعرض معلومته بطريقة تنمّ عن وجود امتدادات مستقبليَّة مرتبطة بالمعلومة، فكل الوجود الخارجي القابل لاستلام المعلومة هو يرتبط بها بطريقة أو بأخرى، ممّا يحمّل نقطة البداية تبعات الصَّحة التي يجب أن تكون، لأنَّ ما سيحصل في المستقبل بكلّ ثوابته ومتغيّراته وتداعياته مرتبط بالبداية التي يُنظر لها دائمًا أنَّها الأساس الذي لا بديل عنه.

الأمر الثَّاني:

مستقبل المعلومة المرتبط باستنهاض الخوف لا بدَّ أن يمتلك نوعًا من التكيُّف مع هذه المعلومة، وهذا الأمر لا يكون وفق امتداد واضح عند كلِّ النَّاس، بل يكون التفاوت حاضرًا ممّا يطرح وجود نهايات متفاوتة أيضًا؛ فالمستقبل المطلوب قد لا يبدو متحقّقًا حين يكون التفاوت حاصلًا.

والإعلام يمكن أن يكون له دور فاعل حين يضع المستقبل أمام النَّاس جميعًا بالطريقة الافتراضيَّة التي تجعل منه واقعًا أمام العين؛ وذلك من خلال إيجاد تشكيلات شاخصة تطرح المستقبل كأنَّه حقيقة ماثلة، وهذا الأمر نراه في كثير من الأحيان حين نشاهد نماذج من المشاريع الضّخمة أو المجمعات السّكنية أو التجمعات السِّياحيَّة قبل أن يتمّ تنفيذها، فمجرد أن نرى شكلها الافتراضي على طاولة العرض، نستشعر أنَّ الخوف كان حاضرًا منذ البداية

من أجل أن يكون هناك حلًّا لمشكلة السَّكن أو لمشكلة العاطلين عن العمل.

2 – المراكز الدِّينيَّة:

تتمثل المراكز الدِّينيَّة بمنابر المساجد والكنائس والدّير التي يكون الالتفاف حولها طواعيَّة، فيكون استنهاض الخوف ذو فاعليَّة واضحة؛ فحضور النَّاس بهذه الطّواعيَّة يساهم بشكل أو بآخر في صناعة المستقبل، لأنَّ استنهاض الخوف الذي يصدر من هذه الأماكن الدِّينيَّة، يكون استقباله غير قابل للمعارضة الذَّاتيَّة أو حتى للمعارضة الظّنيّة؛ فيحصل بذلك استنهاض الخوف المطلوب الذي يفضي إلى صناعة المستقبل المراد.

والمنبر الدِّيني يمثّل في جميع البلدان مركزيَّة واضحة يلتفّ حولها النَّاس، فصوته لا يُعلى عليه وإن تكاثرت المراكز التي تظنّ أنَّها تمثّل صوتًا مسموعًا؛ فيكون الطرح الدِّيني منتميًا إلى تفريعات عدّة أهمها:

الجانب الدِّنيوي:

يمثّل الجانب الدِّيني حالة مهمَّة لأنَّه ينظّم حياة النَّاس ويمنحهم ترابطات متنوّعة تكون سببًا في كثير من التنظيمات التي تمنحهم أبعادًا واضحة في الحياة، والنَّاس يتوسّلون بالجانب الدِّيني من أجل أن يكون حصنهم المنيع في هذه الدُّنيا، ذلك أنَّ الحقوق والواجبات والمسئوليَّات لا تصل إلى درجة التحقيق إلَّا من خلال الدِّين، لأنَّ بقاء الأمور وفق اجتهادات وآراء خاصّة تثير الفوضى ويخلط الحابل بالنابل، وتسير الأمور في متاهات لا يُعرف لها بداية أو نهاية.

هذا الجانب تكمن فيه الحلول الدّنيويَّة، لكن هذه الحلول هي غير منقطعة عن الآخرة؛ فهي تمثّل امتدادا لها؛ ولهذا سنجد في الجانب الآخر في المرحلة الثَّانية التي لا تنفكّ عن الجانب الدّنيوي ما يوازي هذه الحلول بدافع الخوف من الآخرة.

الجانب الأخروي:

يمثّل الجانب الأخروي امتدادًا للجانب الدّنيوي؛ لأنَّ كلّ الأوامر والنَّواهي التي كانت مفروضة في الدُّنيا، كانت تتضمّن ما تكون عليه النِّهاية حين يكون الخروج عنها حاصلًا؛ فالدّعوة إلى الصِّدق مثلًا، لا ترتبط بالدُّنيا فقط، بل إنَّ نتائجها تكون في الدُّنيا والآخرة؛ ففي الدُّنيا يكون الصِّدق معيارًا لتوجيه النَّاس نحو ما يحقّق لهم السَّلامة والآمان، ويكفل لهم البقاء عند الحدود الصّحيحة التي يكون من ورائها النّجاة، أمَّا الكذب والافتراء؛ فلا يكون مصيره إلَّا الخذلان في الدُّنيا والآخرة؛ فيكون استنهاض هذه المعايير مثلًا باعثًا إلى إيجاد حالة من التصحيح تكون نتائجها في الدُّنيا والآخرة، هذه الاستمراريَّة الحاصلة في استنهاض الخوف من قِبل هذه المنابر لا تنقطع أبدًا حتى تصل الحياة الدُّنيا إلى نهايتها؛ وذلك لأنَّ النَّاس أخطاؤهم لا تنقطع؛ فيكون الارتباط حاصلًا ضمن هذه التناوبيّة المستمرّة.

إنَّ استنهاض الخوف هنا قائم على إيجاد مستقبل قائم على الأوامر والنَّواهي فمن خلالهما يتحدّد المستقبل المطلوب؛ فتكون صناعة المستقبل قائمة على هذا الاستنهاض المستمرّ الذي يكون من خلاله وجود رؤية واضحة المعالم، قد يكون الخروج عنها حاصلًا، إلَّا أنَّه في البداية لا بدَّ أن

تكون الرُّؤية خاضعة للتصحيح المطلوب الذي يكون مطلوبًا؛ كي يحقِّق صناعة المستقبل.

لذا نجد أنَّ التفاف النَّاس حول المراكز الدِّينيَّة فيه رؤية مستقبليَّة يرونها دائمًا في عقولهم وعواطفهم، فيلتفّون حولها من أجل إظهار التعلُّق الذي يمنحهم ترابطًا قويًّا، يمثّل لهم دفعة تجديديَّة في مواصلة مشوارهم في هذه الحياة؛ فالنَّاس يبحثون عن أسس تضفي عليهم امتدادًا جديدًا يسمح لهم بتملّك أمل جديد يكون من ورائه استمراريَّة تدفّقية تصل بهم إلى نهاية معاكسة لأفعالهم الخارجة عن كلّ الدّوائر الإيمانيَّة، والتقاطع في هذه المراحل غير وارد؛ كونه يشير إلى توقّف غير مرغوب فيه أو غير مطلوب حقيقة؛ لأنَّ التوقّف يجعل من هذه المراحل آنيّة وهذا مخالف للبداية المرادة وحتى للنِّهاية، لأنَّ كلّ الأسس في البداية مبنيّة على وجود مغايرات متحقّقة، وتحقّق هذه المغايرات يحتّم على هذه المنابر البحث المستمر عن استنهاض واعٍ يمتلك كلّ الأدوات التي يكون من شأنها أن تصنع المستقبل المطلوب؛ ولهذا نحن نجد أنَّ هذه المنابر بتنوِّعها لم تكن في يوم من الأيَّام بعيدة عن السّاحة الإنسانيَّة في كلِّ تفاصيلها.

وصناعة المستقبل تمثّل حالة تتويجيَّة لاستنهاض الخوف، هذه الصّناعة تستند إلى مجموعة من الافتراضات التي تسهم بشكل أو بآخر في وجودها، لكن هذه الافتراضات ليست بمجملها منتمية إلى فضاءات غير حقيقيَّة، بل إنَّ الكثير منها ينتمي إلى الواقع المعاش الذي يكوّن لها أحد السُّبل في صناعة المستقبل، ولعلّ التكرار الحاصل في النّسق الإنساني يشير إلى هذه السُّبل التي تكون كفيلة في إيجاد ما يحقّق الصّناعة المطلوبة؛ فالتكرار الحاصل

يشير إلى أنَّ الحياة فيها من المتماثل ما يستمرّ وبدون إزاحات داخليَّة أو خارجيَّة، ومنها ما يظهر فيكون باعثًا إلى إيجاد ما يمنحه مكانة في هذا العالم الكبير.

إنَّ استمراريَّة استنهاض الخوف من أجل صناعة المستقبل تمرّ بتعاقبات متباينة؛ فتثير ما يمكن إثارته في سبيل خلق ديمومة لهذا الاستنهاض؛ ذلك أنَّ الاستمراريَّة التي نقصدها، هي استمراريَّة تتابعيَّه، لا تنفكّ أبدًا عن المتابعة بكلِّ أشكالها؛ وذلك في سبيل أنْ لا تصل نقطة الافتراق بعد ذلك إلى طريق مسدود، وهنا يكون الامتداد مطلوبًا؛ لأنَّ السّعة المعرفيَّة تحتاج إلى أمكنة مختلفة يكون فيها الظّهور أحد الأسس المطلوبة.

إنَّ استنهاض الخوف يمثّل رسالة واضحة المعالم للنَّاس جميعًا؛ ذلك أنَّ حصول استنهاض الخوف يجعل إحساس النَّاس بالمخاطر عاليًا، وهنا لفظة (عاليًا) توحي بتدفّق الكثير من الصّفات التي يكون من ورائها حصول الاستنهاض، فمن خلال ذلك يكون التحسُّب والحيطة والحذر وغير ذلك من الألفاظ التي تشير صراحة إلى تحقّق استنهاض الخوف.

يطرح هذا التعدّد الصّفاتي وجود استقبال حقيقي من النَّاس لهذا الاستنهاض، حتى أنَّ وسائل الاستنهاض المختلفة ظهرت وتظهر فعاليَّاتها في هذا التحقّق، ممّا يعني وجود ارتباط حاصل بين هذه الامتدادات الاستنهاضيَّة؛ فيتشكّل بعد ذلك مستقبل قائم على صناعة موافقة للاستنهاض الذي قام به الخوف، فتكتمل الدَّائرة ضمن هذه التتابعيَّة، ممّا

يجعل الحضور الكلي موافقًا للعمليَّة الاستنهاضيَّة؛ كونها ملتّفة حول هدف واحد تسعى جميع الأطراف إلى تحقُّقه.

ومع أنَّ الحياة تتشكّل من مجموعة من التناقضات التي يكون حضورها حاصلًا، فإنَّه ليس بكيفيَّة طوعية من تلك الشَّدائد التي يتعرّض لها الإنسان، ما يجعل حصولها خارج الإرادة البشريَّة، وهنا تتعاظم الأمور وتصل في كثير من الأحيان إلى درجة الهلاك التي تكون من بعدها الأمور في غياهب لم تكن بالحسبان؛ فيكون دور الاستنهاض حاضرًا في مجابهة هذه الشَّدائد، والنظرة إلى الشَّدائد ليس من باب كونها حاصلة في هذه الآنيّة، بل من باب أنَّ امتداداتها وتبعيتها المختلفة ستكون في المستقبل حاضرة أيضًا، ولهذا يكون استنهاض الخوف ملبِّيًا في كثير من الأحيان لهذه المعالجة المطلوبة؛ كون وقوعها يشير إلى نهايات غير مطلوبة أبدًا، فيكون استنهاض الخوف هو البداية المطلوبة التي يكون من بعدها أحداث صناعة للمستقبل، فتمكّن هذه الصناعة من إيجاد حلول وبدائل لتلك الحلول، وهنا تكون الأمور في غاية الصّعوبة، لأنَّ وجود البدائل يعني أنَّ الحلول الموجودة والمقترحة غير كافية، وهذا يطرح وجود مفاجأة لم تكن بالحسبان.

إنَّ الشَّدائد التي يتعرَّض لها الإنسان تخرج في كثير من الأحيان عن طاقته الاستيعابيَّة التي تكون من خلالها مواجهة ما يحصل، وهنا يكون الاستنهاض مبنيًّا على هذه الاستيعابيَّة، فيؤسّس من خلالها لكلِّ المراحل المستقبليَّة التي يكون الحلّ بها، ولعل البدايات الأولى لهذا الاستنهاض تكون غير موفّقة؛ إذ يكتنفها تعثُّر واضح نتيجة حصول فهم خاطئ أو إدراك غير واعٍ، فتكون النتيجة موافقة لهذه البداية.

عليه: يجب أن تكون البداية متماشية مع المستقبل المراد في حركة أشبه ما تكون بالتحفيزيَّة التي تفتح الطّريق أمام كلّ الحلول الناجعة، فالتبعثر غير مطلوب، لأنَّه يؤسّس لخلخلة غير موفّقة، فتكون النتائج المتوخاة ضعيفة؛ فتُسلب كلّ الحلول وحتى البدائل التي تظهر ممّا يطرح وجود خرق وراء كلّ ما يحصل.

وعليه: تمثّل صناعة المستقبل هاجسًا للإنسان الواعي، فرؤيته للمستقبل تكون وفق دراسة علميَّة قائمة على استنتاجات وافتراضات تقوده نحو البحث عن هذا المستقبل، إلَّا أنَّ الدّافع الرّئيس لهذا الهاجس المستمر هو وجود خوف دائم من كلّ ما يحيط به، وبخاصّة من المنافسين له في المجالات التي تُعدّ من مرتكزات الحياة المهمَّة، هذه المرتكزات بامتلاكها يستطيع الإنسان أن يكون من الذي يمتلكون زمام قيادة هذا العالم، فالدّول المتقدّمة لديهم من المرتكزات ما تَحقّق قبل وقته نتيجة التفكير المسبق به وحتى تحقيقه، أمَّا تفكيرهم في اليوم نفسه؛ فهو منصبّ على المستقبل وما يجب أن يكون وفق رؤيتهم إليه، وهذا الأمر يدعونا إلى إعادة النّظر من أجل البحث ومواصلة الوقوف في أماكن جديدة، نكون فيها عند مرحلة جديدة، نستطيع من خلالها المواصلة والدّيمومة وإن كان الحضور في كثير من الأحيان بعيدًا عن الطموحات المرجوة.

إنَّ استنهاض الخوف يسهم في جعل صناعة المستقبل متوافقة مع الماضي؛ لأنَّ الماضي هو المؤسّس للمستقبل، والمستقبل هو الحلّ لكلّ منغصات الماضي؛ لذا نجد أنَّ هذه العمليَّة مرتبطة بعضها مع بعض في حالة مستمرّة، ممّا يطرح وجود ارتباط لابدّ من أن يكون دائمًا بالحسبان؛ لأنَّ

التشكيل العام للحياة ينذر دائمًا بوجود هذا الارتباط، ممّا يكفل بوجود نهاية ملبِّية للبداية التي كانت سببًا في صناعتها[57].

درء المخاطر:

يتّسم العصر الذي نعيش فيه بامتلاك القوّة حتى يمكن القول أنَّه أشبه بغابة كبيرة لا سيد فيها إلَّا القوّة، ممّا يجعل المعضلة الحقيقيَّة سقوط كلّ المعايير التي من شأنها أن تكون سيّدة وحاضرة بين النَّاس جميعًا، فالأخلاق والأعراف والقيم ليس لها مكان؛ فانتفاؤها يمنح القوَّة الغاشمة المكانة المتقدِّمة، فتُختزل الحياة بهذه المفردة التي تقود النَّاس نحو نهاية بائسة يراد منها الخنوع والذلّ والهوان، ممّا يكتنف الحياة تصورات بعيدة عن البيِّنة التي يمكن أن تكون للنَّاس؛ فتسقط الاختيارات التي تمنحهم الحرّيَّة في التعبير أو اتخاذ القرار أو المكوث داخل أيِّ دائرة يريدونها، وهنا تكون الوقاية عاملًا من عوامل النَّجاة الذي يكون من خلاله الحصول ولو على أدنى شيء وهو البقاء بعيدًا بحرّيَّة وكرامة عن يدّ البطش والجبروت؛ فالوقاية يرتسم فيها الانكفاء عن كلّ ما يسقط أوراق الحياة الكريمة ويبدّد الحياة، ويدخلها في متاهات لم تكن بالحسبان.

ولذا فإنَّ درء الخطر في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع يتطلّب عمليَّة تحدِّيث مستمرّة تكون مواكبة لكلّ التطوّرات الحاصلة في العالم في جميع الجوانب؛ فيكون التدافع والتّتابع المعرفي من الأوَّلويّات التي تكون الشّغل الشّاغل؛ ذلك أنَّ أيِّ توقُّف أو تراجع يفتح ثغرات في هذا الحصن الذي

[57] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، شركة الملتقى، بيروت، 2011م، ص 67 . 80.

يكمن وراءه كلّ قوّة يمكن أن تكون، وكذلك التّبعات التي تحدث، لها دور مهمّ في خلق حالة من الاستدراك لكلّ المنجزات التي حصلت؛ فتكون نقاط العودة متسارعة تبحث عن نقطة الصّفر التي ينتهي كلّ شيء عند أعتابها، ويكون درء الخطر بكلّ تجلّياته حاضرًا في مشاهد متعدِّدة يكمن فيها البحث عن تقوية الضّعفاء الذين يمثّلون في حقيقة الأمر النّقطة الأضعف، هذه النّقطة يجب أن يكون لها مكان خاصّ يتناسب معها من أجل إعدادها إعدادًا جديدًا ينقلها إلى مكان جديد تستطيع أن تكون فيه قوّة فاعلة في الاعتراض على المظالم، هذا الاعتراض في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع يحيلهم إلى قوّة تنويريّة جديدة يكمن فيها الرَّفض والتعبير الجديد المرتبط بحيثيات متناوبة يستشفُّ منها البحث عن الخلاص والابتعاد عن كلّ إهانة تهيّأً وتأهّبًا للتدافع الحقّ، أمّا إذا لم يكن الأمر كذلك وارتضى الضّعفاء بالمظالم التي تلحق بهم، ولم يحرِّكوا ساكنًا فلا داع أن يعترضوا على المظالم إذا ما لحقت بهم؛ ذلك أنَّ الحياة بكلّ تداعياتها تطرح كلّ الثنائيّات التي يكمن فيها التحقّق على مستوى النَّاس جميعًا، إلَّا أنَّ التمثّل لهذه الثنائيّات وجعلها أمرا محتّمًا دون محاولة خرقها أو تغييرها أو حتى البحث عن أسباب التغيُّر يعدُّ ضربًا من العبثيَّة الحقيقيَّة التي يكون ما بعدها خرابًا مستديمًا، وحتى لا يرتقي الإنسان فيها إلى الدَّرجة التي يجب أن يكون عليها وهي محاولة البحث عن حلٍّ لتأزُّماته المختلفة.

وهنا يطرح درء الخطر سمة اعتباريّة لمن يمتلكه، هذه السّمة لا تأتي من فراغ؛ فهي مبنيَّة على الإقدام الذي يمثّل الخطوة الأولى؛ فالنّكوص والتباطؤ في معظم الأحيان تكون نتيجته وبالًا؛ فالحياة في جميع جوانبها تسير ضمن

إيقاع سريع من التطوّرات الهائلة التي تظهر يوميًّا، وكلّ يوم يختلف عن سابقه؛ فيكون الإلحاق والدّفع سمة ثابتة لا يمكن التفريط بها، حتى أنَّ مفردة (درء الخطر) وما تعنيه لا يكون مدلولها في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع واحدًا، إنّما يكون مدلولها متغيّرًا مواكبًا للحياة ومتطلّبات مشبعاتها المتغيّرة والمتطوّرة عبر الزَّمن؛ ولذا فالتغيّرات المتعدِّدة تطرح سمة جديدة أو إحالات جديدة يكون الانفتاح فيها تابعًا لصيرورة متوالية، وهذا يخلق حالة من الإرباك في دائرة الممكن لكنَّه لا يدخل دائرة السّلب فيها، بل هو يدخل في دائرة الإيجاب؛ ذلك أنَّ الإرباك أو حتى الشَّكّ المستمرّ يخلق حالة من التّتابع لكلّ ما يجري؛ فتكون الغفلة معدومة أو حتى لا يكمن وراءها تبعات لا ترتقي إلى مستوى الفشل الذّريع، وبعدها يكون درء الخطر متجدِّدًا مع الحياة ويكتسي دائمًا بما يمنحه صلابة وبريقًا، هذا الأمر كلّه يدعو إلى بلورة أفكار جديدة قوامها الاتكاء على عناصر متجدِّدة يفوح منها التحدِّيث الواقعي الذي يبصر الفكر ويمنحه مديات بعيدة، هذه البلورة يكون من ورائها في دائرة المتوقَّع وغير المتوقَّع خلق أساليب متعدِّدة ومتنوِّعة تكسب درء الخطر مرونة جديدة تضاف إلى ما هو عليه؛ ولذا فنحن نرى إنَّ ثوابت الحياة يمكن أن تتغيَّر أو تتبدَّل أو حتى أن يضاف لها ما يضاف وفقًا لِما هو متوقَّع ولِما هو غير متوقَّع، أي بحسب القراءة المستقبليَّة التي يكون فيها إجراء عمليَّة تصحيحيَّة لكلّ ما يمكن أن يُعدّ من الثّوابت في دائرة الممكن.

وعليه: كلّما كان هناك فراغ سياسي، أو فراغ اقتصادي، أو فراغ أمني، كلّما حفّز الآخرين الذي يمتلكون القوّة على ملئه؛ ولذا فإنَّ درء الخطر في دائرة الممكن يؤدّي إلى بلوغ الحلّ الذي يحفظ البلاد وسياستها

واقتصادها ومجتمعها من الاعتداء والعدوان؛ ومن هنا فإنَّ إعداد العدّة واجب، بل هو أمر للعباد من الله تعالى؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}[58]، فكلّمة (أعدّوا) تحمل في مفهومها ممّا تحمل من دلالة قوا أنفسكم وبلادكم وحدودها وما تملكون من ثروات وهويّة أمتكم من الاعتداء الظَّالم، فالوقاية كما يقولون خير من العلاج.

ولذا فإنَّ الاتجاه الوقائي هو درء الخطر في دائرة الممكن المتوقَّع يستوجب العمل على تحقيق الأمن الغذائي وإلَّا سيكون المجتمع معرّضًا للمجاعة أو الفقر أو الحاجة، وفي دائرة الممكن قد تكون القوَّة قمحًا في مقابل قوَّة نقديَّة لشرائه، وفي دائرة الممكن من يمتلك القوَّة المالية بإمكانه أن يتعاقد مع الذين يستزرعون أراضيهم قمحًا لسنوات، ولكن في دائرة غير المتوقَّع إذا ما احترق القمح أو أُحرق وفقًا لسياسة من يمتلك القوَّة تصبح عقود الفقراء في مهبّ الرِّيح، ويصبح ما يمتلكونه من نقود لا يشبع حاجاتهم من الطّعام؛ ولذا فمن أراد وقاية من هذه المخاطر وما يماثلها فعليه أن يستزرع أرضه قمحًا أو يستزرع بدلًا نافعًا، وإلَّا سيكون خير من يحافظ على ضعفه الذي يجعله في حاجة لمن يمتلك القوَّة التي بها قد يساوم على حرّيَّته وحرّيَّة بلده وما يتعلّق به من أمر، ممّا يحفّز الأقويَّاء إلى التدافع من أجل الاستفادة من خيرات الوطن وثرواته المتعدِّدة والمتنوّعة.

---

[58] الأنفال 60.

إذن الذي يمتلك القوّة الغذائيّة بفائض يمكن تصديره للذين لا يمتلكونه سيظل مخيفًا للذين هم في حاجة إلى استيراده وبخاصّة إذا قرّر حرمانهم منها بأسباب احتراق القمح أو بأسباب أخرى، منها الضّغط السِّياسي من أجل تقديم الكثير من التنازلات على حساب الثّروة أو الحرّيّة والكرامة، وهنا سيظل الضّعيف ضعيفًا في هذا الاتجاه إلى أن يتمكّن من امتلاك مقاليد القوّة التي تجعله منتجًا مماثلًا للذي كان يحتكر الإنتاج ويهدّده بين الحين والحين، وسيظل المخيف مخيفًا إلى أن يمتلك الخائف حرّيّته وثروة وطنه ويتحوّل من خانة الاستهلاك إلى خانة الإنتاج حينها يدخل في إعداد العدّة، ويصبح مرهبًا للذين كانوا يعتقدون أنَّهم وحدهم القادرون على الإنتاج واحتكاره، وحينها يُحسب له ألف حِساب ويُعتبر ويُقدّر ويتمّ الاعتراف به مع فائق الاحترام، وهنا فمن لم يفكّر فيما يُفكِّر فيه أكثر من مرّة؛ فلا شكّ أنَّه سيكون في دائرة الممكن معرّض لِما هو متوقَّع ولما هو غير متوقَّع ومن لم يق نفسه من المفاجئات لا يستغرب إنْ ألمَّ به ما ألمَّ[59].

العقل فكرًا لا للمظالم:

المظالم لا تكون إلَّا نتاج عقل؛ ولهذا فلعقل كما ينتج الفكرة لصناعة المستقبل يمكنه أن ينتج فكرًا فيه من المظالم ما فيه؛ ولهذا كان مقصدنا بحثًا كيف يمكن للعقل الإنساني أن يصنع مستقبلًا بلا مظالم.

ولذا فالمستقبل السّعيد كلّ النَّاس تأمله، ولكن الفرق أنَّ البعض يعمل على صُنعه والبعض ينتظره زمنًا، فالذي يعمل على صُنعه يأتي إليه وهو قد

[59] عقيل حسين عقيل، خريف السلطان (الرحيل المتوقع وغير المتوقع) شركة الملتقى، بيروت، 2011م، ص 175 . 181.

صنعه فكرًا وتدبُّرا؛ فأنتج فوجد، أمَّا أولئك المنتظرون سيظل الزَّمن أمامهم مستقبل وهم يتمنون؛ ولهذا فالفرق كبير بين من يأمل ويعمل على بلوغ مأموله، وبين من يتمنى فيبقى في أمانيه ساكنًا.

النَّاس كلّ النَّاس هم بين مأمولٍ ومتمنٍ، ولهذا فهم مختلفون وسيظلون كذلك؛ فالذين يأملون يعملون ويسعون إلى معرفة وإنجاز المزيد، والذين يتمنون سيظلون يتمنون، ولهذا يُصنع المستقبل بلا مظالم، لأنَّ صُنعه بيد النَّاس فلِمَ لا يعملون؟

صُنع المستقبل يؤسّس وطن فيه المواطنون يسودون دون سيادة مظالم، الرّجل والمرأة والصّغير والكبير هم رأس مال الوطن، ممّا يجعل ثروة الوطن ملك للجميع، والتعليم حقّ للجميع، والصّحة حقّ للجميع، والخدمات المتميّزة حقّ للجميع، والأمن حقّ للجميع، وأداء الواجبات حقّ على الجميع، وحمل المسئوليَّة عبء يحمله الجميع، وكلّ وفق قدراته واستعداداته ومهاراته وتخصّصه وتأهيله وصلاحيّاته واختصاصاته، مع تقديم أفضل رعاية للمعاقين والعجزة والمرضى وإعالة ورعاية من لا عائل لهم ولا راعٍ.

الحكومة والمجتمع المدني في حالة شراكة؛ فكلّ واحد ييسّر للآخر أعماله وكلّ واحد يقوم بمهمَّة المراقبة على الآخر، ممّا يجعل ممارسة الحرّيَّة بأسلوب ديمقراطي ماثلة بين يدي النَّاس يمارسونها بكلّ شفافيَّة، مع وافر الرّقابة المتبادلة بين مكوّنات المجتمع المدني والحكومة التي يتمّ اختيارها خبرة ودراية ومهنة وتخصّصًا ومكانةً اجتماعيَّة وإنسانيَّة رائدة، وكلّ ذلك لا يتمّ إلَّا تحت مظلّة الدّستور وما يتفرّع منه من قوانين ونظم مشرّعة. ولا يتمّ

الإغفال عن أهمِّيَّة المجال الاجتماعي العام الذي تتشكّل فيه الجماعات الخيريّة والتطوّعيّة والخدميّة والإصلاحيّة والاتحادات والرّوابط والنّقابات العامّة.

ونظرا لأهمِّيَّة المجال الاجتماعي العام في ممارسة الدِّيمقراطيَّة وتحقيق الأمن فإنَّه يستطيع أن يقوم بما لا ينبغي أن تقوم به الدّولة؛ فالدّولة من خلال الحكومة لا تستطيع أن تتحوّل إلى نائبة عن الشَّعب؛ فالحكومة إذا وضعت نفسها في كلّ مكان في الدّولة، وعملت على تغييب الشَّعب فلن تجد لها مكاناً[60].

ومن ثمّ يصبح دور أجهزة الأمن لم يعدّ ذلك الدّور التشكيكي في المواطنين، بل دورها يصبح كيف تغرس الثّقة في المواطنين، وكذلك لم يكن دورها مطاردة المنحرفين لمعاقبتهم، بل دورها من أجلهم جميعًا بغاية الإصلاح ثمّ أحدَاث النُّقلة في نفوسهم من أجل مستقبلٍ أفضل، وهكذا سيكون دور رجال البوليس احترام المواطنين وتقدير ظروفهم وتفهُّم أحوالهم، أي العمل بشكل وثيق مع المواطنين لتحسين مستويات الجماعة المحليَّة والسُّلوك المدني واستخدام الثَّقافة والاقتناع والتشاور بدلًا من توجيه الاتّهامات بغير حقّ؛ ولذلك تسنّ القوانين التي ترشد إلى ما يجب وتنهى وتحذِّر وتحرّم ما لا يجب، ثم تعاقب دون مظالم؛ ومن هنا تصبح تقويّة القانون ضرورة من أجل ممارسة الحرّيَّة وبكلّ شفافيَّة.

---

[60] المصدر السابق. ص 130.

وفي مقابل ذلك من أهم الأدوار التي يجب أن تمارس دون غفلة هو دور الأسرة في رعاية أبنائها؛ فتشرُّب القيم الحميدة والفضائل الخيّرة من مهام الأسرة أوّلا، وثانيًا التعليم الذي له من الأدوار ما يجعله المنقذ والمرشد؛ فلم تعدّ أهداف التعليم مقتصرة على تعليم الأجيال كيفيَّة المحافظة على الأعراف والتقاليد الحميدة، بل أنَّها تتجاوز ذلك إلى تعليم الأجيال كيفيَّة دخولهم مجالات الاقتصاد الحديث، وكيف يتمكّنون من التغيير؟ وكيف يفكّرون؟ وفيما يجب أن يفكِّروا؟ أنَّه التعليم المؤسّس على المعرفة الواسعة التي من معطياتها (فكّر وأنت تفكّر).

فالدّولة الدِّيمقراطيَّة هي دولة صناعة المستقبل الذي فيه الرَّفاهيَّة قصدًا، ولهذا فالدّول التي ترتفع فيها ظاهرة الجريمة والانحرافات السُّلوكيَّة بمختلف أنواعها ودرجاتها لا يمكن أن تعيش مجتمعاتها الرَّفاهيَّة حتَّى إن ادّعت الدّولة التي ينضوون تحتها بأنَّها دولة الرَّفاهيَّة. فدولة الرَّفاهيَّة هي الدّولة التي يمتلك مواطنوها أمر السِّيادة الوطنيَّة، ويمارسون حقوقهم بإرادة، ويؤدّون واجباتهم بإرادة، ويتحمّلون مسؤوليَّاتهم بإرادة، ومع ذلك لا يمكن أن يعيش الأفراد حالة الرَّفاهيَّة إلَّا إذا كانت حاجاتهم مشبعة، ونفوسهم آمنة مطمئنّة؛ فالرَّفاهيَّة كما قال عنها أنطوني جيدنز هي: "في جوهرها ليست مفهومًا اقتصاديًّا ولكنَّها مفهومًا نفسيًّا يهتم بالحياة الأفضل"[61]. وبما أنَّها ذات مفهوم نفسي فلا يمكن أن يعيشها المرضى والشحَّاتون الذين يملؤون شوارع

[61] أنطوني جيدنز، الطريق الثالث " ترجمة مالك أبو شهيوة، ومحمود خلف". طرابلس: دار الرواد، 1999م ص 165.

المدن في كثير من البلدان، ولا يمكن أن يعيشها التُّعساء الذين تسطير عليهم هموم ارتفاع مستوى المعيشة في مقابل فقدانهم لما يشبع الحاجة.

ولأجل التغيير من حالة التّعاسة إلى حالة الرَّفاهيَّة ينبغي إلَّا يكون التركيز على تقديم المساعدات؛ فالاستمرار في تقديمها يجعل الاتكال والاستمرار في طلبها مستمرًّا.

والرَّفاهيَّة نسبيَّة، فما يمكن أن يحقّق الرَّفاهيَّة اليوم قد لا يكون عنصرًا أساسيًّا في تحقيقها مستقبلًا؛ فالحاجات متطوّرة ومتنوّعة ورغبات البشر كذلك متنوّعة ومتطوّرة، وهذه بدورها ذات علاقة قويَّة بمدى تحقيقها لمجتمع الرَّفاهيَّة من عدمه، ولهذا ستظل الرَّفاهيَّة أمل بالنّسبة إلى النَّاس كما هم يأملون بلوغ السّعادة[62].

استجلاء العقل فكرًا واستنارة:

الاستنارة هي استجلاء الاستظلام وبقاء النُّور مرشدًا، لمن شاء الاهتداء بنوره؛ ومن ثمَّ تزاح العتمة التي تحول بين نفاذ النوُّر ومن هم في حاجة إليه؛ حتى يسترشدون.

ومن هنا علينا أن نميّز بين المفاهيم الثّلاثة (الاستنارة- الاستظلام- الاستجلاء):

. الاستنارة: أخذٌ مِن نُورٍ وليس مِن ضوءٍ.

. الاستظلام: أخذٌ مِن ظُلمةٍ وليس مِن ظُلمٍ.

[62] عقيل حسين عقيل، ربيع الناس من الاصلاح إلى الحل، القاهرة، 2011م، ص 196 . 220.

ـ الاستجلاء: أخذُ من تجلٍّ وليس مِن إجلاءٍ.

ولهذا فإنَّ الضَّوء يزيح الظُّلمة من حوله، أمَّا النُّور قطعًا أينما حلَّ لا تحلّ الظُّلمة؛ وهكذا بالتمام يصبح الاستجلاء وضوحًا من بعد نور، وفي المقابل يوجد الاستظلام عندما يغيب الاستضواء؛ ولذا فنحن بحثًا نميّز بين المفاهيم المتضادة (الظَّلام مقابل الضَّوء) أمَّا (الاستظلام فمقابل الاستضواء).

وبناء على ذلك لا يمكن أن يكون مفهوم الاستضواء هو بالتمام مفهوم الضَّوء؛ ذلك أنَّ الضَّوء يدل على وجود مصدر للإضاءة، أمَّا الاستضواء فيدلُّ على الانشراح والتجلّي في ذات الشَّيء سواء أكان قمرًا أم زيتًا أم شخصًا.

ومع أنَّ الاستنارة استمداد النُّور من مصادر نوره، فإنَّها لا تكون إلَّا عن علمٍ أو دراية، ومع ذلك العلم ليس بالدِّراية؛ فالعلم لا يكون إلَّا من عليمٍ أو عالمٍ، أمَّا الدِّراية فلا تكون إلَّا من دارٍ ومدرٍ، ومن هنا علينا أن نفرِّق بين مفهوم الدَّاري، ومفهوم المدري.

ـ الدَّاري: مصدر الدِّراية؛ إذ لا شيء يُدرى به إلَّا من عنده.

ـ المدري: الذي ألم بالدِّراية.

المدرى: الذي تمت درايته من الدَّاري.

المدرى به: النبأ أو الرِّسالة أو العلم أو الحكمة أو الأمر (أيُّ أمر).

وعليه: فإنَّ الفارق كبير بين مفهوم الاستنارة، التي لا تكون إلَّا عن استجلاءٌ بيّنة ورؤية؛ حيث لا استظلام، وبين مفهوم الإنارة التي لا تكون إلَّا في وسط ظلمة.

ومن ثمَّ فإنَّ مفهوم الاستظلام ليس بمفهوم الظُّلمة؛ ذلك أنَّ الاستظلام لا يعني إلَّا انعدام المعرفة الواعية، التي كما تمكّن من التمييز تمكّن من الاتباع أقدامًا أو إحجامًا.

إذن فمفهوم الاستظلام يعني ممّا يعنيه عدم الوضوح، ولهذا فعدم الوضوح يتطلّب استنارة، سواء أكانت الاستنارة بحُجَّة أم برهانٍ أم بدليلٍ، أمَّا الظلمة فلا تزول إلَّا بضوءٍ؛ ولذا فحال الاستظلام كحال من تاه في الصَّحراء نهارًا وقد دار رأسه، فلم يستطع أن يميّز بين الاتجاهات وكأنَّ الشّمال ليس بالشّمال، ولا الجنوب بالجنوب، وهكذا استظلم الأمر عليه فلا يستطع أن يميز بين اتجاهي الشّرق والغرب.

ومن ثمَّ نقول: إنَّ الاستظلام حيرة عقليَّة ترهق عقول المفكرين حتى تقتنص عقولهم حلًّا يخرجهم من التأزُّمات، التي من بعدها سيرون الحقيقة ماثلة أمامهم وعيًا واستنارةً.

ولأنَّ الاستنارةُ لا تكون إلَّا عن وعيٍ ودرايةٍ؛ فهي ترشد إلى ما يجب اتباعه، وترشد أيضًا إلى ما لا يجب اتباعه؛ ومن هنا فالواعون لا يقدمون على مخالفة منظومة القيم التزمًا بقيدها خَلقًا، وفي المقابل عقول غيرهم ممن هم دونهم قيمًا لا تخشى قيد القيم، بل تقدم على كسره دون أن تنتظر وقتًا؛ وبذلك أحوالهم تتأزَّم، وعقولهم وأنفسهم تستظلمُ.

ومع أنَّ الاستظلام حيرةُ عقل، وعدم وضوح رؤية؛ فإنَّ الاستظلام ليس بتظلُّمٍ؛ ذلك لأنَّ التظُّلم اشتكاء بغاية طلب الإنصاف وسيادة العدالة، وفي المقابل الاستظلام التماس عذرٍ في زمن انعدام المعرفة الوافية.

إذن: الاستنارة بالشَّيء استدلال به واسترشاد، وفي المقابل الدِّراية إلمام تام بما يجب أن يكون ظاهرًا للمشاهدة أو مختبئًا للملاحظة؛ ولهذا فالدّراية حُجَّة بيِّنة (يقين)، أمَّا الاستنارة تبيُّن بالبيِّنة (عن يقين).

وعليه فمفهوم الدِّراية يدلُّ على الإلمام التام ولا شيء مجهول، وفي المقابل مفهوم العلم يدل على المعرفة النسبيَّة، أمَّا الاستنارة فهي نتاج النسيج علمًا ودرايةً؛ ولهذا فمعارف المستنير وعلمة أوسع من معارف المتعلّم وعلمه؛ ومن هنا فالمستنير هو من المَّ بعلم الدِّراية حتى تغيَّرت أحواله وفقًا لما هو متوقَّع وغير متوقَّع؛ ذلك لأنَّه أصبح يدري بكلّ ما ألمَّ به، أمَّا المتعلّم فمهما تعلّم فلن يدري إلَّا تخصُّصا في دائرة المتوقَّع؛ أي إنَّ العلم والتعليم لا يخرج عن دائرة المقررات المنهجيَّة، أمَّا الدِّراية فلا تقف عند حدّ العلوم الممنهجة، بل تتجاوزه إلى كلّ ما من شأنه أن ينير العقول والأنفس؛ ومن هنا أيضًا فإنَّ المدري على مقدرة لإنارة عقول الغير كما هو حال الأنبياء الكرام الذين دروا وأدروا.

إذن: العلم سيكون معرّضًا إلى النسيان والتبدّل، أمَّا الدّراية فلا نسيان؛ وذلك أنَّ العلم يلامس العقل، أمَّا الدِّراية فتلامس العقل والفكر معًا؛ ولهذا متى ما تمكّن الإنسان من الدِّراية تغيّرت نفسه وتغيَّرت أحواله، وفي المقابل المتعلّم يمكن أن تتغيَّر أحوله ولكنَّ نفسه قد لا تتغيَّر.

ولمزيدٍ من التوضيح أقول:

. العلم لا يزيد عن كونه ملاحقة بين معلومٍ حاضر ومعلومٍ مفترض، أمَّا الدِّراية فتلاحق المعلوم والمجهول بالمرتقب يقينًا؛ أي في الوقت الذي يلاحق العلم فيه الجهل ليحل محلّه، تلاحق الدِّراية فيه الأميَّة لتحل محلّها.

ولهذا فعندما تظل الشُّعوب منتظرة لاستيعاب الثَّقافة بغاية كسر قيدها، فإنَّها ستكون في حاجة لمزيدٍ من الوقت؛ وفي المقابل عندما تعي الشُّعوب الحقيقة تُصبحُ قادرة على تجاوز الواقع واحدَّاث النُّقلة؛ ومن ثمَّ فزمن الانتظار لن يجد مكانًا له ليحلّ فيه أمام الدّراية التي بتجاوزها لزمن الأميَّة تتجاوز زمن الثَّقافة والوعي؛ فالدّراية تجاوز معرفي لكلِّ ما من شأنّه أن يوصف أميَّة، وهي التي تحدثُ النُّقلة من معرفة الممكن ولو كان صعبًا إلى معرفة المعجز والمستحيل.

ولذا فالمستنيرين متى ما كشفوا حقيقة حُكَّامهم على المفاسد، ثاروا على زمنهم بلا رأفة، وطووا صفحاتهم وعيًا واستنارةً، ومع أنَّ الثَّقافة استنارة عقلٍ، فإنَّها أمام العقل قيدٌ على ما ينبغي اختياره والإقدام عليه، وما لا ينبغي اختياره والإحجام عنه؛ ومن هنا فعندما تغيب الدّراية يصبح زمن الانتظار معطية من معطيات الأميَّة التي لا تملَّ من الانتظار وإن طال زمنه، ولهذا فالزَّمن قادرٌ على قيد الأميَّة وتجاوزها وعيًا، أمَّا الأميَّة فلا إمكانيَّة لها بذلك؛ ذلك لأنَّ أهل الأميَّة غير قادرين على أحدَّاث النُّقلة وصُنع المستقبل أملًا ومأمولًا.

ولأنَّ الوعي استنارة لا يقيده الزّمن فهو العقل ولا قيد عليه، وفيه يتساوى الأمي معرفة مع من يدري ويتدبَّرَ؛ أي يتساوى الأمي فيه مع من تعلّم وتثقَّف ودرى؛ قال تعالى: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}[63]، في هذه الآية الكريمة ارتبطت الأذن مع الوعي ولم تستقلّ عنه، وهنا فهي الأذن المميّزة لما تسمعه أو تنصت إليه؛ إنَّها المميزة بين المسموع معرفة والمتجاوزة له؛ كونها الأذن الواعية التي لا تأخذ بالمسموع إلَّا دراية.

ولأنَّ الوعي يُمكّن من معرفة الحقيقة المراد البحث عنها، فإنَّه المؤدّي إلى الفطنة الممكِّنة من التمييز واتخاذ القرار المناسب حتى وإن كان صاحبهُ أمّيًّا، فالحقيقة كما يلمّ بها الأمي ويعرفها يلمّ بها كلًّا من المتعلّم والمثقّف ويعرفانها، وبخاصّة في الزّمن الذي لا شيء فيه يُخفى؛ إذ كلّ شيء على البلاطة.

والوعي لا يقتصر على المتعلّمين والمثقّفين، بل الأميون لهم من الفطنة ما لهم؛ ذلك لأنَّ الوعي والفطنة لا يقتصران على من تَعلّم، فمع أنَّ المتعلمين تحصَّلوا على رخص قيادة (شهادات ومؤهلات جامعيّة وعليا) فإنَّ بعضهم لا يستطع أن يقود ما رُخِّص له قيادة وسط الازدحام.

ولهذا فالوعي ليس دائمًا مولود تعليمٍ، فمن المتعلّمين مَنْ لا ثقافة لهم ولا وعي ولا دراية، وفي المقابل من الأميين ما لهم من الحكمة والمعرفة ما لهم، ومع أنَّ كيفيَّة البحث والتقصي عن الحقيقة في المدارس والجامعات منهجيًّا تُعلّم، فإنَّ الحقيقة عبر التَّاريخ تروى وتسمعها أذنٌ واعية.

---

[63] الحاقة: 12.

ومع أنَّ الأذن الواعية تسمع فتتعظ وتتدبّر، فإنَّ الأذن غير الواعية وإن سمعت فإنَّها لا تتعظ ولا تتدبّر؛ ولهذا جاء قوله تعالى (وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ)، ففي هذه الآية الكريمة جاء الوعي مرتبطًا بالسّمع ولم يأتِ مرتبطًا بالأذن السَّامعة؛ إذ جاء ارتباط الأمر بالسّمع وليس بالأذن؛ ذلك لأنَّ الوعي مقدرة على التمييز بين ما يجب وما لا يجب أخذًا وانتهاء.

ومع أنَّ الأذن في دائرة الممكن تسمع ما يقال أو تستمع إليه، فإنَّ الأذن الواعية لا تأخذ بكل ما تسمعه، فهي وإن سمعت قادرة على الغربلة والتفحّص والتمييز؛ ولذا فبمعرفة الحقيقة يستوي وعي الأمّي مع وعي من تعلَّم وتثقّف ودرى؛ ومَن غفل منهم بأيّ علّة فقد استوى في غفلةٍ مع غيره؛ ومن هنا فالعقل قيد أمّيَّة ودراية.

ولذا فالعقلُ دراية هو تلك الحيويَّة المستنيرة وعيًا، وهو الذي يعلم بالشَّيء بعد أن كان لا شيء وكان مجهولًا، كما أنَّه يعلم الحكمة التي تُخفي من ورائها سرًّا.

والعقل دراية ليس ذلك العقل الممنهج برؤية تعليميَّة وثقافيَّة، بل هو ذلك العقل المتجاوز لدائرة الممكن تحدٍّ وخوارق، إنَّه العقل الممكَّن من دخول دائرة المعجز؛ ومن هنا فالأنبياء والذين يلمُّون بالمنزّل ويؤمنون به هم أصحاب العقول الدَّارية.

ومع أنَّ الدِّراية عمليَّة عقليَّة فإنَّ مَن تمكَّن منها تمكَّن من طي صفحات الأميَّة إلى الأبد، ومع أنَّ الدّراية لا تُعلّم فإنَّ علومها تُعلَّم؛ فذلك النَّبيّ الأمي محمَّد -عليه الصَّلاة والسَّلام- بعد أن أعلمه الله بالمعجزات

أصبح نبيًّا يعلم ما لم يعلمه غيره، ومن هنا أصبح محمَّدًا نبيًّا ومعلّمًا يعلم ويعلِّم غيره ما أُنبأ به إنباءً.

ومن ثمَّ فالذي لا يعلم بالشَّيء لن يكون له من الشَّيء شيئًا به يدري؛ ولهذا فلا علاقة بين الأمّيِّ وعدم معرفة القراءة والكتابة، فهذه العلاقة لا تكون إلَّا بين الجهل والتعلُّم، أو بين التيه والمعرفة، أمَّا الأميَّة فليس لها علاقة إلَّا بعدم الدِّراية.

وعليه: إنَّ الأميَّة حالة غير دائمة وهي قابلة للمحو من عقول الجميع في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، فمن يكن أمّيًّا يمكن أن يصبح في دائرة الممكنِ عالـمًا فلا استغراب؛ وإذا كان بالعلم تستنير العقول وتطمئن الأنفس والقلوب، إذن فما بالك باستنارة النبأ اليقين الذي نسخ أميَّة محمَّد بعد أن أمره الله بقوله: (اقرأ) فقرأ باسم الله ما لم يكن يقرأ ويعلم؟!

ومن هنا فالإنسان الذي يعرف ليس بالضرورة أنَّه يدري، فعلى سبيل المثال: الأميون مع أنَّهم يعرفون ما يعرفونه من شئون وأمور فإنَّهم لا يدرون بقوانينها، ولا يدرون بالأسرار التي تختفي وراءها، وهكذا العلم لا يكون إلَّا في مواجهة الجهل ممّا يجعل المتعلّمين يعلمون ما يعلمونه ولكنَّهم مهما علموا فهم لا يبلغون علم الدّراية الذي وحده يُمكِّن من معرفة الحكمة وما تخفي مِن ورائها مِن سرٍّ.

ولذا فالنَّبيّ محمَّد قبل الرِّسالة لا دراية له بها (أمّي)، ومِن بعدها أصبح يدري (نبيّ)؛ ومن ثمَّ فمفهوم الدّراية يدلُّ على: (الإلمام بعلم اليقين؛ حيث لا شيء يخفى، ولهذا فالأميَّة قيدٌ وهي أعظم أثرًا من الجهل.

وعليه: فإنَّ علم الدّراية لا يأتي إلَّا من خارج العقل؛ ومن ثمَّ لا يمكن أن يكون من بناة أفكاره؛ فعلى سبيل المثال: أمر الوحي الموحى لا يأتي إلَّا من خارج العقل (من السّماء إلى الأرض)؛ ولأنَّه يأتي من خارج العقل إليه من السَّماء فلا أحد يعلم أو يعرف أو يدري شيئًا من ذلك؛ ولهذا فالكل أميٌّ بأمر السّماء، وما محمَّد إلَّا واحدٌ من الأميّين بأمرها إلى أن أعلمه الله، وأنبأه بالأمر: (كن)، فكان محمَّدٌ قارئًا بالأمر: (اقرأ) فقرأ.

ولأنَّ محمَّدًا لم يعد أمّيًّا بأسباب امتلاكه الدِّراية بعد أن قرأ دون سابق قراءة، فيجوز له حقّ النّهي عن المنكر وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}؛ ولذا عندما كان محمَّدٌ أمّيًّا لم يُعط له هذا الحقّ، أو هذا التفويض، أو هذه الصلاحيَّات كما تسمى لدى البعض تحت مظلة لغة العصر، وإلَّا هل يُقبل أن يكون أمر التصرّف بأمر الطَّاعة بيد من لا يعلم الأمر ومعجزاته؟ وهل يُقبل التحليل والتحريم والنّهي ممن لا يعلم بما يأمر أو ينهى أو يُحَلِّل أو يُحرِّمُ؟

هنا أقول: بالطّبع، لا.

فمحمَّد -صلّى الله عليه وسلّم- بعد أن قرأ بأمرٍ من الله -تعالى- فهو القارئ وليس الأميّ، أي إنَّ محمَّدًا قد كسر قيد الأميَّة؛ ولهذا لم يعد حاله كما كان قبل الرِّسالة، وعليه فإنَّ الكلام أو التحدّث عن محمَّد قبل الرّسالة كلامٌ أو حديثٌ عن أميّ، والكلام أو التحدث عن محمَّد بعد الرِّسالة -صلى الله عليه وسلم- حديث أو كلام عن رسول يعلم؛ ولذلك علينا أن

نُفرِّق بين الحديثين والشّخصيّتين (شخصيَّة محمَّد الأميّ، وشخصيَّة محمَّد الرَّسول النَّبيّ الذي أصبح يَعلم) وإلَّا هل يُقبل أن يوصف النَّبيّ الكريم بالأميّ، ويوصف الذين آمنوا وتعلموا على يديه بالعلماء والحكماء؟!!

وكيف يُقبل أن يكون محمَّدٌ هو صاحب الرِّسالة الخاتمة للنّاس كافَّة ويقبل أن يوصف بالأميّ؟

وكيف لا نكتشف التناقض في الأمرين:

الأمر الأوَّل: أمرُ محمَّد الأميّ.

الأمر الثَّاني: أمر الذين تعلموا ممّا علّمهم به حتى أصبحوا علماء وحكماء؟

وعليه: هل يقبل أن يكون للرّسالة مرجعيّة ورسولها أميّ؟

إذن: كيف يُقبل أن يكون رسول الكافَّة أمّيًّا والنَّاس على يديه علماء وحكماء ويعلمون؟!

أقول: رسول الكافَّة ليس بأميّ، بل هو بما أُعلِمَ عَلَّم وبشَّر وأنذر وحرَّض وحلل وحرّم وأمر ونهى، وهو قبل الرِّسالة محمَّد الأميّ، وبعدها محمَّد رسول ونبي؛ ولذا فالفرق كبير بين محمَّد الأميّ الذي لا صلاة ولا تسليم عليه في زمنها، ومحمَّد الرَّسول النَّبيّ الذي يصلّي الله وملائكته عليه، ومن بعده يصلي عليه ويسلم المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين؛ قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[64]. الأميّون في هذه الآية الكريمة لا تعني الذين لا يقرءون ولا يكتبون، بل تدلُّ على أنَّ الأميَّة هي: (في دائرة النسبيَّة)، وإلَّا هل هناك من يصدّق أنَّ العرب جميعهم كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون وكأنَّهم قوم جهالة بالمطلق؟ هذا القول لا يستقيم إلَّا بعدم علمهم بالقرآن قبل نزوله على رسولهم الكريم صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا مع أنَّهم حقًّا أميّون إلَّا أنَّ البعض منهم يقرؤون ويكتبون؛ ولذا فهم بالنّسبة إلى الدِّين الجديد جميعهم أميّون، وأنَّ أوَّل من أُعلِمَ دراية هو رسولهم النَّبيّ محمَّد صلوات الله وسلامه عليه، الذي كان أمّيًّا قبل نزول القرآن، ولأنَّه أوَّل من أُعلم كان مكلّفًا بتلاوة القرآن عليهم وبتزكيتهم، وبتعليمهم الكتاب والحكمة بوصفهم كانوا أميّين بما أُنزل؛ ولأنَّه كذلك فكيف يحقّ لنا أن نصفه أمّيًّا؟

وعليه: فإنَّ الكلمة التي بها كُسِرَ وهمُ الأميَّة (اقرأ) لا يمكن أن يكون صاحبها من بعدها أميًّا.

ولتوضيح الفارق في المفاهيم أقول:

إنَّ الجهل لا يعني عدم المعرفة، بل يعني أن جزءًا كبيرًا من المعرفة غائبٌ؛ فالذي يعلم بمحمَّدٍ رسولًا، ولا يعلم عن رسالته إلَّا قولًا مسموعًا يعد جاهلًا، وليس بأميٍّ؛ ذلك لأنَّ الجاهل هو من تحوطه العلوم والمعارف والأنباء ولا يسعى إلى معرفتها.

---

64 الجمعة: 2.

أمَّا أهل الأميَّة كونهم لا يدرون بوجود ما يحوطهم فلا ينتبهون إليه ولا يسعون إلى معرفته؛ ولذا فهم على أميَّتهم لا يدرون؛ ومن ثَمَّ فهم أميّون بما يحوطهم وكذلك بما لم يولد بعد أو يخلق، ومن هنا نحن نجهل أمر ما خُلق ما دمنا لم نتعرَّف عليه بعد، وبعضنا جاهلٌ بما يعلمه البعض وسيظل الجاهلُ جاهلًا حتى يعلم ما عَلِمهُ غيره.

وهنا فالجهل لا يعني غياب المعلومة، بل يعني عدم البحث عنها والسّعي إليها، أمَّا الأميَّة فلا وجود للمعلومة على الأرض حتى نسعى إليها بحثًا واستنارةً.

ومع أنَّ الاستنارة تفتح آفاقًا واسعة أمام المدركات العقليَّة وعيًا ومعرفة واستقامة، فإنَّها تضع قيودًا على السُّلوكيَّات والأفعال التي كانت مِن قَبلها تُفعل وتُسلك بكل حريَّة وإرادة.

ولأنَّ الأميّ تحوطه الأميَّة من كلِّ جانب فلا يرى شيئًا سواها، ومَن تحوطه الاستنارة قيدًا فلا يرى الأيَّام والأعوام من بعدها إلَّا استقامة.

ومع أنَّ العقل الأميّ لا يُمكِنه أنْ يَرى ما يراه عقل المستنيرِ؛ فإنَّه في غيبوبة الأميَّة لا يُسأل عمَّا لا يدري كما يُسأل من يدري في صحوة واستنارة؛ ذلك لأنَّ الإنسان المستنير عقله متقصٍّ ومتفحّص للمعلومة بالمعلومة؛ ومن ثمَّ يستطيع أن يكتشف سرًّا كان يجهله، ثمَّ يستطيع أن يصحح ويقوّم المعلومة الخاطئة بالمعلومة الصَّحيحة والصَّائبة.

وعليه: فإنَّ العقل المستنير قادرٌ على التبيّن والتمكُّن من المعرفة الواعية التي تجعله قادرًا على معرفة الحقيقة، التي من بعد معرفتها يتقيّد استنارة بما يجب أخذه أمرًا ونهيًا.

ومن ثمَّ علينا أن نميّز بين العقل الأمّي الذي قيّدته الأميَّة عن غير دراية، والعقل المستنير الذي قيدته المعرفة وعيًا ودرايةً؛ فالعقل الأوَّل تقيّده حياة الفطرة أميَّة وشهوة، والعقل الثَّاني تقيّده حياة المعارف (حيطةً وحذرًا).

ولأنَّ الاستنارة قيدٌ، فإنَّ المستنيرين كما يتجنَّبون ما يؤلم أنفسهم يتجنبون ما يؤلم الغير؛ وبهذا فهم يميّزون بين ما يجب الأقدام عليه أو أخذه وما يجب تجنّبه والابتعاد عنه، وهم أيضًا بقراءتهم لعلوم المستقبل المتوقَّع يرسمون السِّياسات والخطط، ويعملون على إنجازها مع إصرارهم على إزالة ما يعيق سبيلهم من قيود تجاه الغايات المرجوة والمأمول نيلها.

ولأنَّ الاستنارة صحوةُ بصيرةٍ فهي لا تُبلغ إلَّا من بعد أنْ يُكسر قيد الأميَّة دراية، ومع أنَّ المستنير هو من كشف قيود الأميَّة وعمل على كسرها، فإنَّه بذات الاستنارة يُقيَّد؛ ذلك لأنَّ المستنير هو مَن بلغ مراتب المعرفة قمّة وبها تمكّن من قول: (نعم) لما يجب أن يقال له، وقول: (لا) لما ينبغي أن يقال له، وهذه لا تقال إلَّا عن مسئوليَّة؛ ولهذا فالمسئوليّة قيد على مَنْ حملها وتحمّل ما يترتّب عليها من أعباء جِسام؛ ذلك لأنَّ أقوال الإنسان المستنير وأفعاله وسلوكيَّاته يفترض أن تكون للغير مثالًا وقدوةً؛ ولهذا فإنَّ أخلاق المستنير قيدٌ عليه أمام نفسه والغير.

ومع أنَّ العقلَ حيويَّة إدراكيَّة تُمكّن من المعرفة والتمييز الممكّن من الاختيار إرادة، فإنَّه قيدًا ضابطًا للفكر والسُّلوك وفقًا للمعايير الأخلاقيَّة والقيميَّة وما تسنّه الأعراف والأديان والدّساتير والقوانين المنبثقة منها.

ولتلك الحيويَّة مستويات بشريَّة وإنسانيَّة؛ فهي على المستوى البشري لا تزيد عن كونها فطريَّة، أمَّا على المستوى الإنساني فتمتد إلى أن تصبح في دائرة الاكتساب أخلاقيَّة.

وعلى المستوى البشري خُلق الإنسان في أحسن تقويم، وعلى المستوى الإنساني كانت القيم عند البعض قمّة، وفي المقابل كانت عند البعض قاعًا.

وبين هذا وذاك كان الاختلاف على المستوى البشري تنوّعًا مغريًا للاختيار وفقًا للرَّأي والرُّؤية والرّغبة، وفي المقابل كان الخلاف بين البعض صدامًا واقتتالًا وأفعالًا مُرعبة؛ ولهذا أصبح العقل في حيرةٍ من أمره: هل يطلق العنان لجموحه البشري، أم يمسك لجامه إنسانيّة.

ومن هنا تصدّرت ملكة التفكير ذلك المشهد، ومع أنَّها المتصدِّرة لذلك المشهد العقلي حيويَّة، فإنَّها تترك للنّفس ما في غاياتها؛ تقديرًا للرّغبة والذّوق، فتجعلها بين خيارات متعدّدة لتختار ما تشاء، ووفقًا لاختياراتها تتحمّل المسئوليَّة وما يترتّب عليها من أعباء جسام (ثوابًا وعقابًا).

ومع أنَّ العقل ملكة التفكير للنّفسِ، فإنَّه لا يلزمها بما لا تشتهي، أو ما لا تحب ولا ترغب؛ فالعقل بلا إكراه مصدر الخيارات سالبها وموجبها، والنَّفس بين هذا وذاك تختار؛ ومن هنا فاختيارات النَّفس ورغباتها تتنوّع، وصفاتها تمتدُّ لينة وشدّة.

ولأنَّ النَّفس مليئة بالأمزجة والشَّهوات، فإنَّ أنا النَّفس في كثير من الأحيان يتحفّز ظهورًا على حساب الغير؛ ومن هنا في ساعة ولادة أقوال الإكراه وأفعاله يتواجه الإكراه والقمعِ مع الرَّفض والثّورة.

ومع أنَّ النَّفس هي التي يتمّ قيدها، فإنَّها ذات أثرٍ على العقل، فهي عندما تقيّد إرادتها تلتجئ إلى العقل ليجدَ لها مخرجًا؛ فإنْ خَلُصَ معها أعطاها خيارات متعدّدة تمكّنها من فكّ القيد أو كسره، وإن لم يَخْلُص معها فقد يزيدُها على قيدها قيدًا.

ومع أنَّ رغبات النَّفس وشهواتها كثيرة، فإنَّ خَلقها البشريّ فطرة لا يمنحها رغبة في القيودِ، وفي المقابل أنَّ خُلقها الإنسانيّ لا يعطها حريَّة إلَّا والقيود خيارات من خياراتها.

ولذا فإنِ اطمأنت النَّفس لشيء أخذت به، وإنْ لم تطمئن إليه اجتنبته وعنه ابتعدت؛ ومع ذلك لن تأخذ به أو تبتعد عنه إلَّا وخيارات العقل أمامها؛ ولهذا فإن أخذت بما أجازه العقل لها كانت اختياراتها صائبة، وفي المقابل إن اختارت ما لم يُقرّه العقل لها فقد هربت من قيوده إرادة، مع العلم أنَّ إرادتها هذه قد تكون مخالفة لتلك القيود (القيم، والأعراف، والأديان، أو ما يستمدّ منها بغاية ضبط العلاقات والسُّلوك الإنساني).

وعليه: بما أنَّ النَّفس الإنسانيَّة بين حريَّة بلا ضوابط إنسانيَّة وضوابط العقل الإنساني وقيوده، فإنَّها لا تكون إرادة إلَّا بين قيدٍ وانفلاتٍ.

ولأنَّ القيد ضدّ الانفلات، إذن ليس دائمًا القيد بلا محاسن، أي إذا لم تقيّد نفسك إنسانيًّا (قيمًا ودينًا وعرفًا) فلا تستغرب إن تعرّضت لقيدٍ

وأنت مُكرهًا، أي لا تستغرب إنْ زُجَّ بك في السّجون مذنبًا في حقّ نفسك التي لم تحترم وتقدّر ما يحترمه ويقدّره العقل الإنساني خَلقًا.

ومن هنا أقول: لو لم تكن الفكرة قيدًا ما كانت الأيدي صانعة لحلقاتها؛ فالإنسان عندما لا يستطيع ضبط نفسه عن إرادة يجد نفسه يفكّر والحيرة تملؤه حتى يجد قيدًا لضبطه، وبعد أن يُقيّد بما أوجده من قيد، يبدأ في البحث عن كيفيَّة فكّه وبكلّ ما يتيسّر له من حيلٍ.

ولذا فمن يريد أن يكون إنسانًا في أحسن تقويم فعليه أن يتمسّك بعقله الذي به يتميّز عن غيره، وإذا أراد الحرّيَّة فعليه أن يقبل التنازل عن عقله؛ كي يستطيع في دائرة الممكن أن يفعل ما يشاء متى ما يريد، ولكنَّه نهاية سيعرف أنَّ للحرّيَّة ثمنًا، وهكذا إذا أراد الاثنين معاً؛ فعليه أن يقبل بحياة المساجين الأحرار.

فنحن بني آدم لولا العقل وما نفكّر فيه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولا الوهم والموهوم به، ولا المحلّل والمحرّم، ولولا العقل والفكرة ما استعملنا كلمتي: (قفْ وسرْ)، ولا كلمتي: (لا، ونعم)، ومن ثمّ فإنْ لم يقيّد الإنسان نفسه أخلاقًا إنسانيَّة، سيجد نفسه مقيدًا من قِبل الغير بفكرة القيد التي أنتجها عقله.

ومع أنَّ السّجن هو السّجن قيد؛ فإنَّ الإنسان إن فكَّر في نفسه عقلًا وقيدًا؛ أصبح على الأقل يمتلك الإرادة، ولكن إن وُضع القيد في يديه كرهًا؛ فهل يُمكن له أن يكون على شيءٍ من الإرادةِ؟

وإذا سلّمنا أنَّ العقل هو الذي يقيِّد نفسه، ألا نسلّم بأنّه قادر على فكّ قيده عن نفسه ارتقاء؟

لا شكّ أنَّه سيكون قادرًا إذا قبل التوقّف عند حدوده وكسر الوهم، ولا يتمدّد على حساب حدود الغير وهمًا؛ ولكن إن تمدّد وهمًا؛ فسيجد نفسه سجين تلك الفكرة التي أنتجها قيدًا.

ولذا فبالثَّقافة رفعة تفكّ القيود، وبها توضع قيودًا: (تُفك من قيد الجهل المعرفي وتوضع به)؛ ومن ثمَّ فالمارقون الذين تمكّنوا من الاستيلاء على مقاليد السُّلطة في بلدانهم حكموا النَّاس قيدًا، كما كان حال فرعون الذي قال كما جاء في القرآن الكريم: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}[65]، فهؤلاء لا يرون شيئًا يعلو على رؤاهم، ومن يخالف رؤاهم ضلّ، ومن يضلّ عن رؤاهم المخالفة للحقّ تواجهه المكائد، والدّسائس وصولًا إلى إقصائه بعد أن يلبّس بكمٍّ من التّهم التي تلفّق له قيدًا؛ ليُدانَ بتلك القوانين التي سنّت من أجل الطّاعة للظّلمة، ولكن لأنَّ هذه الأفعال مضادة لنواميس الحياة وسُننها الطَّبيعيَّة، ترفضها الإرادة الإنسانيَّة كلّما كسرت القيد الذي يكبّلها ويحول بينها وبين ممارسة الحريّة؛ ولذا عندما يبلغ الإنسان الصّحوة لا بدَّ له أن يرفض بقوَّة الإرادة كلّ أسباب القيود وعللها، كما يرفض مَنْ قيّد النَّاس بها، ومَن أمر بوضع القيد في الأيدي، والطّوق في الأعناق.

---

[65] غافر 29.

فتلك هي النَّفس التي تطمئن حينًا وتأمر بالسّوءِ حينًا، أي إنَّها إذا رشدت مع العقل اطمأنت، وإذا وهمت مع نفسها ساءت؛ ومن ثمَّ وجب كسر الوهم بقيد العقل رُشدًا.

ومع أنَّ القيد بمفاهيم العموم سالبًا، فإنَّه بالمفاهيم الموضوعيَّة ملئ بالموجبات وخير مثال: تلك المعجزات التي أنزلت على الأنبياء بغاية كسر قيد الوهم الذي كبّل عقول النَّاس وجعلهم يتخذون من دون الله آلهة وأربابًا.

ومِن أعظم الأوامر التي أنزلت قيدًا على النَّبيّ محمّد –عليه الصَّلاة والسَّلام–هي فعل الأمر (قُل)، وهو فعل الأمر الملزم الأخذ به والتقيُّد؛ حيث لا اجتهاد من بعد (قُل)؛ ومن ثمّ فإنَّ (قُل) قد قنَّنت كلّ ما قِيل من بعدها، ولم تتركه فضفاضًا للتناقض وسوء التفسير وأوهام البشر؛ فهي من أهم الكلمات التي نقلت المبلّغ به إلى المبلّغ إليه دون أن تترك له رأيًا فيما أمرت به وقيَّدته.

ومن هنا فإنَّ الإرادة أمام الأمر المطلق أو الأمر كرهًا لن تُعد مطلوقة العنان، فهي بقدر ما يقيّدها الدِّين فإنَّ الدِّين يفتح أمامها آفاقًا واسعة، وكذلك بقدر ما تقيّدها القيم تسمح لها بالامتداد، وهكذا الدّساتير والقوانين تقيد حركة امتداها، وقد تقوّض المقدِمينَ عليها وتقودهم قيدًا إلى داخل الجدران وأقفاص الحديد؛ ومع ذلك لا تجعل الخوف قيدًا عليك، بل اجعله قيدًا بين يديك تقوض به أيدي من يريد أن يقوِّض إرادتك ويشكل عليك خطرًا.

ومع أنَّ الدّساتير الوطنيَّة لا تكون إلَّا باختيارات الشُّعوب إرادة، فإنَّها لا تزيد عن كونها قيدًا ديمقراطيّا؛ ومن هنا فالإنسان إذا أراد ارتقاء؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الغير؛ حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تفكيرًا في نفسه؛ حتى يدرك أسرارها وخفاياها؛ ومن ثمّ يعرف أنَّ قوَّة البصيرة بقوَّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلَّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة وكبَّلتها القيود؛ ولهذا فالفكر ارتقاء يُمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه، حتى يفكّروا فيما هو أحسن منه.

والفكرة سواء أكانت استنارة أم قيدًا لا تكون إلَّا من إعمال العقل، الذي بإمكانه أن يستمدّ الشَّيء المجرّد من الشَّيء المشاهد أو الملاحظ، كما هو استمداد القوانين من المعطيات الكونيَّة والطَّبيعيَّة، ولأنَّ الفكرة مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه وَلَّدَتْ منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النَّاس، وهي لا تكون كذلك إلَّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباها لما يجب؛ فتدفعه حيويَّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين الغرض وتحقيقه.

ومع أنَّ الفكرة تخلّص من الحيرة، فإنَّها لا تكون ارتقاءً إلَّا من بعدها، فالحيرة بالنّسبة إلى الفكرة تعدّ مخاض ولادة، وولادة الفكرة من دون حيرة تسبقها: هي ولادة قسريَّة؛ فلا يمكن أن يتطابق الزَّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريّتها، فتولد مشوّهة؛ ومن ثمَّ ستكون الحلول أو المعالجات أو

الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف لتحقيق الأغراض ارتقاء.

ومع أنَّ هذا الأمر يعدُّ سالبًا بالنّسبة إلى الفكرة ارتقاء، فإنَّه الأمر المحيّر والمستفزّ لعقول الآخرين إيجابًا، ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة، تُخرج من التأزّم وتكسر القيد.

ومع أنَّ زمن الحيرة الفكريَّة مُقلق لمن ألمت به وألمّ بها، فإنَّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنَّفس؛ ولذلك فالبحوث العلميَّة ارتقاء تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الأغراض المحفّزةِ على حيرة جديدة، من بعدها حيرات تُمكّن من تحقيق غايات هي الأخرى تمكّن من كسر القيد؛ ومن ثمَّ أحدَاث النُّقلة ونيل المأمول.

ولهذا فلا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يقتنص له حلًّا، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في الشَّيء استحالة أو إعجازًا أو ممكنًا؛ حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة، تلد له حلًّا يمكّنه من تغيير أحواله رفعة، أو أن يضيف له جديدًا، أو على الأقل يتمكّن مِن كسر قيدٍ من بعده ينهض.

وعليه فالعقل بقدر ما هو الطّليق (خَلقًا فطريًّا)، فإنَّه المقيد خُلقًا مكتسبة، ففي خَلقه الفطري يجسّد الحياة الأميَّة (حياة الفطرة البشريَّة)، وفي خُلقه المكتسبة يجسِّد حياته الإنسانيَّة قيدًا (إنَّه العقلُ الطليقُ قيدًا).

والعقل مع أنَّه الطّليق اختيارًا فهو المقيّد تسييرًا؛ أي مع أنَّه المخيّر في مشيئة خَلقه، فإنَّه المسيّر في مشيئة خَالقه.

ويعدّ العقل قيدٍ؛ لأنَّ كل القيود التي تلمّ به وتطوّق حريّته لا تكون إلّا وليدة أفكاره، أمّا الأديان مع أنَّها جاءت مخففة لآلامه ومواجعه من تلك القيود التي طوّق بها نفسه، فإنَّها لا تخلو من قيودٍ في دوائر التحليل والتحريم والثّواب والعقاب.

وأوّل القيود التي فكّر العقل البشري فيها أنْ يتّخذ له معبودًا ويتقرَّب إليه زلفى، معبودًا يُصنع من طينة ليست من صنع يدي الصَّانع، أي معبودٌ لا شأن له حتى نستطيع أن نقول عنه: إنَّه أفضل شأنًا من شأن صانعه إلها.

ومن هنا نقول: إنَّ الخَالِقَ الذي يجب أن يعبد لا يكون إلَّا أعظم من المخلوقِ؛ ولأنَّ الخالق أعظم من المخلوق فيكف لخالقِ مصنوعٍ أن يتخذ له إلها من صنع يديه ولم يتخذ له معبودًا كان من وراء خَلقه ووراء يداه اللتان صَنعَ بها معبودًا من دون خالقه؟

إذن: العقل وفقًا لامتلاكه حيّز التخيير وفسحته قد حاد عن حياة الفطرة (الحياة الأميَّة)؛ وذلك بتعظيمه من هو أقل شأنًا منه وفقًا لقاعدة: كل مخلوق من ورائه خالق، والمخلوق دائمًا أقل شأنًا من شأنِ خالقه.

ولأنَّ العقل قيدٌ على ممارسة الحريَّة فقد ابتدع لنفسه صفة لا علاقة لها بالحياة الأميَّة، إنَّها صفة (الدِّكتاتور) التي بها قاد غيره، حتى تمكَّن غيره من الانقلاب عليه بأسلوبها قيدًا دكتاتوريًّا.

ومن هناك فالعقل الدِّكتاتور إذا حكم الشَّعب يُصبح هو المشرّع، وإذا غاب وكأنَّ القانون غاب؛ والشّعوب التي ركنت سنينًا تحت عقل الدِّكتاتور قيدًا لا ترى نظامًا ضابطًا للعلاقات بينها إلَّا ذلك النّظام الذي ربط العلاقة

بين الخوف والجبن حتى جعلهما وكأنَّهما التوأم؛ مع العلم أنَّ الخوف موجبٌ كما هو حال الخوف من الله، ومن الظلم، والذنوب، والعيوب، أمَّا الجُبن فسلبي؛ ذلك لأنَّه لا يكون في الميادين واقفًا إلَّا شاهد زورٍ.

ولذا أصبحت الدِّكتاتوريَّة لدى البعض مطلبًا يُقيِّد عقلًا لا ينضبط إلَّا بها، فالعقل الذي ركن السّنين قهرًا تحت وطأتها فلا يرى قيدًا ضابطًا للعلاقات إلَّا قيدها.

ومع أنَّ العقل الدِّكتاتور قادرٌ على توليد الحيويَّة كرهًا، فإنَّه المميت لها عند المستنيرين والمتطلّعين إلى بلوغ الأمل ونيل المأمول حريَّة وكرامة وإرادة.

أوهام العقل الفكريَّة:

الوهمُ هو ما يجثم على العقل البشري من معلومات مملوءة بالمخاوف، وفاقدة للمصادق، ويتم التمسّك بها والتعصُّب لها، والوهم يؤدِّي بأصحابه إلى المبالغة في الانقياد والتبعيَّة، أو المبالغة في المواجهة مع المخيف، ومَنْ يشكِّل الوهم عنده قناعة يظل واهمًا إلى وقت متأخر قد تضيع منه فُرص الصّحوة والعودة إلى المعرفة الواعية بما يجب الإقدام عليه وما يجب الإحجام عنه.

ومع أنَّ الوهم يؤدِّي إلى تطويع العقل وانقياده إلى الاتجاه الخطأ فإنَّ المتمسّكين به كُثر؛ فتراهم في مواضع الخلاف يدافعون به ويحاججون عنه وهمًا مع ظنّهم أنَّه سيتحقّق لا محالة.

ولذا يعد كل ما يُغيِّب العقل عن معرفة الحقيقة وكشف الزّيف عنها وهمًا، ودائمًا حال الوهم من الحقيقة كحال الكذب من الصِّدق، وحال السَّراب من الماء، ومعظم الواهمين إذا ما أتيحت لهم فرص الاختيار فلا يرون من الألوان إلَّا أحد اللونين: (الأسود أو الأبيض)، وهذا أيضًا حال المتأدلجين فهم لا يرون إلَّا بعين الغير الذي أوهمهم بأنَّ أعينهم لا ترى صوابا، ومن ثمَّ فهم في حاجة لسلامة عينه التي ترى دون غيرها كلّ شيء بما فيها شئونهم؛ وبهذا يُسلِّمون أمرهم إليه وهم يعتقدون أنَّه لا مستقبل لهم إلَّا المستقبل الذي يرتضيه، ويوجّههم إليه، ممَّا يجعلهم كالأوراق المسحوبة نسخة واحدة (إنَّها أوراق الوهم).

ومن ثمَّ فمن يقنع نفسه بأنَّه البطل، أو العالم، أو الزَّعيم، أو القائد، أو الخليفة فهو لا شكّ أصبح يعيش حالة من الوهم، ومع ذلك فقد يصدّق البعض ادعاءاتهم وأوهامهم وأخصُّ بالبعض: (الذين هُزموا في معارك سابقة، أو ضاقت بهم الدُّنيا بما رحبت، أو من تكون لهم أوهام مرجوة) فيتعلقون بمثل هؤلاء وكأنَّهم المنقذ، فيضحُّون بمستقبلهم من أجلهم حتى يقبرهم الوهم واحدًا واحدًا، أو ينعم الله عليهم بغضبٍ يقلب الطَّاولات على رؤوس الموهِمين، أو أن تلد لهم الأرض طفلًا مثل ذلك الطّفل الذي رأى الملك عاريًا؛ حيث يُحكى: أنَّ أحد الملوك خدعه خيّاط محتال وأقنعه بأنَّه سيصنع له ثوبا سحريًّا عظيمًا لا يراه إلَّا الحكماء. اقتنع الملك بمهارة الخياط المحتال فظهر على وزرائه من على شرفة القصر المطلّة على الحديقة عاريًا تمامًا، وقال: انظروا ما رأيكم في هذا الثَّوب السّحري الذي لا يراه إلَّا الحكماء؟! فخاف الوزراء من غضب الملك فقالوا وكأنَّهم يقرأون أنشودة سبق لهم وأن

حفظوها: إنَّه ثوب عظيم يا مولانا، وأضاف بعضهم: لم نرَ في حياتنا أجمل ولا أروع من ثوبك هذا، ولكن المفاجئة جاءت من طفل كان من بينهم في حديقة القصر، فقال ببراءة: أين هو الثّوب الذي ترونه؟! ثمَّ صاح بأعلى صوته: إنّي أرى الملك عاريًا... إني أرى الملك عاريًا.

هكذا هي بالتمام حقيقة التُّبع والذين تأدلجت عقولهم بأوهام وأفكار لا تَمتُّ للحقيقة بصلة، وجميعهم ينطبق عليهم: (إني أرى الملك عاريًا)؛ ولهذا دائمًا الوهم مخالف للحقيقة؛ ومن ثمَّ يجب أن يُكسر قبل أن يجعل من الأسوياء معاقين.

ومن هنا لا يعد التأدلج إلَّا وهمًا؛ كونه يجعل من المتأدلجين أدوات مسخّرة بأيدي كبير الواهمين، والواهم أوَّل ما يوهم نفسه بأنَّه يفهم أكثر من غيره، ويعلم أكثر من غيره، ومن ثمَّ على الغير اتباعه وطاعته وإلَّا فهم في ضلال، ولا منقذ غيره؛ فيتظاهر وهمًا أنَّه الزّعيم، أو القائد، أو المنقذ، أو المفكّر، وعندما يستشعر أنَّه في أعين البعض يبدو كذلك يزداد في تصنّعه قائدًا أو زعيمًا أو مفكرًا حتى يثبت بحق أنَّه الواهم.

وعليه: فالوهم تضخيمٌ للأنا الذي يبلغ الحال به وهمًا أنَّه لا يرى مركزًا للعالم إلَّا هو دون غيره، ومن ثمَّ يرى وجوب دوران العالم من حوله دون سواه. وبهذه الحالة لا فرق بين الواهم والكاذب الذي يعرف حقيقة نفسه أنَّه يكذب، ومع ذلك عندما يجد النَّاس تستمع له فيصدّق وكأنَّه الصَّادق؛ ولهذا فالمصدّقين لما يقال من دون تبيّن ولا امتلاك شجاعة مثل شجاعة ذلك الطّفل سيظلّونَ واهمين بلا إرادة، وسيظلونَ في حاجة لمن يساعدهم

على كسر ما ألمَّ بهم من وهمٍ؛ ولهذا لا يكسر الوهم إلَّا صبرًا على التثبت واتباع الحق؛ وذلك بإظهار الحقيقة وكشف الزّيف عنها عندما تحين الفرص لذلك.

ومن ثمَّ علينا أن نميّز بين حقيقةِ أنَّنا نحلم، وحقيقة أنَّنا لا نصدّق أحلامنا (لا نصدق ما نراه يجري في أثناء نومنا، ولا نأخذ بما جاء فيه) ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر حقيقة السُّؤال القائل:

لماذا لا نشكّ في أنَّنا نحلم، ونشك فيما نحلم به؟ أي بما أنَّنا نحلم يقينًا وحقيقة فلماذا لا تكون أحلامنا هي الأخرى حقيقة ينبغي الأخذ بما يورد فيها؟

أقول: مع أنَّ ما يجري في أثناء النّوم حُلمًا حقيقيًّا فإنَّه لا يزيد عن كونه حقيقة نائم؛ ولأنَّه كذلك فالواهم بأنَّ الصَّواب في أحلامه صدقًا لا يزيد عن كونه لا زال نائمًا، ومن يأخذ بما حلم به فلن يجد أمامه بعد الصّحوة واليقظة إلَّا سرابًا؛ ولهذا قبل أن يُوهم نفسه ويقنعها بذلك ينبغي أن يُنصح بحقيقة أحلامه؛ كي لا يسكب الماء الذي بين يديه بغاية أن يشرب من السَّرابِ ماء.

ومع أنَّ العقل يُعدُّ من أهم ما تميَّز به الإنسان خَلقا فإنَّه لا يدير شئون الإنسان كُلّها وحدهُ، ومع أنَّ الوهم حادث على العقل فإنَّه لا عقل إلَّا بوهمٍ؛ غير أنَّ رقابة الضَّمير على العقل تعيده مركزًا؛ ولذا وجب كسر أوهام من يعتقد إنَّه المسيطر، أو أنَّه سيسيطر ويصبح مركزًا ولا إمكانيَّة لغيره وكأنَّه المستحيل؛ ولهذا دائمًا الواهمين حتى وإن قرأوا التَّاريخ واطَّلعوا على ما جرى

فيه على الغير؛ فإنَّهم لا يتخذون العبر منه، بل يدّعون أنَّهم أهل معرفة تفوق أولئك الغافلون في ذلك الزّمن الذي رواه الرّواة في كتب المؤرِّخون.

ومن هنا أين العقل كونه مركز الإدارة العامَّة الذي يدير الحواس كما يدير المدركات ويدير المجرّد والمحسوس، والمشاهد والملاحظ، ويتدبَّر ويتذكَّر، ومع أنَّ العقل هو مركز الإدارة إلَّا أنَّه لا يتولّى تنفيذ كلّ شيء، بل يترك التنفيذ لكلٍّ وفقًا لاختصاصه؛ ممّا يجعل الكلّ مراكز لا تدار إلَّا بهم؛ ولهذا فبالنّسبة إلى المشي فإنَّ القدمين هي المركز، فإن لم يُعطِ العقل حريَّة الحركة للقدمين فإنَّ الخطوات لن تتبادل بمرونة، وإن حاول أحدٌ مبادلتها فسيكون صاحبها من المتعثرين؛ ولذا لن تخطو القدمين بصاحبها خطوات ثابتة إلَّا بقرار واضح من العقل لأداء واجبات محدّدة.

وعليه: الخطى عندما تطوي المسافات بقرارٍ من الإدارة العامَّة (العقل) تصبح علاقة التطابق تامَّة بين خطى القدمين ورؤية العقل؛ ومن ثمَّ فلا وهمَ يتعارض مع الأمر أو يخالفه.

أمَّا إذا أُجبرت القدمين على قطع المسافات، فلا شكَّ أنَّها ستتعثَّر عندما يحاول آخر أن يجرَّها أو يجبرها بما لا يصدره لها العقل من قرارات واضحة ومحدَّدة، وعندما يكون قرار الإدارة العليا (العقل) وفقًا لِما يجب تصبح الخطوات متهيّئة ومستعدّة ومتأهِّبة لقطع المسافات دون تردّد؛ ولذا فمِن دون وهم فإنَّ المدير العام (العقل) لا يدير شيئًا باستقلال عن غيره إلَّا في حدود الوظيفة الخاصّة به؛ إذ خصَّصَ مهام العين للنّظر، واللسان للذّوق، والأنف للشّم، والأذن للسّمع، وجعل كلّ منها في حالة تهيّؤ لإرشاد غيره

إلى ما يجب عند كلّ أمر يصدر له، كما يرشد البصر القدمين إلى السَّير في الاتجاه الذي يشاء العقل بلوغه، وعندما لا يكون الوهم مرافقًا لقطع المسافات تزداد القدمين ثباتًا تجاه الهدف الذي يستوجب الإنجاز، ومعها العينين تحمْل مسئوليَّاتها تجاه ما يجب أن تقدِّمه للقدمين من إرشاد، ممَّا يجعل الإنسان متمكِّنًا من الوقوف على أدق الأشياء بإرادة، وظهورها أمام المركز برؤية واضحة؛ ولهذا عندما تُجبر العينين جبرًا فلا يكون للرّؤية وضوح، ولا تُكشف الحقيقة أمام الإدارة العليا ما يجعل المدير العام غير قادرٍ على اتخاذ قرارات مُرضية وواضحة للأنا والآخر والوسطي وإن حاول واجتهد؛ فيترتّب على ذلك فوضى إن لم يُحسم الأمر فيها قد يشتدّ الصّراع؛ ليكون فيه كلّ طرفٍ متطرِّفًا؛ ومع أنَّ العقل هو المسئول الأوَّل الذي يدير الإدارة العليا إلَّا أنَّ الإدارة العليا لا تدار به وحده، فهناك القلب، وهناك العاطفة، ولكلٍّ منهما غاياته التي تمتدّ بين قوَّة وضعف، فإن تطابقت رؤى المدير العام (المسئول الأوَّل) مع المساعد له (القلب) كانت القرارات الصَّادرة ضميريَّة، تُطمئن الأنا والآخر والوسطي، وإن غَلَبت رؤى العاطفة المساعد الثَّاني للمدير العام مالت القرارات إلى ما يُشبع الغرائز على حساب ما يُشبع النَّفس التي لا تطمئن إلَّا بقرارات الضَّمير العادلة التي لا تغفل عمَّا يرغبه القلب وما ترغبه العاطفة، ولكلٍّ حاجاته التي يجب أن تُشبع باعتدال، دون أن تكون على حِساب طرفٍ من الأطراف، وعندما تكون قرارات العقل مع الضّمير حاسمة فإنَّ العينين لا تقوما بتزوير الحقائق البصريَّة وإن رغبت العاطفة أو وهمت[66].

---

[66] عقيل حسين عقيل، التطرف من التهيؤ إلى الحل، القاهرة: المجموعة الدولية، 2011م، ص 78.

إذن تتعدّد مراكز الإدارة في الإنسان من المدير العام ومُسَاعِديه إلى الإدارات المركزيَّة الأخرى وفقًا للصلاحيَّات والاختصاصات التي بها يُدار السَّمع بمتخصّصين كما يُدار البصر بمتخصّصين، والشّم واللَّمس والذّوق بمتخصّصين، وكما تدار الإدارات التي تليها في الأهميَّة بمتخصّصين بالنّطق، والمشي، والرَّمش، وما يتعدَّد من إدارات فرعيّة أخرى؛ تقرّر ما تشاء، ولكنّ التنفيذ الموضوعي عندما يتعلّق الأمر بالمراكز الأخرى لا يتمّ إلَّا بعلم الإدارة العامّة؛ ولهذا كلّما وجب ظهور أو وجود المركز العام وجب ظهور المراكز الخاصّة، مراكز السّمع والشّم واللَّمس والذّوق والبصر وغيرها، ومن يحاول أن يجعل الأمر كلّ الأمر في إدارة عامَّة يجعل الحواسّ غير قادرة على أداء وظائفها التي خُلقت من أجلها، ويدفع بعضها إلى التطرُّف الذي به تشوَّه الحقائق وتزوَّر فلا تُقدَّم للمسئول الأوَّل (هي كما هي) ما يجعله في كثيرٍ من الأحيان يتخذ قرارات غير صائبة، وقد يتمسَّك بها ويجبر النَّاس عليها. وسواء أكان يدري أم لا يدري يجد نفسه قد دفع بعض الذين تمّ إجبارهم بغير حقّ إلى التطرُّف فكرًا وتأدلجًا مع الإقدام على أفعال التنفيذ وأعمال؛ فتنجم ردود أفعال بأسباب المعلومات الخاطئة والمزوَّرة التي قُدِّمت للمسئول الأوَّل وترتَّب عليها ما ترتَّب من إجراءات غير موضوعيَّة؛ ولذلك سيكون واهمًا من يعتقد أنَّ العقل يدير كلّ شيء طوعًا وكرهًا.

ومن هنا فبوجود الإدارة المركز تظهر مراكز متعدّدة، ولكلّ مركز أهميَّة تستوجب الاعتراف، والتقدير، والاعتبار؛ إذ لا تجاوز وكلّ وفقًا للتخصّص والاختصاص والخصوصيَّة، وهكذا المراكز تتعدّد بما يُمكِّن المواطنين من ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمْل المسئوليَّات، وإن لم يتمّ الاعتراف بذلك

فستكون أوهام التطرُّف من الأساليب المنتشرة بين من يريد نيل الاعتراف ومن لا يريد الاعتراف به.

فالمركز الذي يريد أن يكون على حساب طمس مراكز الآخرين سيكون واهمًا إن ظنَّ أنَّه لن يتعرَّض هو الآخر للطَّمس وبكلّ الأساليب، ومن يريد من المراكز الأخرى أن تُقدِّم له التنازلات تلو التنازلات فلن يكون قادرا على إدارة ما يُراد له أن يديره بنجاح؛ ممَّا يجعل الوهم مرافقًا له أينما حلّ، ثمَّ تلاحقه شتائم المواطنين إلى أن يرحل بإرادة أو يرحَّل بالقوَّة.

ولأنَّ الحقوق الوطنيَّة متماثلة، والواجبات متباينة، والمسئوليَّات غير متوازنة، إذن لا إمكانيَّة إلَّا وهمًا أن تكون كلّها بيد مركزٍ واحدٍ، فهذه ينبغي أن تدور حول المركز بقوَّة جذبه لها إرادة، وإدارة متماسكة.

وكما أنَّ الإنسان خُلق مركزًا لا يتطابق مع أيٍّ آخر في قدراته، واستعداداته، وخصوصيَّاته الفرديَّة، والجماعيَّة، والمجتمعيَّة؛ فهو على الأرض المدحاة أينما وجد، أو وقف، أو جلس هو المركز، وهكذا الآخرون كلّ منهم على الأرض هو المركز من خلال النُّقطة التي يكون عليها، ولا يتغيَّر مركزه إلَّا بتغيُّر مكان وجوده على الأرض أينما تحرَّك، وبما أنَّ الأمر كذلك خَلقا إذن فلماذا لا يكون الإنسان مركزًا أينما وُجد؟، ومن ثمَّ فالوطن الواحد لا ينبغي أن يكون فيه مواطنو العاصمة هم المركز، والآخرون لا يعدّون إلَّا أطرافًا على الحدود، وكأنَّ المواطنة تضعف كلّما بعد المواطن عن المركز.

العقل إدارة عامَّة:

العقل إدارة عامَّة يدير الحواس كما يدير المدركات، ويدير المجرّد والمحسوس والمشاهد والملاحظ، ويتدبَّر ويتذكَّر ويفكّر، ومع أنَّ العقل مركز الإدارة فإنَّه لا يتولى تنفيذ كلّ شيء، بل يترك التنفيذ لكلٍّ وفق اختصاصه مما يجعل الكلّ مراكز لا تدار إلَّا به؛ ولهذا بالنّسبة إلى مشي القدمين، فإنْ لم يُعطِ العقل حريَّة الحركة للقدمين فإنَّ الخطوات لن تتبادل بمرونة، وإن حاول أحدُ مبادلتها فسيكون صاحبهما من المتعثرين؛ ولذا لن تخطو القدمان بصاحبهما خطوات ثابتة إلَّا بقرار واضح من العقل لأداء واجبات محدّدة.

إذن: الخطى عندما تطوي المسافات بقرارٍ من الإدارة العامّة (العقل) تصبح علاقة التطابق تامّة بين خطى القدمين، ورؤية العقل.

أمَّا إذا أُجبرت القدمان من الغير على قطع المسافات، فلا شك أنَّها ستتعثَّر عندما يحاول الآخر أن يجرُّها أو يجبرها بما لا يصدره لها العقل من قرارات واضحة ومحددة وعن إرادة؛ لذا عندما يكون قرار الإدارة العليا وفقًا لِما يجب أرادة؛ تصبح الخطوات متهيّئة ومستعدة ومتأهِّبة لقطع المسافات دون تردد، ولكنّ المدير العام لا يدير شيئًا باستقلال عن غيره إلَّا في حدود الوظيفة الخاصّة به؛ إذ خصّص العين للنّظر واللسان للذّوق والأنف للشّم والأذن للسّمع، وجعل كل منها في حالة تهيّؤ لإرشاد غيره إلى ما يجب عند كلّ أمر يصدر له، كما يرشد البصر القدمين إلى السّير في الاتجاه الذي يشاء العقل بلوغه، وعندما لا يكون الخوف مرافقًا لقطع المسافات تزداد القدمان ثباتًا تجاه الهدف الذي يستوجب الإنجاز، ومعها العينين تحمْل

مسئوليَّاتها تجاه ما يجب أن تقدِّمه للقدمين من إرشاد، مما يجعل الإنسان متمكّنًا من الوقوف على أدق الأشياء بإرادة وظهورها أمام المركز برؤية واضحة، ولهذا عندما تُجبر العينان جبرًا فلا يكون للرؤية وضوح، ولا تُكشف الحقيقة أمام الإدارة العليا ما يجعل المدير العام غير قادرٍ على اتخاذ قرارات مُرضية وواضحة للأنا والآخر والوسطي وإن حاول واجتهد فيترتّب على ذلك فوضى، التي إن لم يُحسم الأمر فيها قد يشتد الصّراع ليكون فيه كلّ طرفٍ متطرّفٍ.

ومع أنَّ العقل هو المسؤول الأوَّل الذي يدير الإدارة العليا فإنَّ الإدارة العليا لا تدار به وحده فهناك القلب، وهناك العاطفة، ولكلٍّ منهما غاياته التي تمتدّ بين قوَّة وضعف، فإن تطابقت رؤى المدير العام (المسئول الأوَّل) مع المساعد له (القلب) كانت القرارات الصَّادرة ضميريَّة، تُطمئن الأنا والآخر والوسطي، وإن غَلُبت رؤى العاطفة المساعد الثَّاني للمدير العام مالت القرارات إلى ما يُشبع الغرائز على حساب ما يُشبع النَّفس التي لا تطمئن إلَّا بقرارات الضَّمير العادلة التي لا تغفل عمَّا يرغبه القلب وما ترغبه العاطفة ولكلٍّ حاجاته التي يجب أن تُشبع باعتدال دون أن تكون على حِساب طرفٍ من الأطراف؛ ولذا عندما تكون قرارات العقل مع الضّمير حاسمة فإنَّ العينين لا تقومان بتزوير الحقائق البصريّة وإن رغبت العاطفة.

إذن: تتعدد مراكز الإدارة في الإنسان من المدير العام ومُسَاعِديه إلى الإدارات المركزيَّة الأخرى وفقًا للصلاحيَّات والاختصاصات بها يُدار السَّمع بمتخصصين كما يُدار البصر بمتخصصين، والشّم واللمس والذّوق بمتخصصين، وكما تدار الإدارات التي تليها في الأهميَّة بمتخصصين بالنطق،

والمشي، والرّمش، وهكذا تتعدد وكلّها تقرّر ما تشاء، ولكنّ التنفيذ الموضوعي عندما يتعلق الأمر بالمراكز الأخرى لا يتمّ إلّا بعلم الإدارة العامّة، ولهذا كلّما وجب ظهور المركز العام أو وجوده وجب ظهور المراكز الخاصّة، مراكز السّمع والشّم واللمس والذّوق والبصر وغيرها، ومن يحاول أن يجعل الأمر كلّ الأمر في إدارة عامَّة يجعل الحواسّ غير قادرة على أداء وظائفها التي خُلقت من أجلها ويدفع بعضها إلى التطرُّف الذي به تشوَّه الحقائق وتزوَّر فلا تُقدَّم للمسئول الأوَّل (هي كما هي) ما يجعله في كثيرٍ من الأحيان يتخذ قرارات غير صائبة وقد يتمسَّك بها ويجبر النَّاس عليها، وسواء أكان يدري أم لا يدري يجد نفسه قد دفع بعض الذين تمّ إجبارهم بغير حقّ إلى التطرُّف فكرًا وتنفيذًا؛ فيترتّب كرههم بغير حقّ ومقاومته بغير حقّ بأسباب المعلومات الخاطئة والمزوَّرة التي قُدِّمت للمسؤول الأوَّل وترتّب عليها ما ترتّب من إجراءات غير موضوعيَّة.

إذن: بوجود الإدارة المركز تظهر مراكز متعدّدة، ولكلّ مركز أهميَّة تستوجب الاعتراف والتقدير والاعتبار وفقًا للتخصص والاختصاص والخصوصية، وهكذا المراكز تتعدد بما يُمكِّن المواطنين من ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسئوليّات، وإن لم يتمّ الاعتراف بذلك فسيكون التطرُّف من الأساليب المنتشرة بين من يريد نيل الاعتراف ومن لا يريد الاعتراف به.

فالمركز الذي يريد أن يكون على حساب طمس مراكز الآخرين سيتعرَّض هو الآخر للطمس وبكلّ الأساليب، ومن يريد من المراكز الأخرى أن تُقدِّم له التنازلات تلو التنازلات فلن يكون قادرًا على إدارة ما يُراد له أن

يديره بنجاح مما يجعل الفشل مرافقًا له أينما حلّ وشتائم المواطنين تلاحقه إلى أن يرحلّ بإرادة أو يُرَّحلّ بالقوَّة.

ولأن الحقوق متماثلة، والواجبات متباينة، والمسئوليَّات أعباء ثقيلة، إذن لا يمكن لهذه المعطيات أن تكون مقتصرة على مركزٍ واحدٍ، ولكن ينبغي أن تدور حوله بقوَّة جذبه لها إرادة وإدارة متماسكة.

وكما أنَّ الإنسان خُلق مركزًا في أحسن تقويم؛ فلا يتطابق مع أيِّ مركز آخر في قدراته واستعداداته وخصوصيَّاته الفرديَّة والجماعيَّة والمجتمعيَّة، فهو على الأرض أين ما وجد أو وقف أو جلس هو المركز، وهكذا الآخرون كلّ منهم على الأرض هو المركز من خلال النّقطة التي يكون عليها وإن تحرك إلى الأمام أو إلى الخلف أو إلى أحد الجانبين؛ فمركزه يتغير بتغيُّر مكان وجوده على الأرض أينما تحرَّك على أديمها، وبما أنَّ الأمر كذلك خَلقًا إذن: لماذا لا يكون الإنسان مركزًا أين ما وُجد؟

ولذا لا ينبغي أن يكون في الوطن الواحد مواطني العاصمة هم المركز والآخرون أطراف على الحدود مع تباين المسافات قربًا وبعدًا، بل يجب أن يكون المواطن على تراب الوطن مركزًا أينما وُجد من الحدود إلى الحدود من خلال المساواة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمل المسئوليَّات، التي بها تتوافر مشبعات حاجاتهم المتطوِّرة في أي مكان هم فيه مركز دون تمييز.

وعليه: فمن لا يكون من المواطنين مركزًا سيتطرف بما يدعوه إلى الرَّفض والتمرّد، ومصطلح (التطرُّف) لشد ما نسمعه متداولًا على الألسنة بالمعنى الذي أُريد له أن يفهم به؛ ذلك أنَّ الذين أرادوا المصطلح بهذا المعنى يجعلون

من أنفسهم نقطة الارتكاز التي يقوم عليها ميزان الحقّ والعدل بكفتيه، وفي رؤيتهم أنَّهم يحققون التوازن الفكري ويميِّزون الفضيلة عن الرذيلة وفق مقياس الارتكاز الذي اعتمدوه؛ ولهذا فهم يرون أنَّ كلّ من ابتعد عن هذا المركز ووقف في طرف بعيد عنه يكون متطرّفًا، وهذه النظرة تنطلق من الأنا التي تعبِّر عن بعض مكنونات النَّفس وتفكير العقل في النظرة إلى الآخر والتقليل من شأنه، ومن ينطلق من هذه النظرة فقد افترض وقوف الآخر على طرف بعيد عن المركز الوسط حسب اعتقاده.

هذه الرُّؤية تعد صرخة في وادٍ ما لم تحاور الآخر من منطلق تعدد المراكز، فتتباعد في هذه الرُّؤية مفاهيم المصطلح ممّا يؤدِّي إلى توطيد التباعد في المواقف، ويصبح الحوار نوعًا من الهذيان عندما تُحوَّل القضيَّة إلى تعريف التطرّف حسب الموقع الذي تشغله الأنا في القرب منها أو البعد عنها.

وعليه: فالبحث في تعدد المراكز ضمن انساق متنوّعة بحسب الخط العمودي الذي يطرح تمظهرات يكون على أساسها انبعاث طروحات مختلفة، تعكس في الوقت ذاته المركز الواحد الذي يحاول أن يكون كما يرى نفسه مركزًا وحيدًا دون أن يحاول النّظر إلى ما حوله، وهذا يتأتّى بطبيعة الحال من الأساس الفكري الذي بُني عليه الذي يحاول أن يلغي الآخر، ويضعه في مكان ليس له مكانة، وهنا تكون الأنا مكتسية بلون الانفصام الفكري الذي يلغي المسافات ويحجم الرّؤيا، مما يؤدِّي إلى انفتاق انساق جديدة يكون عليها الآخر الذي غُيّب ولم تصبح له أي كينونة يستطيع من خلالها أن يكون طرفًا في معالجة ما يحدث وعلى كلِّ الأصعدة، فيحاول أن

يلملم نفسه وأحواله وفق ما يراه، ويعيد إنتاجه ضمن النظرة التي يرى من خلالها الحلّ.

إنَّ من يرى وجوب التمركز على نقطة واحدة يكمن فيها الحلّ عائد إلى أمرين هما:

ـ السِّياق الفكري الذي يرى من خلاله أنَّ المركز الواحد هو الحلّ الوحيد الذي ليس له بديل مهما كانت البدائل، وهذا ما يمكن أن يسمّى بالتقوقع الفكري الذي يرى كلٌ من المركز والتطرّف أنَّه الوحيد الذي يقول الحقيقة، وهذا يفضي إلى عدم تحدِّيث الفكر ومعاودة الحوار المستند للعقل والمنطق والتجارب؛ فالتقوقع الفكري هو عدم القدرة على التغيُّر والتفهُّم والاستيعاب والتحليل والحلّ للمشاكل العالقة من معضلات ومستجدات تطوُّريَّة حاصلة، وفي مختلف مجالات الحياة الخاصّة والعامّة أيّا كانت، ويظهر المتقوقعون عاجزين أمام المتغيّرات الجديدة ومستجداتها مما يؤدِّي إلى تراجعهم، ومن ثم عدم قابليتهم وقدرتهم على التحليل والتطوّر.

ومن هنا فالتصلُّب في الفكر والتعامل والممارسة المختلفة بغير حقّ يؤدِّي إلى التقوقع الذي نهايته التراجع والوقوع في الفخّ بسبب عدم التفهُّم والإدراك للمتغيرات الحاصلة في المحيط العالمي، كما أنَّ التصلُّب والخشونة في الرَّأي والممارسة تخفي عن صاحبها الخفايا، فالخشونة والتصلُّب بغير حقٍّ يؤدِّيان إلى النفور من أصحابها ومن ثمَّ يتحولان إلى إعاقة في حركة التغيُّر والتطوُّر لديهم؛ فالخشونة والتصلُّب الفكري لا يكونان إلَّا ضدّ الآخر الذي

يتعرَّض في دائرة الممكن إلى الرَّفض والقبول والتغييب والإقصاء، وهنا تكمن علل المشكلة وتزداد الفجوة امتدادًا عن الآخر.

_ أمَّا دلالات المرونة في الفكر والممارسة على عكس ما تدلّ عليه الخشونة والتصلُّب؛ فبقدر ما يكون الأنا مرنًا يكون أكثر حكمة تجاه الآخر؛ فالمرونة تشعر الآخر بالطّمأنينة كما أنَّها دليل لتفهُّم ظروفه التي بتفهُّمها يتمّ استقطابه واستدعاؤه إلى ما يجب أن يكون من أجل الجميع، وكلّما ازدادت الليونة والتفهُّم ازداد النفوذ؛ لأنَّ التفهّم يراعي مصالح الجميع وحتى شطحاتهم وتطلعاتهم التي لا تشكل ضررًا على أحدٍ، فالاعتراف بالآخر والتشارك معه على البيِّنة هي القوَّة الحقيقيَّة في الصّعود واستمرار البناء السّليم والانسجام المتواصل في سبيل الإنجاز وصناعة المستقبل الذي فيه الأمل.

وعندما يرى الأنا نفسه أنَّه الأكبر أو الأقوى فليعلم أنَّه مهما قوي أمام توحُّد قوَّة الجميع لن يظلّ إلَّا الأضعف أمام الجميع؛ ولذا فالأفضل للجميع إلَّا يكون من جنسهم أحد كبير ومتكبِّر عليهم، والأفضل لمن يرى نفسه أنَّه الأكبر على قومه أو شعبه أن يعيد نظرته لنفسه ويقيِّمَ حاله ثم يقوِّمها بقوَّة النَّاس التي وحدها تستطيع أن تجعله الأكبر مكانة بينهم متى ما اعترف بأنَّهم سادة وقدَّرهم بالفضائل والقيم التي قدّروه بها وجعلوا له مكانة بينهم.

أمَّا إذا تحقّقت هيمنة الأنا على الغير، فتكون هيمنته هي المضرَّة الرّئيسة في الحيلولة دون أن يفكِّر الأنا في صحة هذه الفكرة أو صلاحها أو مناسبتها أو خطئها أو فسادها، كما أنَّ الفكرة أيضًا تسهم إسهامًا كبيرًا في الحيلولة

دون تفكير المرء في صلاح أفكار أخرى، وهيمنة فكرة من الأفكار على عقل المرء تدل على وجود قدر من انغلاقه عن العالم الفكري الذي حوله؛ فالهيمنة الفكريَّة ستار فكري يكتنف صاحب الفكرة فيحجبه عن العالم الفكري، هذه الهيمنة التي تشيع لدى الكثير من البشر في جميع أنحاء العالم أحد المكامن الرّئيسة لتمزُّق البشريَّة، وعلى النّطاق الأصغر تمزُّق المجتمعات إلى فئات مختلفة في مجالات السِّياسة والاقتصاد والمعتقدات والقيم الاجتماعيَّة والفضائل الإنسانيَّة؛ ممّا يسهم في جعل عمليَّة تحقيق التماسك الاجتماعي والشّعبي مهمَّة أشق.

ومن تجلّيات انحسار الهيمنة ومظاهر الانفتاح على الفكر الآخر أن يترك المرء في فكره هامشًا لاحتمال خطئه الفكري، وأن يدرك أن الفكرة لا تتضمّن بالضرورة الحقيقة كلّها؛ لأنَّ الفكرة مكوَّنة من عنصرين: ذاتي وعنصر موضوعي ذوي نسبتين مختلفتين في بنية الفكرة، بينما تشتمل الحقيقة على قدر أكبر من العنصر الموضوعي، وأن يدرك المرء أنَّه لا حكر لأحد على معرفة الحقيقة.

وبانحسار الهيمنة الفكريَّة وبالانفتاح الفكري تُمَدُّ جسور الاتصال بين الأنا والآخر، وتتعزّز ظاهرتي التغذية الفكريَّة والتأثير الفكري المتبادلتين، وبهذا الانحسار، وهذا الانفتاح يصبح الموقف الفكري مماثلًا أو عاكسًا لحقيقة تكوين الفكر من ذات وموضوع، وبالتالي يتمّ التقارب الفكري الذي يسهم في التماسك الاجتماعي علائقيًّا، وهو التماسك الذي يحتاجه الأنا والآخر على حدٍّ سواء.

ولذا فإنَّ إلغاء الآخر تنفرج له أسارير المتعنِّتين الذين لا يتجاوز تفكيرهم خطوات أقدامهم، فيحاولون الاقتناع بفكرة إلغاء الآخر التي تساورهم، فلا يجدونَ بديلًا عنها، ويُنصِّبون فكرهم وأنفسهم ضمن المكانة التي لا يمكن إلا الرّكون إليها ولا حلّ إلّا بها، والتساؤلات التي يمكن أن تطرح هنا:

_ ألا يكون هناك بديل عمَّا يراه الأنا؟

_ ألا يكون لدى الآخر أحد المفاتيح التي يمكن من خلالها الحلّ؟

_ ألا يكون إلغاء الآخر علَّة مؤدّية إلى تعاظم مكانته وعلوّ شأنها؟

إنّ تمسُّك الأنا بأنَّه المركز وغيره هامش، وتمسُّك الهامش بأنَّه صاحب الحقّ في أن يكون مركزًا على حساب ذلك الأنا الذي يجب أن يُهمَّش، إنَّ هذه التشبّثات لن تؤدِّي إلى حلّ إلّا إذا اعترفت بأن المركز حقّ للجميع ممّا يستوجب الالتقاء والتفاهم على إدارته بموضوعيَّة دون أن توزَّع الأدوار بما يجعل البعض ضحيَّة ولو كان من الغافلين.

ومن يرى أنَّ الحلّ لا يكون إلَّا في التطرّف ذاته، فقد يكون التطرُّف شاهدًا هو الآخر على ذاته بأنَّه ليس الحلّ، فكيف إذن لا يتمّ الحوار مع الفكرة قبل أن يتمّ عرضها عُملة مزوَّرة في السُّوق؛ فتؤدِّي إلى تأزُّمات ماليّة وتُطيح بالاقتصاد بين بائعٍ ومشترٍ.

ولذا فلا داعي للتجاهل فهو المؤدّي إلى إلغاء الآخرين وتحقيرهم وتغييبهم عن ممارسة الحقوق التي بها تتحقّق المنافع المشتركة دون أن يتضرر

الغير، ومن لم يجد آذان مصغيَّة تسمعه وتُسهم في توفير ما يُشبع حاجاته المتطوِّرة، ليس له بدٌّ إلَّا أن يتطرَّف بعيدًا ويتخندق لمقاتلة من كان سببًا في تهميشه وإقصائه وتحقيره وتغييبه وعدم الالتفات إليه ولو بطرفة عين.

وهنا يصبح المركز هو السّبب بإسقاط كلّ الحلّول التي من شأنها أن تلغي التطرّف وتدخله ضمن خريطة جديدة يكون على أساسها الحلّ بتعدد المراكز التي فيها يُقدّر الإنسان ولا يهان.

إنَّ تشبّث الأنا بما هو عليه وتشبّث الآخر بما هو عليه، يجعل كلًا منهما في حالة تطرُّف؛ إذ لا لين ولا مرونة ولا تقدير ولا اعتراف بما يجب، وكذلك يصبح التساوي في التشبّث بالمرتكز الذي يؤجّج نار التطرُّف في كل صغيرة وكبيرة.

ومن هنا فالتشبّث لا يؤدِّي إلى الاندماج والتوافق والانسجام والتعاون والاستيعاب ولا حتى التكيُّف، بل يؤدِّي إلى ما يظهر التطرُّف في الفكرة والقول والفعل والسُّلوك ممّا يجعل المفاجئات الدمويَّة مفجعة ومصارف الدّم تطالب بالمزيد.

فالتشبُّث بما لا يجب لا بدَّ أن يواجه بالرَّفض، أمَّا التشبّث بما يجب حتى وإنْ واجهه الرَّفض من البعض الذي لا يُقدِّر الأنا ولا الآخر؛ فلا يمكن أن يكون للرّافضين فيه حُجَّة أو مؤيِّدين موضوعيين؛ ولذلك يبطل؛ ذلك أن السِّياق العام للنسق الإنساني يشير إلى أن الفضائل والقيم هي المرضية لتوافقات النَّاس بإرادة؛ ومع ذلك فلكلّ قاعدة شواذ.

وإذا ارتأت الأنا أنَّه لا حلّ للمشكلة مع الآخر إلَّا وفقًا لرؤيتها أو وفقًا لثقافتها أو لمعتقدها؛ فهي لا تملك الاتباع، ولا مفاتيح الحلّ للمشكل الإنساني، وفي هذه الحالة توصف بأنَّها أنا متعصِّبة لوجهات نظرها وأفكارها ومنحازة لرغباتها؛ ولذا لا تتمكّن من تكوين علائق مع الآخر، فعلاقتها تكون ضمن المركز الذي تتمركز عليه، فهي تعيش حالة من الانكفاء والجفاء فلا تتمكّن من الوصول إلى الآخر أو حتى التقرُّب منه على سبيل التعرّف على أفكاره وآلامه وأحلّامه، أو حتى في طريقة تفكيره التي في كثير من الأحيان يكون على أساسها الوصول إليه ومحاولة الاندماج معه، وصهر كلّ الخلافات والمشاكل والعوائق في بوتقة إظهار الحقيقة: (نحن سويًّا) و (نحن معًا).

فعندما تنظر الأنا لنفسها وكأنَّها العالم بأسره، تصبح واهمة بما تمتلئ به من ظنون بأنَّه لا يوجد شيء خارجها؛ فهي كما تزعم الأفضل وعلى كلّ المستويات، تعتقد فيما تسلك ولا تعتقد في سلوك الآخرين؛ ولهذا لن تكون قادرة على القيادة الجامعة، بل تصبح مقدرتها في اتجاه ما يفرّق، مما يجعل للتطرُّف مناخًا مناسبًا لإثارة الزّوابع، وهنا يكون الصِّدام بين من يتمركز على أناته (شخصانيًّا) ومن قرّر مواجهته بالمطلق؛ ولذلك تنعدم معطيات الالتقاء الذي يمكن أن يكون من خلاله الوصول إلى بداية عهد جديد في إذابة التشبّث، وجعل الأمور تسير وفق نطاق يلملم ما يحصل ويدخله في دائرة التوافقات التي يكون من خلالها تقريب وجهات النّظر وتغيير الاتجاهات نحو ما يجب؛ فالمركز والتطرّف متقابلان في كلّ شيء إلى أن يجلسا حول طاولة واحدة (نحن معًا) و(نحن سويًّا) وحينها يعرفان أنَّهما كانا

على وهم أنّهما المتقابلان في الوقت الذي هما فيه ليس كذلك؛ ولهذا الجلوس حول طاولة الحقّ المستديرة تجعل كلّ واحدٍ من الجالسين مركزًا مساويًا للآخر، وحينها تنجلي الحقيقة إن كانت النوايا مستهدفة تحقيق آمال مشتركة من أجل صناعة المستقبل الأفضل والأجود والأحسن والأهم والأعظم.

إنَّ تشبّث الإنسان بكلّ ما يتعلق به من أمر حقّ لا يستوجب الحرمان، والأمر هنا: كلّ ما يتعلق بالإنسان من سياسة داخليَّة وخارجيَّة وحربٍ وسلمٍ وملكيّة وتعليم وصحة وكلّ ما من شأنه أن يُسهم أو يؤدِّي إلى إشباع حاجاته دون أن يكون على حساب إشباع حاجات آخرين؛ ولهذا من الوجوب التشبّث بممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسئوليّات، بل من غير اللائق إلَّا يتشبث الإنسان بكلّ ما يتعلق بأمره الاجتماعي والسِّياسي والاقتصادي، وعلى كلّ المستويات الفرديَّة والجماعيَّة والمجتمعيَّة، إنَّه الأمر الطبيعي ومن خالفه خالف قوانين الطَّبيعة التي تأسست على الفضائل الخيِّرة والقيم الحميدة التي جعلت الإنسان هو المركز.

إنَّ تشبّث الأنا برؤاها في مقابل الآخر برؤاه لا يؤدِّي إلى حلّ، بل في بعض الأحيان يؤدِّي إلى التطرُّف مع استخدام أشدّ الوسائل عنفًا ودمويَّةً، وبالتطرّف قد ينتزع الآخر اعترافًا يتمكَّن به من الجلوس على طاولة التفاوض والمراجعة التي تجعل كلّ طرفٍ خيرَ مستمعٍ لآخر جالسًا حول طاولة التفاوض المستديرة على قاعدة: (الحقّ للجميع ودون استثناء)، وتجعله أيضًا خير متحدثٍ عن أمره (سببًا وعلة)؛ ولذ لو لم يكن الحلّ كامنًا في التطرّف ما تطرّف من تطرّف فعلًا وسُلوكًا؛ ولهذا عندما يكون عدم الاعتراف بحقوق

الآخرين وواجباتهم ومسؤوليَّاتهم هو السَّائد، فلا يكون لهم حلٌّ إلَّا التطرّف الدّموي الذي لا يجب الدعوة إليه بأيّ علة أو سبب، بل الانفتاح على مجموعة من الاختيارات والبدائل التي تهيئ الإنسان إلى الاختيار بإرادة، وحلّ هذا الأمر بين الأنا والآخر يمكِّن كلًّا منهما من طي الهوة بمسببات التخلي عندما كانا يتشبّثان بأركان الحلّ المطلق، وبما أنَّ الحلّ مؤسّس على الزّوجيَّة (الأنا والآخر)؛ فلا يمكن أن تستمدّ الحياة قوّتها إذا أُلغي الآخر، وهذا الأمر يخالف الأمر الزّوجي الذي بُنيت الحياة عليه وغرست فيه نبتة الأمل.

ولأنَّ الأنا قوَّة والآخر كذلك فإنَّ مقارنة كلا منهما بالآخر تجعلهما في تساوي القوَّة، ولو جلس الأنا مع الآخر على قاعدة: (نحن معًا) و (نحن سويًّا) مع فائق الاعتراف والتقدير والاحترام لكان الحلّ بينهما مؤسَّسًا على ما يجب، وقاطعوا الفرقة التي لا تكون إلَّا بأسباب تمسُّك كل منهما برؤاه الخاصَّة وتشبّثه بها.

ولذا فانَّ التشبّث بالحلّ هو الحلّ، فالإنسان القوَّة يتوحّد مع الآخر دون أن يجعله خصمًا أو يدفعه إلى أفعال التطرّف؛ ممّا يؤدِّي إلى الوهن والضّعف كلّما تواجها.

ولهذا يجب أن يكون المركز للجميع إن أردنا أن نَقْبُرَ التطرُّف إلى الأبد، وإلَّا ستظهر قاعدة: (إن عدتم عدنا)، وحتى لا يكون التشبّث قاعدة في غير محلّه؛ فعلى الأنا والآخر أن يكونا على قاعدة: (المرونة الاستيعابيَّة) التي بها يُعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه، وبها يكون هامش القول الحقّ، والفعل الحقّ

أكثر اتساعًا، وبها تجد مشاعر الاعتراف والتقدير حيّزًا لها، وتجد المكانة مكانتها، ويُعتمد المنطق الحُجَّة ويجد كلُّ فسحته في ممارسة الأمر بإرادة حرة.

إنَّ رفض الآخر أو رفض آرائه قد يدفعه إلى التطرّف، وكلّما اشتد الرّفض اشتدَّ التطرّف، وفي هذه الحالة يصبح الأمر كمن يرمي حُزمًا من الليف على النّار وهي مشتعلة، فينبغي للحلّ أن يكون على معطيات الوجوب وأهميَّة اتباعه ومعطيات الوجوب ومبرراته أو الإحجام عنه؛ ذلك أنَّ الحلّ يؤسّس على حقائق؛ فلا يكون وقتيًّا لفترة محدودة، بل لا بدَّ أن يكون للزمن القادم برمّته؛ فالحلّ الوقتي ليس هو الحلّ، بل هو في حقيقة الأمر يمثّل عثرة جديدة تجتمع حولها أفكار جديدة تؤجّج الخلافات وتمنحها وقتًا يساعدها كي تثور مرّة أخرى، وهذا الأمر يؤجّج كلّ ما يكون سببًا في عدم الالتقاء بين المركز والتطرّف (بين الأنا والآخر).

إنَّ اتساع المسافة بين المركز والتطرّف في البداية يستوجب تنازلات وطنيَّة وأخلاقيَّة؛ كي يحدث التقارب الذي يكون فيه:

ـ فهم كلّ طرفٍ حقيقة الطّرف الآخر.

ـ محاولة الكشف عن نقاط الاختلاف والاتفاق.

ـ طيّ الهوة بين الطّرفين يبعد شبح الفشل والخوف والتوجس.

ـ رسم معالم المستقبل الواجب صنعه بعد نهاية كلّ العلل والمسببّات الكامنة وراء تأزُّمات كلا الطّرفين.

تقديم التنازلات عن تلك الاشتراطات التي نتجت أيَّام المواجهة الباردة والمواجهة السَّاخنة بين المركز والتطرّف تكمن فيها الحقيقة وأساليبها وكيفيَّة إظهارها من أجل التوصل إلى حلٍّ مؤسّس على كفتي العدل الذي تزول به المظالم ويُكَفُّ به تقديم الضحايا قربانًا عن غير طاعة.

وأيُّ تنازلات تُقدّم اليوم إنْ لم تكن مبنيّة على الحقائق لا تكون غدًا سببًا من أسباب التقارب، بل إنَّ الذين يتنازلون اليوم بغير حقٍّ سيتخاصمون غدا بأسباب التنازلات، والذين يلجأون إلى الحقيقة معلومة بمعلومة وحُجَّة بحُجَّة أولئك هم الذين يشخِّصون الحالة، ويعرفون مكامن العلل التي من خلالها يتوصَّلون إلى درجة التوافق دون إعطاء أي تنازلات.

إنَّ الدّخول في تنازلات ايجابيَّة يؤدِّي إلى حلّ مرضٍ، أمَّا تقديم التنازلات السَّلبيَّة فلا يؤدِّي إلى حلٍّ مرضٍ، حتى وإن توهَّم أحد ذلك فلا يكون الحلّ نهائيًّا؛ ممّا يجعل المشكلة تظهرُ وتعود إلى ما كانت عليه؛ فبذور الفتنة المستقبليَّة تكمن في تقديم التنازلات السّلبيَّة، وليس لها بدٌّ من حلٍّ إلا بإحقاق الحقِّ وفق معطياته ومبرراته ومكانه وزمانه وخصوصيّاته، وإلَّا ستعود الفتنة تشتعل بحطب نار التطرّف.

ولأنَّه لا اختلاف بين من يقول: إنَّ الحلَّ يتمركز في نقطة محدّدة ومن يرى أنَّه لا حلَّ إلَّا بالتطرّف، فالحلّ أن تُفتح آفاق التقبُّل مبدأ بين الأنا والآخر دون طلب تقديم تنازلات مشروطة.

ولأنَّ التقبُّل حقٌّ فلا ينبغي له أن يصادر، ولأنَّه حقٌّ للطّرفين فإن قُدِّم لهما تيسيرا فهو الذي يطوي المسافات بينهما دون تقديم تنازلات مشروطة،

وإذا لم تُفتح آفاق التقبُّل ستظلّ الأنا مستقلة عن الآخر مثلما الآخر مستقل عنها إلى أن يعتمدا مبدأ التقبّل، حينها يصبح التواضع مُمكِّنِ من الالتقاء والحوار والنقاش ويتم التوصُّل إلى الحلّ الذي لا يكون إلَّا من أجلهما، ومن هنا: يجب تعدد المراكز طالما هناك من يُفكِّر في أن يحتكر المركز ويُقصي الآخرين عنه، ومع ذلك لا ينبغي الإغفال عن أهميَّة تقدير المركز العام الذي تأسّس بإرادة لا بإكراه من أحد ولا على حساب أحد، بل تأسّس وفقًا لقاعدة التداول السّلمي على السُّلطة.

إنَّ الأنا والآخر يشتركان في النّوع الإنساني الذي يكتسب الأفكار التي تحدّد السّلوك متأثرة بالدّوافع؛ وهذه الدّوافع متنوّعة المصادر ومتعدّدة الاتجاهات، تفرض على السّلوك وسائل وأدوات في التعبير عن القناعات الفكريَّة؛ ممّا يستوجب وقفة عند الدّوافع التي تحدد السّلوك في اختيار أدوات التعبير.

العقل والفكر الأناني:

الأنا إثبات وجود موجب عندما تتماثل فيه ممارسة الحقوق مع أداء الواجبات وتحمّل المسئوليّات، وإذا لم يتم التماثل الموجب، تصبح الأنا في منعرج السُّلوك الأناني الشّخصاني الذي يُقيّم الأمور من زاوية تحقيق المنفعة التي تعود عليه بغض النّظر عمّا يصيب الآخرين من ضرر (المهم أنا).

ومن الزَّاوية النَّظريَّة فلكل أنا حقوق وواجبات ومسؤوليَّات، ومن الزّاوية الفعليَّة قد لا يمتلك الأنا من ذلك شيئًا، ومن ثمَّ يفر الأنا إلى ما يُمكّنه من ممارسة السُّلوك الأناني والشّخصاني كرد فعل، وليس دائمًا الأنا يسلك أو

يفعل نتيجة ردود أفعال سالبة، في بعض الأحيان يمتلك الأنا كلّ الحقوق والواجبات والمسئوليَّات المتعلّقة به ثم يمتد على حساب ما يمتلكه الأخرين، إنَّه الأنا الطّامع والفاقد لقيم الاعتراف والتقدير والاعتبار للغير.

وتؤكد العلوم الاجتماعيَّة بأنَّ الإنسان اجتماعي بطبعه، ولهذا لا يستطيع الاستغناء عن المجتمع الذي يولد فيه أو ينتمي إليه نتيجة قدراته واستعداداته المحدودة، التي لا تمكِّنه من الاعتماد على نفسه كاملًا، بل جعلته في حاجة ضروريّة للحماية والمساعدة والتعاون والتآزر من أجل البقاء، وإذا تمكّن الإنسان من معرفة حدوده وأسباب وجوده وما يحيط به، ولم يتجاوز ذلك حينها يكون فردًا متفاعلًا إيجابيًّا.

ولسائل أن يسأل:

لماذا يودّ البعض أن يُظهِر شخصانيَّته وأنانيَّته على حساب المجتمع الذي ولد فيه وهو يعرف نفسه كإنسان قاصرًا عن العيش بمفرده وبمنعزل عن بنى جنسه؟

أقول: إنَّ السَّبب هو وجود الفروق الفرديَّة، التي جعلت لكلِّ فرد من بني الإنسان طابعًا يميّزه عن غيره، وكذلك لا ننسى وجود المظالم التي تمتدّ لتلاحق مجالات العلائق القيميَّة وتضع القيد عليها، وإلى جانب هذه وتلك لا ننسى أثر المعلومات والمعارف التي يتشرّبها الأنا في أثناء فترات نموه الزَّمني ونموه المعرفي، ومن ثمَّ فالإنسان بطبيعة الحال لا يتكرر في خلقه، ولا يمكن أن يكون نسخة لغيره أو يكون غيره متطابقًا معه في قدراته واستعداداته ومواهبه وطموحاته ولا حتى في بصمة أصابعه ونسيج جسده، مع أنَّ البشر

جميعهم مخلوقون من نفس واحدة كما قال الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ}[67].

إذن لماذا يرتكب الإنسان الأفعال والأعمال الأنانيَّة وقد خُلق ضعيفًا؟ وعلى من يستعرض قوَّته وهو الضّعيف؟

مع أنَّ طبيعة البشر ومستويات تفكيرهم تمكّنهم من بلوغ الحقّ بلا تردد فإنَّهم أيضًا بها أنانيَّة يتمكّنون من بلوغ درجات التحايل والخداع وبخاصّة إذا عرف الأنا أنَّ الآخر في حالة وهن وضعف؛ ولذا فالأناني لا يتمرّد إلَّا على الغلابة، وفي المقابل الشّخصيَّة الموضوعيَّة لا تتمرّد إلَّا على الباطل، ومن هنا تستطيع أن تواجه الحكومة الظّالمة.

ومما تقدَّم يمكن التمييز بين الذَّاتين المتمرّدتين، الذّات المتمرّدة على الغلابة سلوكها وأفعالها القيميَّة سالبة، والذَّات المتمرّدة على الحكومة الظّالمة سلوكها وأفعالها القيميَّة موجبة؛ ولذا لا يُعد كل تمرّدًا سالبًا.

وهكذا تعدّ الذَّات المنسحبة من ميادين أداء الواجبات وتحمّل المسئوليَّات ذات سلوكيَّات وأفعال سالبة، وفي المقابل الذَّات المتقدّمة لأداء الواجبات والمسئوليَّات أفعالها موجبة، وعليه فالإنسان الذي عصى الله الذي خلقه لا يُستغرب منه أن يعصى المجتمع الذي لم يخلقه، أو أن يعصي أفراد منه، إنَّها الأنانيَّة والشَّخصانيَّة التي عندما تسود أفعالها تُنسي الإنسان معرفة من هو؟ ومن الذي خلقه؟ ولماذا خلقه في حاجة لمن يقوم برعايته؟

---

[67] . سورة الأنعام، الآية 98.

ولذا إذا تمسّك الفرد بأناته ولم يتخطَّ حدودها (حدود أنا ليّ حقّ وواجب ومسئوليَّة أتمسك بها ولا أرغب الامتداد إلى ما هو خارج عنها) فإنَّ ذلك يعني أنَّه تمسّك بقيمهِ التي يُقرّها المجتمع، القيم التي جعلت منه ذات على المستوى الفردي، أمَّا إذا تجاوز هذه القيّم وحدودها الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة فيدخل في منطقه النّزاع مع الآخرين المدافعين عنها باعتبارها حقًّا لهم، ومن هنا يبدأ الصّراع بين الممتد خارج حدوده والمندحر داخلها؛ ولذلك تتكوّن الأنانيَّة أو الشَّخصانيَّة عندما يطمع الفرد في حقوق وواجبات ومسئوليّات غيره، أمَّا إذا تمسّك بحقوقه وحَبَّ أناته ولم يتجاوزها فإنَّ ذلك يعنى أنَّه لم يكن أنانيًّا أو شخصانيًّا، بل إنَّه الإنسان المثال الذي يتوحّد المجتمع فيه فيجعله اجتماعيًّا بطبعه.

وعليه: تعتبر القيم العنصر الأساسي الذي يميّز سلوك الإنسان الأناني أو الشّخصاني عن سلوك الإنسان الذَّاتي أو الاجتماعي، فإذا كان تقييم الفرد للأشياء المشتركة بمنظور كل شيء أنا، كانت أفعال الفرد أنانيَّة وسلوكيَّاته شخصانيّة، وإذا كان التقييم للأشياء والظّواهر بمنظور المجتمع كان الفرد اجتماعيًّا (ذاتيًّا)، وإذا كان تقييم الأشياء بمعطياتها كما ظهرت في الموضوع كان الفرد موضوعيًّا؛ ذلك لانَّ الأنا قد تنفصل عن الموضوع، أمَّا الذَّات الموضوعيَّة فإنَّها ترتبط به.

والانا كعنصر مستقل تعنى: الفرديَّة كبؤرة اهتمام، وعندما ترتبط بالموضوع دون اعتبارًا للآخر تصبغه بطابعها فتصبح هي الأنانيَّة (الشَّخصانيَّة)؛ وذلك لظهور نواياها الخاصّة أو أطماعها الخاصّة سواء أكان هذا الطابع فرديًّا أم أسريًّا، أم قرابيًّا، فإذا كانت المصلحة فرديّة، كان الأنا

فرديًّا، وإذا كانت المصلحة أسريّة أو قرابيَّة، كانت الأنانيَّة بإظهار الأنا لها على حساب الآخرين؛ ولذلك لم تتكون الأنا من حبّ الذَّات كما يعتقد البعض، بل تتكوّن من الانعزال عن الذَّات والموضوع نتيجة التحيّز الشّخصاني الذي يُظهر الأنانيَّة.

وبناء عليه: إنَّ التحليل العلمي الذي يتأثر بالأنا الطَّامعة المنعزلة عن الذَّات والموضوع، هو تحليلًا شخصانيًّا أنانيًّا لا يقرّه العلم ولا تقرّه القيّم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة؛ ولذلك يحدث ما يسمى بحوار الذَّات الذي تثيره الحاجة وتدفعه الأماني، فإذا تجاوز الأنا حوار الإشباع وفقًا للحاجة، كان الأنا شخصانيًّا، وإذا التزم بحدود الإشباع كان الأنا ضمائريًّا وموضوعيًّا.

ولذا فالأنا لم تكن عيبًا إذا لم تتجاوز حدودها على حساب الآخرين، بل ينبغي التمسك بها كطابع مميّز بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، فكل (أنا) خُلقت متميّزة عن غيرها ومن ثمَّ لا يُعد التمسّك بها عيبًا، وبما أنَّ كل (أنا) متميّزة عن غيرها بخصوصيّاتها، إذن الكل متميّز عن غيره بما يمتاز به، والتمسّك بالميز يعنى التمسّك بالقيم الخيّرة والأفعال الحميدة، ومع أنَّ الأنا واحدة فإنَّ أدورها متعدّدة، فأنا الفرد تختلف عن أنا الأسرة أو الجماعة، وأنا المجتمع تختلف عن أنا الأمّة، أو أنا الوطن، أو أنا الإنسان، فعندما أكون أنا الإنسان تكون القيّم الإنسانيَّة هي التي يحتويها ضميري وتمارسها أفعالي وسلوكيَّاتي؛ فالقيّم الإنسانيَّة لم تكن ملكيّة فرديَّة، بل ملكيّة عامّة تتجسّد في الفرد حتى يصبح إنسانيًّا بطبعه؛ ولذلك عندما تتجسّد الأفعال الإنسانيَّة في سلوك الفرد وأفعاله يصبح الفرد وكأنَّه الإنسانيَّة بحالها، وتوصف حالته بالموضوعيَّة، وإذا لم تتوحّد الإنسانيَّة في أفعاله وسلوكيَّاته قد تتوحّد فيه أفكار

وأفعال على مستوى آخر قد يوصف مرتكبها بالمنطقي أو الإنسحابي، أو الذَّاتي أو الأناني.

ويكون الفرد أنانيًّا بخروجه عن حدود (أنا الواثقة) نتيجة مصلحة خاصّة، أو طمع في شيء هو حقّ لغيره، وتكون ألانا الخيّرة هي التي تقف عند حدودها ولا تمتد طمعًا في السّيطرة على غيرها، وتوصف بأنَّها مثال ينبغي الاقتداء به، وعليه ينبغي أن تسيطر كل أنا على أناتها حتى لا توصف بالهامعة الطّامعة، وعندما يسيطر كل فرد بإرادة على أنانيّته وشخصانيّته ويصحح عيوبه ويسلك كما يود للآخرين أن يسلكوا تجاهه ويحب لنفسه كما يحب لغيره فإنَّ ذلك يجعله على صفة المجتمع بأسره، وتصبح الذَّاتيَّة هي الشّخصيَّة السَّائدة بين أفراد المجتمع وجماعاته.

وعلينا أن نميّز بين الأنا وأفعالها، والأنانيَّة وأفعالها، في الأنا كبرياء الذَّات وأنفتها نتيجة التزامها بقيّم المجتمع سواء على المستوى المحلي أم العالمي، وفى الوقت ذاته فالأنانيَّة فيها نتيجة الطَّمع والتعصّب للباطل والحياد عن الحقِّ.

إذن: الذي يحدد السُّلوك الأناني أو الذَّاتي هو الإطار المرجعي، فإذا كان الإطار المرجعي أنانيًّا ذا اتجاهات سالبة يظهر دور الأنا على حساب قيم المجتمع أو الأمّة الفاضلة فيوصف السّلوك بالأناني، وإذا كان الإطار المرجعي جماعيًّا أو مجتمعيًّا موجبًا فيظهر دور الذّات المستوعبة لطموحات الأنا من خلال القيم المشتركة بين أفراد المجتمع.

وعليه: الوهم هو ما يسيطر على عقل الإنسان ويقوده إلى ملاحقة السَّراب الذي يظنّه ماء، والأمور فيه تقيّم من خلال الأنا بغض النّظر عمّا

ينبغي أو ما يجب أن يكون؛ ولذا فالبعد الأناني بعد غروري؛ وذلك نتيجة ضعف النَّفس وطمعها وتمركز تفكيرها على ما ترغب وتشتهي في يومها الذي هي فيه دون أن تولي اهتمامًا ليوم الغد (تنظر للحاضر ولا تلتفت إلى المستقبل).

ومن هنا فالشّخصيَّة الأنانيَّة لا تُقدّر إلَّا نفسها، ولا تعتبر الآخرين، فهي لا تعترف بحقوق الغير، الحياة ضيقة في نظرتها، تُقيّم الأمر بنظرتها ولا تقبل بمشاركة الآخرين، ولا تتفاعل معهم، تعشق صورتها حتى ولو كانت على الماء، تبتسم معها وتحاكيها وكأنَّها تتكلّم، تَقدِم على الانتحار من أجلها ولا تقدم على مساعدة سواها؛ ولذا النرجسيّة الشَّخصانيَّة هي الإفراط والمبالغة في تقدير الأنا واعتبارها، ثمَّ أنَّها تسعى لأن تفرض روها على الذين هم في محيطها، شخصيَّة مخادعة غير واضحة المعالم، سيرتها لا تخرج عن أنا من ساعة المرض إلى ساعة الشّفاء، علاقاتها صفريّة (لا وجود للعلائق الإنسانيَّة في طبيعتها)، في حياتها غير المنتجة اتكاليّة، المجتمع بالنسبة إليها هو المسئول عن إشباع حاجاتها وهي غير مشاركة له في شيء.

إنَّها الشّخصيَّة التي تطالب بحقوقها وتتهرّب عن أداء واجباتها ولا تتحمّل المسئوليَّة (شخصيَّة اتكاليّة) علاقتها مع الدِّين علاقة قسرية وليس بإرادة واعية، وجدت نفسها قد شبّت على دين معين فلا ترى غير الاتباع حتى لا تكون في حالة من الاستنكار العام، وكأنَّ الدِّين قد فُرض عليها كرهًا، فلا تتبع تعاليمه قناعةً وإيمانًا، تود أن تترك في سبيلها لتفعل ما تشاء مثلما تشاء، ولا سعادة لها إلَّا في المادّة، فعندما تمتلك بغض النّظر عن الأساليب التي تمتلك بها تَسْعُد، تقيّم الأمور بما يعود عليها من منافع

ومكاسب مادّيَّة. في قاموسها الجمال لا يعني شيء والعلاقة به عابرة، تمرّ مرّ السّحاب، قدراتها المعرفيَّة لا تمكّنها من التمييز بين الجمال والجميل، الفن بالنسبة إليها مضيعة للجهد والوقت فتستهجنه، وكأنَّه لا يعني شيء، إنَّها الشّخصيَّة الوصوليّة التي تمثّل الأدوار المختلفة، تنافق الآخرين في سبيل مصلحة الأنا، معتقداتها ضعيفة تقترب من الطَّبيعة حتى لا تغضب عليها، وتعتقد أن تقربها منها ينجيها من غضبها.

الشّخصيَّة الأنانيَّة لا ترتقي نفسيًّا إلى حبّ الآخر، تنظر لأناها وكأنَّها العالم بأسره، فلا تعتقد أن يكون شيء خارجها أفضل منها، تعتقد فيما تسلك ولا تعتقد في سلوك الآخرين، لا يمكن أن تكون قادرة على القيادة، بل أنَّها الشّخصيَّة التي تقاد دون أن تعرف، فهي تبعيَّة لعدم قدرتها على استيعاب الحدث، وكأنَّ الأمر لا يعنيها في شيء، تقبل باستبداد السِّياسة التي ترى أن تكون مركزيَّة بيد الحاكم من يكون، وفي مقابل ذلك لا ترى مانعًا في منافقة السُّلطة، تقضي يومها بين حالة الشّكر وحالة الذّم، وكلٌ حسب الظّرف والموقف الذي هي فيه، إذا كُلِّفت بمهمَّة أو وظيفة تميّزها في أحد المراكز لأية أسباب، فلا ترى في الموقع إلا للتّعالي والتسلّط على الغير، ممّا يجعلها في حالة فقدان توازن، وهي تعتقد أنَّها في حالة تشريف ولا مثيل لها.

ومن هنا فهي الشّخصيَّة المتعصّبة لوجهة نظرها وأفكارها وهي دائمًا في حالة انحياز لرغباتها؛ ولذا فلا تتمكّن من تكوين علائق على مستوى المجتمع الإنساني، والوطن بالنسبة إليها مكانًا للعيش في حالة ما إذا توافر الأمن فيه، وفي المقابل تبتعد عنه كلّما تعرّض للخطر، أو أنعدم الاستقرار

فيه؛ ولهذا تعيش هذه الشّخصيَّة حالة من الجفاء مع المجتمع المحلي، وعلاقاتها الأسريّة في حالة صدام واضطراب مع أفراد الأسرة، تحب السّيطرة على الزّوج وقد لا تتمكّن نتيجة الصّراع الدّائر بين أفراد الأسرة، وتعتبر في الكرم تبذير ليس إلَّا، والبخل بالنّسبة إليها لا عيب فيه نتيجة لاختلال معاييرها ومقاييسها القيميَّة، ولا تصادق إلَّا لأجل مصلحة، أما غير ذلك لا ترى في الصّداقة أي فائدة، وعلاقتها بالجنس الآخر علاقة دونيّة.

المؤلِّفُ في سطورٍ

. أ د. عقيل حسين عقيل

. مواليد ليبيا 1953م

. بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الترتيب الأوَّل جامعة الفاتح (طرابلس).

. معيد بكليَّة التربية طرابلس قسم الخدمة الاجتماعيَّة 1977م

. ماجستير تربية وتنمية بشريَّة، الولايات المتحدة الامريكيَّة (جامعة جورج واشنطن) 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة 1992م.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين عام اتحاد الطلبة بمحافظة سبها 1970 – 1972م.

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشّعب العام مفتشا عامًّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلِّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرًا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينًا عامًّا للتنمية البشريَّة بأمانة مؤتمر الشَّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (207) مؤلّفا منها سبعة موسوعات.

. أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشريَّة.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: https://draqeel.com/

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدّكتور عقيل حسين عقيل: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (207) مؤلّفا منها: سبعة موسوعات، وهي:

1 . الموسوعة القِيميَّة لبرمجيَّة الخدمة الاجتماعيَّة (4 مجلَّدات)، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

2 . موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض (11 مُجلَّد)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2009م.

3 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن (9 مجلَّدات)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

4 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن (12 مجلَّد)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

5 . الموسوعة من قيم القرآن الكريم (13 مجلَّد)، شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

6 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة (27 مجلَّد)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

7 . موسوعة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (18مجلَّد).

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه بالداخل والخارج.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشريَّة.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسِّياسة.

4 . الإسلاميَّات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلَّفات باللغة الإنجليزيَّة، والتركيَّة.

المؤلَّفاتُ المنشورة

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفيَّة لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلميَّة دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربيَّة للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البُستان الحُلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطيَّة في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا، 2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيميَّة معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجيَّة القِيميَّة لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجيَّة القِيميَّة في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 . البرمجيَّة القِيميَّة في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القِيميَّة لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 . البرمجيَّة القِيميَّة في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 . مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 ـ إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

31. إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33. يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2010م.

34. داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39. محمّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التَّطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمة وسطا، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقَّع وغير المتوقَّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58. من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59. من قيم القرآن الكريم (قيم تدبُّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60. من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61. من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62. من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63. من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64. من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65. من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66. من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرَّفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النَّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرَّار وحقَّائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السّياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنيَّة بين متوقَّع وغير متوقَّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنيَّة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94. إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95. إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96. يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97. يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98. شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99. أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101. يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102. موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشريَّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصَّائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقَّع وغير متوقَّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التَّأزُّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيَّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثِّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصَّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميَّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 –كيفيَّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيميَّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشريَّة (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التَّطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطَّريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظُّلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوَّة تفكّ التَّأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 _ نحو النظريَّة خلقا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 _ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التَّاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطَّريقة العلميَّة لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

163- معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة: 2022م.

164 . أيد السارقِ تقطع، المصرية، القاهرة: 2022م.

165 – العقل من اللاشيء إلى الشَّيء دراية، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

166 – النُّقلة من التكيف إلى التوافق، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

167 – أوهام الأنا (اللاهويَّة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

168 – استرداد السِّيادة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م

169 - موت الموت، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

170 – العقل قيد (من الأمّية إلى الاستنارة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

171 – الرِّجال القوامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

172- الدِّراية من الأمر إلى الطاعة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

173- النشوز والقيم القوَّامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

174 – استطلاع الدراسات السَّابقة (من حيرة الباحث إلى نيل المأمول)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

175 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (قواعد ومبادئ)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

176 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة، (غرسُ ثقة، تحدّي صِعاب، إحداثُ نُقلة)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

177 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الدَّور المهني للأخصائي الاجتماعي)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

178 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (من التكيُّف إلى صنع الأمل)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

179 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (مجالاتها عمليَّاتها وسائلها)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

180 – الشَّخصيَّة (من الترجّي إلى التحدي)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

181 – الشَّخصيَّة الليبيَّة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

182 – الشَّخصيَّة المتهيّأة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

183 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (دراسة الحالة من النشوز إلى قطع اليد)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

184 – الشَّخصيَّة المتأهِّبة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

185 – الانحراف من النّشوز إلى الضَّرب، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

186 – التدبُّر، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

187 – التفكير (من التذكُّر إلى التَّفكُّر)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

188 – الاستنارة (من الاستظلام إلى الاستجلاء)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

189 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (من إنجاز الأهداف إلى نيل المأمولات)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

190 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (المستويات القِيميَّة للتحليل العلمي)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

191- الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الأهداف المهنيَّة وإحداث النُّقلة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

192 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (تحدي الصِّعاب يمكن من بلوغ الغايات)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

193 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (من الإرادة إلى تفعيل المشاركة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

194 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (التطرف بين المعلومة الخاطئة والمعلومة الصَّائبة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

195 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (كيف تصنع أملا)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

196 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الخوف استطلاع مستقبل من التذكُّر إلى التَّفكُّر)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

197 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (مجالات مهنة واستنارة عقل)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

198 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (المبادئ القِيميَّة لرعاية الأفراد وتنظيم المجتمع)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

199 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (طرق متساندة مترابطة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

200 – موسوعة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

201 . الشَّخصيَّة الوطنيَّة الليبيَّة (سيادةً وهويَّةً)، دار النخلة للنشر، طرابلس: 2023م.

202 . أرسول ويغزو؟!، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

203 . الخلق من العدم إلى الاستخلاف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

204 . الفضائل مصادر النِّعم، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

105 – الصّبر مفتاح التحدّي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

106 – السيادة الوطنية إرادة وهوية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

107 – الفِكْرُ بين قضيَّة عقليَّة وأخرى، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.